مات رولوف

تراسي سومنر

قَزْم في عالم العمالقة

سيرة ذاتية

ترجمة:

رفعت السيد علي

نيفين رفعت السيد



قزم في عالم العمالقة

سيرة ذاتية

هذه هي الترجمة الكاملة لكتاب

Against Tall Odds

Being David In A Goliath World

Matt Roloff with Tracy Sumner

Multnomah, 1999

قزم في عالم العمالقة

مات رولوف و تراسي سومنر

ترجمة: رفعت السيد علي
ونيفين رفعت السيد



٥ ش محمد صدقي، هدى شعراوي
الرقم البريدي، ١١١١١ باب اللوق ، القاهرة
ت : ٣٩٠٢٩١٣ فاكس: ٣٩٣١٥٤٨

رقم الإيداع: ٢٠٠٢/١٦٧٤٣
الترقيم الدولي: ISBN 977-283-123-6



إهداء

إلى أبويَّ،
رون وبيجي رولوف،
لحبهما، وعطفهما، وحزمهما، وحكمتهما
التي ساعدتني على اجتياز عقبات الحياة.



مقدمة

الحياة في المزرعة

أنا أحدب

كان صباح يوم الثالث من مارس عام ١٩٩٠ صباحاً ممطراً في الشمال الغربي لولاية أوريجون. كنت قد قدمت توّا استقالتي من أفضل وظيفة عملت بها في حياتي حتى تلك اللحظة — وهى وظيفة مصمم برامج كومبيوتر في وادي السيليكون، كان عمري في ذلك الحين ثمانية وعشرين عاماً. كانت زوجتي في ذلك الوقت حاملا في شهرها السادس، وكانت تحمل في رحمها توأماً، وكنا مؤخرا قد اشترينا منزلاً في بورتلاند.

وها أنذا في هيلفيتيا، بولاية أوريجون، أحدق في المنزل القديم المتهالك الذي اشتريته مع المزرعة التي يتوسطها أنا وحدبتي.

كان المترل الذي اشتريته في بورتلاند منــزلاً حديثاً. أما المترل الــــذي اشتريته مع المزرعة فقد كان كئيباً وبالياً. المترل الحديث كان يقع على مسـاحة محدودة من الأرض، أما القديم فقد كان ضمن أرض تبلغ مســـاحتها أربعــة وثلاثين فداناً، ويقع عند نهاية طريق غير ممهد مليء بالحصى، ويختفي بين قمـــم تلال متدرجة الارتفاع وبقاع ومناطق من الأعشاب وأخرى من الأشجار، يعاني من الإهمال، وبقربه جرن حبوب قديم، وشجرة لوز عتيقة تغري بربـــط حبـــال بفروعها لعمل أرجوحة أطفال.

أنا لا أمزح! كان البيت في تلك المزرعة عتيقاً وبالياً. كانت غرفه مليئة بالمخلفات والحطام، وكان طلاؤه يتهاوى في قشور، وسقفه تتسرب منه ميـــاه الأمطار، إلا أنني كنت أدرك أن ذلك البيت يمكن ترميمه. مكان رائع لتربيـــة الأبناء به، سيكون تحت تصرفهم تلك البقعة من الأرض التي تصلح ملعباً يلـهون فيه. كانت لدي خطط كثيرة، ولدي تصورات.

ولدى حدبة.

والآن حين تقطع ذلك الربع ميل من الطريق غير الممهد المغطى بـــالحصى، والذي يقع المترل في آخره، سترى بيتاً مختلفاً تماماً. الجرن المتهاويـــة منشـــآته تم تجديده بأجمعه، وأعيد تأسيس مبانيه على قواعد من الحجارة، وتم طلاؤه باللونين الأبيض والأحمر، حتى يكتسب الطابع الأمريكي. ودغل الأشجار ظهرت العنايـة به، وأصبح منتجاً، وفى الصيف يثمر خوخاً من أحلى الثمار وأكبرها حجمـــاً في المنطقة، والبيت أصبح دافئا وجميلاً مع بعض التعديلات الخاصة التي أدخلتـــها عليه. وربما لا تلحظ كل ذلك بسبب ما يجذب نظرك إلى جواره. ففي منتصف البركة الواقعة بالقرب من المترل تنهض سفينة قراصنة على الطراز القديم، يبلـــغ طولها ثلاثين قدماً ومكتوب عليها اسمها: "رولى بولى"، وتنهض على ســــطحها

صواري ثلاثة أشرعة، وهناك قمرة الربان، وكبائن طاقمها من ألواح أخشاب أصلية.

وعلى مقربة من سفينة القراصنة نموذج لمدينة الغرب الأمريكي القديم، توجد بذلك النموذج محال حدادة لتغيير حدوات الخيل، ومكتب بريد، ومخزن عمومي، وبنك، وسجن لحبس الأشرار والخارجين على القانون. كل تلك المباني صممت بحيث يمكن تحريكها و إعادة ترتيبها حسب الرغبة. وعلى أطراف المدينة منزل للشريف، وثلاثمائة قدم من الأنفاق السرية تجرى تحت نموذج المدينة.

هل تذكر ما قلته من قبل : إن لدي خططاً؟

وحين تشعر بالتعب من اللعب في مدينة الغرب الأمريكي القديمة، وتحتاج للحصول على قسط من الراحة، يمكنك الاتجاه إلى منزل الغابة المقام على الأشجار من أربعة طوابق، ويبلغ ارتفاعه خمسا وثلاثين قدماً بين فروع أشجار البلوط الضخمة العتيقة. وتم تصميم منزل الغابة بتلك الطريقة على فروع أشجار البلوط حتى يتمايل مع الرياح عند هبوبها، إلا أنه آمن تماماً. وهناك ست وسائل للدخول إليه بما فيها السلالم ، وسلم من الحبال، وشبكة بضائع يمكن تسلقها للوصول إلى منزل الأشجار. والقسم العلوي من بيت الغابة عبارة عن قمرة مراقبة سقفها من الحشائش، وتشرف شرفة منزل الأشجار على المزرعة بأجمعها.

وتحت الجرن الذي تم تجديده، هناك "نفق المنجم" للباحث سعيد الحظ. أما مخزن الجرن ففيه غرفة هزازة بها شاشة تلفاز ضخمة، ومشرب به عصائر للضيوف من أبناء الجيران. وفى موضع آخر من المزرعة يوجد ما يصل طوله إلى ١٨٠ قدماً من أسلاك التعلق المنزلق، وملعب للكرة، وثمانية قناطر (أنا أحب القناطر) وأماكن كثيرة متطورة للمخيمات.

وما زالت هناك مشاريع أخرى على طاولة التخطيط الأولى بالرسومات. مشروعي التالي هو أقامه "برج الرعب"، وهو برج يبلغ ارتفاعه أربعة وعشرين قدماً، وتم تصميمه بحيث يتمايل ويهتز ويميد بأي إنسان تصل به شجاعته

إلى قمته. وقد صممته لأولادي (ولأبويهم الذين يخافون من أي اهتزاز) ولذلك لابد إن يكون آمناً تماماً إلا أنه يصيب بالرعب من يصعده.

لماذا قمت ببناء وإقامة كل تلك المنشآت؟ هل لأثبت شيئاً؟ أم للاستعراض وحب الظهور؟ كلا، لقد شيدت كل ذلك لأنني أظن أنه سيوفر جواً مرحاً — لأبنائي ولي. إن كاتب المواعظ كان محقاً حين قال إن هناك وقتاً للدموع ووقتاً للضحك واللهو. وآخذاً في اعتباري الآلام التي عانيتها في حياتي منذ مولدي، فأنا أعتقد تماماً أنه آن أوان اللهو والضحك.

لذلك أقمت نموذجاً للمباني التي عاش بها "توم سوير" بطل الرواية المشهورة. إلا أنني لا أفتتحها لتحقيق مكسب أو منفعة مالية بل لمجرد أن تصبح مكاناً للمعايشة والتخيل لأبنائي وأصدقائهم وأصدقائي.

أصبحت تلك المزرعة شهادة حية للعالم بأنك تستطيع أن تقدم شيئاً عظيماً من ثنايا ما يعتبره الناس تافهاً وعديم الجدوى.

(١)

الحياة – والحب – والعيش بإعاقة

كثيراً ما ينظر لي الناس، ويخمنون أنني لا يمكن أن أكون سعيداً.

أعلم أن كثيرا من الناس يتساءلون كيف تمضى أمور حياتي مع عجزي وما أعانيه من إعاقة؟ وأعرف أنهم يودون معرفة كيف أمارس شئون الحياة في عالم لم يعد ولم يهيئ لمعيشة من هم في مثل حالتي.

وأخمّن أنهم يتشوقون إلى معرفة قصة ذلك القزم الذي تمكن من التغلب على الآم لا يتحملها بشر مع إعاقة وعجز مستديمين، وكيف حول كل ذلك إلى نجاح فريد يبعث على الفخر. أدرك أن كثيرين يودون معرفة كيف ظللت حياً مع ما أعانيه من عجز.

وأنا نفسي على يقين من أنني لو انفصلت عن ذاتي ورأيت نفسي بعيـــون الآخرين لابد أن تدور بذهني الأسئلة ذاتها. لم أتمكن من التشبث بالحياة فقط، بـل على العكس نجحت وتفوقت، وأنا فعلاً سعيد وأشعر بالرضـــا وتملـــؤني كـــل التجارب التي عشتها بفرحة وسعادة. لقد عشت كل يوم من أيام عمـــري بمـــا يعتبره أي إنسان إعاقة بدنية شديدة، فإعاقتي واضحة مثل الشمس لكل من يراني.

أنا أعتبر —بتعبير سياسي صحيح– ضئيل الحجم. وبتعبير أصـــح، قزمـــا. وبمصطلحات طبية، قزما توقف نموه الغضروفي التشوهي، إنني لست قصير القامـة فقط، بل أعاني أيضاً من مشاكل خلقية في قدمي وركبتي وكتفي وذراعي وجميع أجزاء جسمي بما يستحيل معه أن أقف منتصب القامة أو أن أسير دون عكازين.

حتى مفاصلي، بما فيها مفاصل يدي وقدمي، مشوهة بطريقـــة واضحـــة، وكذلك فخداي وركبتاي، فبدلاً من رأس عظمة الفخـــذ ومحورهـــا الموجـــود بالحوض في أي فرد عادي، لدي رأسان في عظمة فخذ في ناحيـــة، وحافظتـــان حاويتان في الجهة الأخرى. هناك أيضا اعوجاج في فخد، مما يعوقني عن الدوران بطريقة سهلة. كذلك لدي ذراعان وساقان في غاية القصر، مقارنـــة بجســـمي. وأبلغني الأطباء المشرفون على حالتي أنه يمكن إجراء بعض الجراحات الجديـــدة لتقويم بعض من تلك المشاكل العويصة، وأعطوني مهلة لأفكر في ذلك الأمر.

إلا أنني بعد كل ما عانيته من جراحات، وما مررت به من إجراءات طبيه لا أشعر أنني متحمس لرؤية محتويات غرف العمليات الجراحية من جديد، لا جدال في ذلك!

إن كنت بين جمع من البشر، أو في مكان عام، أو في مركز تسوق، أو في مطعم، أو في كنيسة، ستجد الأعين مصوبة تجاهي من كل ناحية، خاصة أعـــين الأطفال الذين ستجدهم يحملقون في براءة ودهشة إلى كائن مختلف تماماً عن كل ما اعتادوا رؤيته. ولا تسبب نظرات الأطفال لي أي ضيق أو ألم، فعلى الرغم مـن إدراكي أنني مختلف عن باقي البشر، ومعرفتي لسبب حملقة الأطفال بي، إلا أنـــني

أشعر برغبة شديدة في تبادل الحديث معهم، وأجيب على كل أسئلتهم المشبعة بالفضول والدهشة.

أنا واحد من خمسة وعشرين ألف قزم تقريباً يقيمون حالياً في الولايات المتحدة الأمريكية. إلا أنهم لا يعانون جمعياً من المشاكل الصحية المتعلقة بالأقزمة. وبالرغم من أن كثيراً منهم لا يعدون أنفسهم معاقين، إلا أنني أعتبر نفسي معاقاً.

هناك أكثر من مائة نوع من أنواع الأقزمة، وكل نوع له مواصفاته البدنية الخاصة المميزة له. بعض الأقزام يتمتعون بصحة طيبة كغيرهم من البشر، زوجتي على سبيل المثال، وهي قزمة تتمتع بصحة طيبة للغاية.

أما أنا، فقد قضيت معظم سنوات طفولتي منذ مولدي بالمستشفيات في سلسلة شبه متصلة من العمليات الجراحية. وما بين جراحة وأخرى، كنت أقضي الوقت في عمليات تأهيل مؤلمة، وعانيت من عزلة شبه متصلة لا يحتملها أي طفل سوي.

قضيت سنوات طفولتي في إحدى المستشفيات، جرب فيها الأطباء والجراحون المباشرون لحالتي كل وسائل العلم والمعرفة، والوسائل التي مازالت تحت التجريب، بل التي كانت تجرب عليّ لأول مرة في محاولات منهم لإصلاح وعلاج بعض المشاكل التي ولدت بها في مفاصلي وعظامي.

وعندما انتهوا من كل ما لديهم، استطعت المشي بمساعدة عكازين (أقصى ما استطاعوا تحقيقه هو أن أمشى متكئاً على عكازين، إلا في استثناءات قليلة من حياتي استبدلت فيها العكازين بعصا، أما العكازان فلا غنى لي عنهما للحركة ومواجهة متطلبات الحياة. وأتوقع أنني سأضطر في يوم ما إلى استخدام المقعد المتحرك.

حتى الآن استخدم العربة الكهربائية في أماكن معينة مثل مراكز التسوق والمطارات.

ولا أحب إن أبدو لكم وأنا أتحدث عن هذه الأشياء متشكياً، ولا أن أبدو مستدراً للشفقة، بسبب كل المصاعب والمعاناة التي تحملتها، لأنني لا أملك وقتاً أضيعه في مثل تلك الأمور وليس لدي النية لهدر طاقتي فيما لا طائل من ورائه، أو أن أشغل فكري بما حرمت منه، أو ما كان يمكن أن يحدث لو كنت كذا وكذا... ، لأنك قد تندهش يا عزيزي القارئ لو رأيت السرعة التي أتحرك بها على عكاكيز، وتخيل معي جسمي ذا مركز الجاذبية المنخفض بقرب سطح الأرض، وذراعين قاما بدور الأرجل على مدى سنوات طويلة.

أنا محب للحياة

لو أتيحت لي الفرصة لكي أحكي لكم كل شيء عن نفسي، ما عدا الجانب الخاص بإعاقتي البدنية، قد تظنون أني أسعد رجل في العالم وأكثر الناس حظاً (واعتقد أنكم مصيبون في ذلك) لقد حققت نجاحاً منقطع النظير على الصعيد المهني. فأنا أقوم بتصميم وبيع أنظمة الحاسب الآلي مما در عليّ ملايين الدولارات، وأتمتع بحياة زوجية سعيدة، ولي أربعة أبناء من أصح وأعظم الأبناء . لدي عائلة وأبناء وأصدقاء أسعد بهم وأحبهم حباً جماً: وأسكن في مزرعة جميلة اشتريتها بأحد المناطق الجميلة بالولايات المتحدة، فهي تقع في الساحل الشمالي الغربي للمحيط الهادي. وهى مزرعة عملت على أن تكون مكاناً للعمل وللمتعة في آن.

قد ينظر بعض الناس إلى ذلك ويتداعى إلى ذهنهم المثل القديم "إذا أعطتك الحياة ليموناً، فأصنع منه ليمونادة"، وهو بالفعل مثل واقعي وحقيقي، فقد استمتعت بحياة جميلة على الرغم من إعاقتي — وأشعر بتردد وأنا أستعمل التعبير "على الرغم من"- إلا أنني لا أنظر لأدائي في الحياة بصفته ليموناً على الإطلاق. فأنا لا أصطنع الأعذار أو أدع إعاقتي، وحالتي البدنية تحول دون استمتاعي

بالأشياء التي يستمتع بها كل الناس، أو تحويل دون تميزى في كل ما أختـــاره أو أسعى إلى تحقيقه. وفى حقيقة الأمر أعتقد أن إعاقتي أعطتني الحافز الكافى للحياة.

يقال "إن المرء إذا فقد بصره، فإن جميع حواسه الأخرى تزداد حدة وفاعلية، في محاولة من باقي الحواس للتكيف بتنشيط حدتها جميعاً". ذلك بـــالضبط مـــا حدث معي، فقامتي القصيرة وإعاقتي مكنانى من تطوير حياتي بطريقة ما كنـــت لأحققها إذا كان طولى طبيعياً وفى كامل الصحة. وعرفت من خبراتى الـــتي مرت بي أن الناس يتفاعلون معي بطريقة مختلفة عن تلك التي يتفاعلون بها مـــع الآخرين، لذلك حاولت أن أوظف ذلك التفاعل الإيجابى لصالحي.

على سبيل المثال أعتقد أن إعاقتي ساعدتني على تطوير مهارات الآخريـن – وهى قدرتى على التواصل والتأثير في الغير– لذلك كان لابد لي أن أكـــون ناجحاً في مجال عملى. كانت تلك هي الطريقة المثلى للتكيف مع عالمي.

فكوني قزماً، أجبرني على العمل على فرد وتقوية العضلات التي ما كنـــت أسعى إلى تمرينها لو كان حجمي طبيعياً. قد يبدو ذلك في نظر بعض النـــاس نوعاً من الخلل إلا أنني لم أثمن أكثر من ذلك. فأولئك الذين لم يتخيلـــوا أبـــداً أنفسهم في مكاني سيتخيلون أن إعاقتي مدمرة ولا تبشر بأي خير.

مرات لا نهائية كنت أسمع سيدات طاعنات في السن يقلن حين يرينني وهـــن مدهوشات: "يا إلهي هذا فظيع انظروا إلى هذا الولد الصغير المسكين."

كان من الممكن أن يؤثر تكرار ذلك التعبير الذي كنت كثيراً ما أسمعـــه على نفسيتي وثقتي بنفسي.

لقد كانت الإعاقة سببا في خلق منطق معين كان كافياً لي ودافعاً "للتعايش" مع هذه الإعاقة. كانت الإعاقة بالنسبة لي جزءاً من حياتي اليومية، وجزءا ممـــا وصلت إليه الآن، لذلك أشعر برضا كامل عن الصورة والهيئة الـــتي خلقـــت عليها.

لم أنظر أبداً إلى حالتي على أنها تشكل صعوبة خاصة، أو على أنها تمثل محنة. كنت أؤمن على الدوام أن بإمكاني أن آخذ من الحياة ما أريد. كان عليّ أن أتكيف مع العالم حولي وذلك من خلال ممارستي لجميع الأنشطة اليومية مثل قيادة السيارة والذهاب للتسوق مع زوجتي واستبدال جواربي، وعلى وجه العموم لم تمنعني إعاقتي يوماً من فعل أي شيء أردته.

أدرك تماماً أنني محدود في جوانب كثيرة بسبب حجمي وحالتي، فمن الواضح أنني لا أستطيع أن ألعب كرة السلة أو كرة القدم. ومرت على أيام كثيرة شعرت فيها بالتعاسة بسبب حجمي الضئيل، وكثيراً ما تمنيت وحلمت أن أصبح إنساناً بحجم طبيعي. وأتذكر حين كنت طفلاً صغيراً وأردت أن أكون مثل باقي الأطفال الذين كانوا معي بالمدرسة. وكثيراً أيضاً ما كنت أتساءل كيف يكون الحال إذا أصبحت طويلاً وأتمكن من لعب كرة السلة أو كرة القدم مثل جميع أصدقائي.

كنت أدعو الله قبل أن أستغرق في النوم أن يجعلني أستيقظ فأجد نفسي طويلاً وبدون إعاقات. إلا أن الله لم يقدم لي تلك المعجزة، ورحت أستيقظ كل صباح لأجد نفسي ما زلت قزماً.

عندما كنت في المدرسة، ألقيت خطاباً في جمعية المتفائلين بعنوان "أرى أملاً في الغد"، وتحدثت فيه عن التغيرات الاجتماعية والتقنية في مجتمعنا والتي تجعل الحياة أفضل وأسهل للمعاقين.

تحدثت أيضاً عما أراه كميزات حقيقية لأمثالي من الأقزام. أردت أن يعرف كل من استمع لحديثي أنني راض تماماً عما أنا عليه، وأنني ما كنت لأغير شيئاً من هيئتي التي خلقت عليها لو كان ذلك بيدي.

لم أود أن ينظر إليّ أحد قائلاً: "لقد أبلى بلاء حسناً بالنسبة لشخص معاق" أو أنه "ناجح كقزم" أو "لقد استطاع أن يتعايش" كنت أريد أن أنظر لحياتي قائلاً: "لقد استغللت مواهبي على أكمل وجه" . أردت أن ينظر إلى الناس على أنني كائن استطاع أن يصل إلى ما هو أبعد مما يستطيع الكثيرون من أمثالي الوصول إليه أو تحقيقه، وأن يؤمنوا أنني إنسان فعل ما بوسعه حتى يتجاوز كثيراً ما هو متوقع منه.

أغلب المعاقين لا يفكرون إلا في مجرد المضي في هذه الحياة، يعيشون فقط بأقل التوقعات الممكنة في هذا العالم، أو يتخذون من إعاقتهم أعذاراً حتى لا يستغلوا إمكانيتهم على أفضل وجه، ويدعون إعاقتهم تحدد لهم شكل حياتهم.

بمعنى آخر يتركون لظروفهم أن تملى عليهم ما يفعلونه وما لا يفعلونه. كثيرون منهم استسلموا لظروفهم، وهو ما يدمى قلبي ويبعث على شعوري بالغيظ حين أرى كل تلك الإمكانيات المهدرة. ولا أعتقد أن هناك مخلوقا على هذه الأرض لا يستطيع أن يستغل إمكانياته.

أمهلوا أنفسكم لحظات للتفكير في هذا الأمر، جميعنا يمر بأوقات عصيبة تعوقنا عن تحقيق أشياء عظيمة كنا نود تحقيقها. بالنسبة لي، حالتي البدنية هي العائق، وقد تكون بالنسبة لغيري حياة عائلية تتسم بظروف قاسية جردته من اعتداده بنفسه، وبالنسبة لشخص ثالث قد تكون عدم إتمامه للتعليم. ما أريد قوله في هذا الكتاب أنه يجب ألا تجعل ظروفك — إن كانت بدنية أو غيرها- تحول دون الاستمتاع بحياة جميلة.

أنني أؤمن أنك ستنجح مهما كانت المعوقات التي تلقيها الظروف في حياتك.

عشت حياتي متبعاً قيما وتعاليم علمها لي أبي وأمي منذ أن بدأ إدراكي للحياة يتكون، وبدأت أدرك الأشياء من حولي. كانت تلك المنظومة من القيم والتعاليم تدور حول حب الآخرين، إتقان العمل وأدائه بكل قوة، الولاء للأسرة،

قوة الشخصية، الإيمان بالله والتفاني في حبه، والإصرار والعزيمة والتحفز. كـــل تلك المنظومة من القيم والتعاليم لم تجعلني سعيداً فقط بل أدت إلى نجاحي في كل شيء في حياتي.

وأريد أن أروى لكم كيف استطعت بهذه القيم أن أحقق النجاح، وأريـد أن أروى لكم كيف استطعت بهذه القيم أن أحقق النجاح، وأريـد أن أؤكـد على أنه ليس على الأقزام فقط التصرف بإيجابية تجاه الحياة.

(٢)

مولدي أنا وإخوتي

تخيلوا مدى الصدمة والإحباط التي يشعر بها الأبوان عند معرفتهما أن طفلهما قد ولد بإعاقة جسمانية نتيجة لأسباب جينية. إعاقة تلازمه طول حياته وتجعل الأبوين يتساءلان في هلع كيف يمكن لطفل بتلك الإعاقة أن يعيش حتى يكبر؟ وكيف يمكن أن ينجو في هذا العالم بعد تعرضه لعمليات جراحية كثيرة مؤلمة، وخضوعه الدائم لعمليات وتدريبات تأهيل المعاقين.

تخيل الصدمة إذا عرفت أن طفلك سيكون له نفس مصيري، ليس بكونه قزماً فقط، بل ويعاني من إعاقات مستعصية.

كيف يكون شعورك وأنت تعلم أن طفلك، لحمك ودمك، عليه أن يتحمل آلاما يومية ويحرم من أنشطة يومية كثيرة طول حياته؟

والآن أضف طفلاً آخر بإعاقة أخرى، مشكلة وعيب خلقـي في القلـب، ميئوس منه إلى حد جعل مرور أول عام عليه وهو على قيد الحياة معجزة إلهيـة بكل المقاييس.

هل سيجول بخاطرك سؤال مثل "لماذا نحن دون كل البشر؟" وماذا فعلنـا لنستحق كل هذا ؟".

هل كنت ستنظر إلى كل حياتك وتتساءل إذا كان هناك أي سبب منطقـي أو معنى لكل هذا الذي يقع لكم؟ هل كنت ستتمنى حينها أن تستبدل حيـاتك بحياة شخص آخر؟

من الصعب أن تتخيل أن كل ذلك يقع لزوجين! إلا أنها حدثت بـالفعل لزوجين أعرفهما تمام المعرفة، وهما أبواي: رون وبيجى رولوف.

عندما أفكر في بعض المواقف التي تستلزم وجود أشخاص مناسبين في وقت مناسب، يقفز إلى ذهني على الفور والداي. فلقد كانا أنسب زوجـين تـأهلا لأصعب مجموعة مشاكل قد تواجه أي زوجين. لم يكفهما مواجهة مشـاكلي، فأضيفت إليها مشاكل أخي جوشوا (الذي ولد بمشاكل خلقية خطيرة في القلب والرئتين و لم ينجح إلا بمعجزة طبية جعلته يعيش حتى منتصف الثلاثينـات مـن عمره)، ثم أضيف إلى كل تلك المشاكل أخي الثاني صموئيل الذي ولد قزماً هـو الآخر.

من بين أربعة أبناء، كانت شقيقتي روث هي الوحيدة التي ولدت طبيعية لا تعاني من أي شيء.

وروث هي أختي الأكبر مني، والتي تتمتع بطول طبيعي وصحة جيدة أمـا نحن الذكور الثلاثة، فقد مررنا بحوالي ستة وثلاثين عمليـة جراحيـة عظمـى، بالإضافة إلى وقت طويل من العلاج الجسماني وإعادة التأهيل.

أنا وأخي صموئيل قضينا أعواماً بالمستشفى خاضعين لجميع الجراحات وإجراءات إعادة التأهيل لإصلاح المشاكل الخلقية التي ولدنا بها مرتبطة بحالة التأقزم التشوهى.

إلا إن كل ذلك رغم قسوته كان هيناً مقارنة بحالة أخي جوشوا ا، الذي كان على مشارف الموت مرات كثيرة. كان يعيش كل يوم وهو يعلم أنه قد لا يكون هناك غد، وكان قلبه الضعيف عرضه للتوقف وإلى الأبد.

بدون إنذار

هناك قول مأثور قديم يقول: "الإنذار سلاح". فهناك فائدة عظيمة حين تدرك أن هناك مرحلة قاسية بانتظارك، وأن عليك أن تتأهب للصمود في مواجهتها. لم يكن هناك من الشدائد ما يمكن أن يواجهه أبواي أكثر من تلك الآلام التي مرا بها يوم مولدي. لم تكن شقيقتي روث قد أكملت عامها الأول بعد، حين اكتشفت أمي حملها بي. واحتفل أبواي بهذا الحمل الجديد احتفالاً حاراً. ومضت شهور الحمل عادية بلا أي متاعب تذكر.

لم يلحظ الأطباء سوى زيادة طفيفة في السائل المحيط بالجنين، وطمأنوا أبي وأمي بأن ذلك قد يكون احتمالاً بالحمل بتوأم وأظهر فحص الأشعة أن كل شئ على ما يرام.

وتنبأ الأطباء أنني سأولد قبل موعدي ببضعة أسابيع.

بدأت الآم الولادة تنتاب أمي في الساعات المبكرة من صباح السابع من أكتوبر عام ١٩٦١م. أصطحبها أبي حاملاً أختي روث إلى سيارته ماركة "دى سوتو"، التي يرجع طرازها إلى عام ، ١٩٤٨ وقاد بهما السيارة إلى مستشفى الولادة في سان فرانسيسكو. لو أتيحت لك في حياتك فرصة أن ترى سيارة "دى سوتو" طراز ١٩٤٨ فستدرك مدى ضخامتها واتساعها، كانت كمدرعة

حربية تجرى على إطارات، وكانت متينة، حتى إنها تحتاج إلى قوة هائلة حتى تحدث فيها بعض التلف. وقد كان ذلك من حسن حظنا، ففي أحد التقاطعات لم يتوقف قائد سيارة أخرى عند النور الأحمر واقتحم التقاطع ليصطدم بجانب سيارتنا.

وقع تلف بسيط في سيارتنا لم يفقدها القدرة على السير وانقلبت أمي داخل السيارة إلا أنها لم تصب بضرر. أما شقيقتي روث ، التي كانت قد أكملت شهرها السادس عشر، فقد كانت تجلس في المقعد الأمامي بين أبي وأمي، وألقتها بها الصدمة فوق أمي و لم تصب بأي أذى (لم تكن السيارات التي صنعت عام ١٩٤٨ مزودة بأحزمة أمان). أما السيارة ا لتي اصطدمت بسيارتنا فقد تحطمت تماماً.

ترجل أبي من سيارته وتبادل مع سائق السيارة الأخرى بيانات السيارتين اللازمة لكل منها للإصلاح، و لم يصب السائق الآخر لحسن الحظ، وقال له أبي: "لا أستطيع الانتظار، فزوجتي على وشك الولادة، تول أنت الاتصال بالشرطة ومعك كل ما يخصني من بيانات". وأنطلق والدي إلى مترل عمة أمي، وترك أختي روث في رعايتها، وأكمل سيره إلى المستشفى.

وأخيراً، في حوالي الساعة السابعة صباحاً، أدخل أمي إلى مستشفى الولادة.

في ذلك الوقت لم يكن يسمح للأزواج بالتواجد مع الزوجات أثناء الولادة كما يحدث الآن. ولذلك غادر المستشفى بمجرد أن انتهي من إجراءات الدخول وتوجه إلى عمله.

كانت الآم الولادة قد خفت حدتها، واعتقدت أمي أن ذلك ربما كان بسبب حادث السيارة.

عند الظهيرة عاودتها الآم الولادة من جديد، و لم يمض وقت طويل حتى جئت إلى هذا العالم. وحين رجع أبي من عمله إلى المستشفى وجد أمي في غرفة الرعاية والإفاقة، فابتسم فرحاً وقال لها:"هذا يساعد على بناء الشخصية".

كانا ينتظران أن تحضر إليهما إحدى الممرضات ليلقوا على نظرة، أو يحملاني لبعض الوقت لإشباع رغبتهما في التملي من ابنهما، إلا أن ما حدث اتخذ مساراً غريباً كان أشبه بالكابوس لهما معاً.

أين ابني؟

كانت أمي قد رأتني في لمحات خاطفة بعد مولدي مباشرة وهي في غرفة الولادة، لم يرد إلى ذهنها أن هناك أي عيب يشوبني. وحتى اليوم، ما زالت تذكر كيف بدوت في نظرها من تلك اللمحات الخاطفة مكدساً ومضغوطاً وكيف كانت ملامحي تفتقد في تلك اللمحات السريعة "ملامح القرد العنكبوتي" التي تبدو على ملامح المولودين لتوهم. مازالت تتذكر أيضاً أن ملامحي في تلك اللحظات تشبه ملامح وجه أبي خاصة بروز أنفي الواضح — في الحقيقة كانت تستخدم صفة "كبير" ، كان وزني زائداً عن المألوف ثمانية أرطال وثماني أوقيات وطولي سبعة وأربعين سنتيمتراً.

أخبرها الأطباء الذين أشرفوا على الولادة أن ساقي مستديرتان قليلاً إلى الداخل، ومست إحدى الممرضات وجهها بقدمي. ما زالت أمي تتذكر أن قدمي بدت في تلك اللحظة الخاطفة في غاية الجمال والروعة، لم تدرك في ذلك الحين أنهما شائهتان.

عند هذا الحد حملوني إلى مكان آخر، وقالوا لأمي أنها ستراني مرة أخرى بعد بضع ساعات. انتهوا من الإجراءات الطبية المعتادة التي تجرى لكل أم بعد الولادة، ثم نقلوها إلى غرفة إقامتها بالمستشفى وأراحوها على سريرها، ومع أنه من المعروف أن كل أم تستغرق في نوم عميق بعد معاناة الولادة، إلا أن النوم استعصى على أمي، كل ما استحوذ على ذهنها رغبة قوية أن تضم وليدها إلى صدرها،إلا أن تلك الرغبة لم تتحقق كما كانت تأمل إلا بعد وقت طويل، أطول كثيراً مما كانت تعتقد.

انتظرت أمي وطال انتظارها، كانت كلما نفد صبرها تدق جرس استدعاء الممرضات ليحضروا لها ابنها. وفى كل مرة يقولون لها أنهم يجرون له الفحوصات الروتينية الخاصة بكل مولود جديد.

ووصل أبي ومعه أختي روث لغرفة أمي، فبادرته قائلة: "لم يحضروا لي ابني حتى الآن، لم أملى نظري منه و لم أحتضنه حتى الآن، ما الذي يجرى؟"

وبمرور الوقت نفدت كل طاقة لأمي على الصبر والانتظار، فراحت تبكي وقد استحوذ عليها الخوف. خرج أبي متوجهاً إلى غرفة الأطفال حديثي الولادة، وحين راح ينظر من نافذتها الزجاجية لم ير اسم رولوف على أي من مخادع الأطفال. كانوا قد أخفوني من مرمى بصر أي ناظر من زجاج واجهة الغرفة، وعاد إلى أمي وقد أيقن في أعماقه أن حدثاً ما خطيراً قد وقع، إلا أنه أخفى عنها هواجسه. قام بتقبيلها وغادرها لإعادة أختي روث. وراحت أمي تنتظر من جديد.

وفى الحقيقة كان اضطراباً من نوع آخر يسود بين الأطباء الذين لم يعرفوا كيف يبلغون أبوي أنني ولدت معاقاً وبعيوب بدنية خطيرة، وكانوا يخشون ردة فعلهما. لم يتكهنوا بوقع الخبر على أمي. هل ستهملني أم ترفض رعايتي؟

لقد وقعت لهم أحداث مماثلة من قبل ، لذلك قضوا ساعات طويلة في ارتباك ومشاورات حول الطريقة التي يفشون بها الخبر لأبوي عن تكويني غير الطبيعي.

المشكلة الكبرى أن الأطباء لم يكونوا يعرفون طبيعة المشكلة التي ولدت بها! كانوا ينظرون إلى ذراعي وساقي القصيرتين وكفيّ وقدمي الشائهتين، والتشوهات الأخرى ببدني، ويدركون أنني غير طبيعي. إلا أنهم لا يعرفون توصيف الحالة ولا تشخيصها.

لم يكن للخبراء منهم أي إلمام بحالات الأقزمة في ذلك العصر الذي ولدت فيه، وقليل منهم كان قد رأى حالات ولادة لأقزام.

لابد أن أذكركم أن ذلك كان عام ١٩٦١، وكان من الصعب أيضـــاً في ذلك الحين إخبار أي أبوين أن ابنهما ولد قزماً، وأنه سيظل كذلك طول عمره، لذلك كلما كانت تقع حالة مماثلة كانت تشكل صدمة للأبوين.

بقدر ما كان في ذهن أبوي توقعاً أنني سأكون ولداً طبيعياً، مثل شـــقيقتي روث، أي بصحة جيدة، وطبيعي، ثم أكبر حتى أصير في حجم ممـــاثل لأحجـــام البشر. إلا أنهم لم يكونوا يدركون ــ وعودة إلى ما حدث ، وبعكس عصرنـــا الحالي الذي يمكن فيه تشخيص حالة التأقزم بوسائل حديثة ، أثناء الحمل ومـــن خارج الرحم ــ إن هناك نسبة معينة من الأطفال الأقـــزام يولـــدون لأبويـــن عاديين.

لقد كان ذلك الموقف، وما يزال يمثل صدمة لأي أبوين حين يعلمـــان أن ابنهما سيكون قزماً.

وبينما كان الأطباء في حيرة من كيفية إبلاغ أبـــوي، كـــانت أمـــي وأبى ينتظران في قلق بالغ وانزعاج أي أنباء عن وليدهما وفى النهاية أضطر إلى أن يكـــون عنيفاً.

أريد ابني الآن ، وفوراً.

وفى التاسعة من مساء يوم مولدي، حاولت أمي الاتصال بأبي في المترل إلا إن عامل الهاتف أخبر أمي أنه غير مسموح بتحويل مكالمات إلى خارج المستشفى أثناء الليل. وبدأت أمي في البكاء والتوسل إليه أن يسمح لها بـــإجراء المكالمـــة، ورق قلبه وسمح لها، وقالت لأبى عبر الهاتف إنها لم تربي حتى اللحظة ولا تعـــرف عني أي شيء.

بلغ التوتر بأبي غايته، وحمل أختي روث وركب سيارته الديستو المخدوشـــة من جانبها وتوجه إلى المستشفى.

كان أبي مصراً على أن يتلقى إجابات شافية، وأن يعرف ما يحدث فوراً.

دخل أبي في إصرار إلى المستشفى، واتجه إلى قسم الولادة والتقي بالأطبـــاء، وسألهم لماذا لم يسمح له أو لزوجته برؤية وليدهما. و لم يجد إجابة شافية لسـؤاله، إلا أنه رأى علامات الاهتمام على وجوههم. وأظن أن والدي قد اشتعل غيظـه وغضبه في تلك اللحظات، فقد ثار على الأطباء وهاج وصاح في عنف: "أمامكم دقيقة واحدة حتى تضعوا المولود في أحضان أمه، أو أتهمكم بخطف ابني"

ولا أعرف إن كان يجوز توجيه تهمة الاختطاف في مثل تلك الحالات أم لا، إلا أن أحد الأطباء فهم المغزى وخلال دقائق أحضرتـــني إحـــدى الممرضـــات الشابات – ملفوفاً في لفائف كثيرة مثل المومياء- وناولتني إلى أمي.

قالت أمي وهى تتناولني من الممرضة في شغف "إنه بخير! كنـــت في غايـــة القلق" ، إلا أن الأشياء الغريبة لم تتوقف عن الحدوث، فبمجـــــرد أن نـــاولتني الممرضة الشابة إلى أمي غادرت الغرفة، إلا أنها عادت بسرعة وقالت: يجـــب ألا أتركك وحدك مع الوليد"، ثم أضافت :"أمر الأطباء أن يظل ملفوفاً حتى يـــأتوا ويتحدثون إليك".

وأخيراً جاء أحد الأطباء المختصين بالأطفال ليشرح ما هو غير طبيعـــي – أو على الأقل ما يعرفه –، وقال "حسناً أريد أن أتحدث إليكم بخصوص الوليـــــد"، كانت ملامحه تشير أن هناك شيئاً خطيراً، قال: قدماه مقلوبتان للداخل أو مــــا يسمى بقدمي رأس العصا"، و لم تفقه أمي ما الذي يعنيه ذلك، أردف الطبيـب: "وذراعاه قصيرتان، لا أعني أن كفيه يخرجان مباشرة من كتفـــيه إلا أن ذراعيـــه قصيرتان جداً"

فضت الممرضة اللفائف التي تحيط بي حتى ترى أمي ما يشرحه لها الطبيـــب، إلا أن أمي كانت تحملق بالطبيب لا تعي شيئاً مما يقول ولا تعرف ما هي المشكلة التي أعاني منها كانت ترى قدمي مقلوبتين للداخل وذراعي وساقي قصــــــيرتين

كلها، إلا أن ما بدا غير مفهوم لها أن الطبيب يصور لها حالة طفل ولد معاقـــاً. كل ما فعلته أن راحت تحدق بي وتوقن أنني طفل جدير بالإعجاب.

ظلت أمي معي بالمستشفى بضعة أيام حضر في أثنائها أحـــد المختصـــين ليفحصني ويقرر بدقة نوع المشكلة التي أعانيها. وبعدها ســـجلوا في شـــهادة ميلادي "فشل نمو غضروفي" (achondto plasia) وهى حالة تتصف بطفرة في الجـــين المسئول عن النمو، خاصة في العظام الطويلة مثل عظام الذراعين والســـاقين و لم تشخص حالتي التشخيص الصحيح، إلا بعد أن بلغت السادسة من عمري علـى أنها حالة "أقزمة تشوهية"(Diastrophic dwarf) في عام ١٩٦١ — وهو عام مولـدي- لم يكن العلم قد توصل إلى معارف ومعلومات وافية عن الأنـــواع والأصنـــاف العديدة للأقزمة

كانت أول من أخبر أمي بحقيقة أنني قزم طبيبة العلاج الطبيعي التي كـلنت تتابع حالتي. سألتها أمي "هل تعرفين سبب قصر ذراعيه وساقيه؟" قـــالت لهـــا الطبيبة أنني قزم وأن الذراعين والساقين القصيرتين من صفات الأقزام. صدمـــت أمي صدمة عنيفة وأوشكت على الإغماء. لم تكن أمي تعرف شيئاً عن الأقزمـــة كانت أول صور ذهنية ترد إلى ذهنها بعد سماعها أنني قـــزم صـــورة الأقـــزام الأسطورية الذين يحيون تحت قنطرة المياه في الأسطورة الشهيرة.

شرحت طبيبة العلاج الطبيعي لأمي كل ما تعرفه عن جمعية أقزام أمريكـــا، وأنها مؤسسة لا تهدف إلى تحقيق ربح وتدعم الأقزام وعائلاتهم بالمعلومات الهامة، وأهتم أبي وأمي بالاتصال بتلك الجمعية وعرفا معلومات غزيرة أمدتما بها الجمعيـة ومنذ ذلك الوقت عاونتهما تلك المعلومات كثيراً في تنشئتي وتربيتي.

بعد أن عرف أبواي المعلومات الكاملة عن حالتي انتابهمـــا اليـــأس أمـــام متطلبات الحياة التي تلزمني. في حالة الأطفال الأسوياء، تنتاب الآباء الأسئلة المحيرة عما سيكون عليه أبناؤهم من وظائف في الحياة حين يكبرون، أما لطفل في مثـــل حالتي فإن التساؤل عن مصيري ومستقبلي يصبح أكثر قسوة وأوسع نطاقـــاً، لم

يكن أبواي يتساءلان فقط عما سيكون عليه مستقبلي الوظيفي بل تعدى ذلك إلى التساؤل عن أي امرأة ترتضيني زوجاً، أو هل يمكن أن يأتي يوم أكون فيـــه جداً لأطفال. كانت التساؤلات حول كل تلك الأمور تحيرهم وتؤرقـــهم علـــى الدوام.

تساءلوا في حيرة كيف يمكن أن يكون لي عمل ما، وأنا قزم في عالم صممه الطوال حتى يناسبهم هم. تساءلوا كثيراً كيف سأكسب عيشـــي، وإن كنـــت سأتزوج أم لا، وهل سيكون لي أبناء إن تزوجت؟

إلا أنهم لم يدركوا في ذلك الوقت أنني لن أكون الابن الوحيد المعاق لهـــم. جاء الابن الثاني لهم من بعدى وأسموه جوسوا، في حالة بحالة بدت معها حـــالتي أخف وطأة وأهون شأناً.

جوشوا – المعجزة الحقيقة

حين ولد أخي جوشوا –قبل كريسماس عام ١٩٦٤ بأسبوعين، وكنت أنا قد تجاوزت العام الثاني من عمري– واجه أبواي آلاماً أشد وأقسى. في تلك المـــرة بلغ بهم الألم حد التشكك في مجرد خروجهم بابنهم حياً من المستشـــفى بعـــد ولادته.

لم يكن قد مر وقت طويل بعد الولادة حتى شخص الأطباء حالة جوشـــوا بأنها: "عيب خلقي خطير بالقلب والرئتين" واعتقد الأطباء لخطورة الحالة أنه ربمـــا لا يكمل يوماً كاملاً وهو حي.

قال أحد الأطباء لأمي: "إنني حتى لم اسمه حـتى الآن" ، إلا أن أبي وأمـــي أسمياه بعد ذلك، و لم يمت جوشوا، وقبل الكريسماس بيومين، عـادا إلى المـــترل ومعهما أخي جوشوا.

وعلى مدى ثلاثة عقود ونصف، ظل أخي جوشوا حياً ومستمتعاً بحياتـــه. عاش أغلب حياته في مزرعة أبي بكاليفورنيا وفى المترل الريفي الذي يتوسطها. كان جوشوا قد خضع لجراحات كبرى كثيرة، أسفرت كلها عن أن العيب الخلقـــي الذي ولد به لا يمكن تصحيحه. ثم خاض غمار جراحة عظمى أخرى لعـــلاج خراج بالمخ، وكانت معجزة حقيقية إن ينجو من تلك الجراحة.

كان به عيب حي آخر في العمود الفقري، وهو انحناء في العمود الفقـــري مقابل لموضع القلب والرئتين يزيد من صعوبة عملهما بشكل ترني بالإضافة إلى العيب الخلقي الأساسي الموجود بالقلب والرئتين.

كان جوشوا يواجه مأساة حقيقية: كان يخاطر بحياته إذا وافق على إجـــراء جراحة لمحاولة تصحيح عيب العمود الفقري، ويخاطر بها أيضاً إذا لم يجر الجراحـة لأن العمود الفقري كان يزداد سوءاً مع مرور الأعوام ويجعل التنفس أشد عســوا وصعوبة.

كان جوشوا يحب الحياة ويسعد بكل يوم جديد يحصل عليه، لم يكن ذلـك غريباً عليه منذ أن أدرك أنها معجزة حقيقية أن يظل حياً كل ذلك العمر بحالة مثل حالته تلك التي يستحيل معها الحياة.

لقد وقف على عتبات الموت مرات كثيرة، وواجه أزمات لا نهائية، كان في كل مرة منها يوشك على الموت، كانت أمي تجرى له تنفساً صناعياً بنفســها، مرات لا تذكر عددها حتى تنقذه من بين براثن الموت. توقف قلبه ورئتاه مــرات كثيرة عن العمل، ومرات لا نهائية كانت تنتابه أزمات التنفس التي كانت تكفى أي أزمة منها لإنهاء حياته، خاصة حين يكون بمفرده ولا يوجد أحـــد بقربـه لإنقاذه.

إلا إن جوشوا كان قوى التحمل. وفى الحقيقة، يعتقد كل من عرفه عن قرب أنه أقوى البشر تحملاً على ظهر الأرض.

وهناك مزحة متداولة في العائلة عن أن جوشوا سيفوقنا جميعاً عمـــراً ويحيـــا أطول من أي منا.

كان جوشوا مثل أبي في حبه لنا. كان ودوداً ومرحاً، وبالرغم من خفـــوت صوته، كان متحدثاً لبقاً ومفكراً. وأحب أبنائي عمهم جوشوا، وكانت متعـــة حقيقية أن أراهم متفاعلين معه بكل حرارة وحب حين كان يأتي لزيارتنا. كنـــا نسعد كثيراً بالأوقات التي يقضيها معنا في ولاية أوريجون، خاصة حين يمكـــث لفترات طويلة. كانت له أفضال كثيرة في معاونتي على أمور المزرعة. عـلوني في حصد المحاصيل وتشوينها وتقليم الأشجار وعلف الأبقار وكل الأعمال المختلفة التي تتطلبها العناية بالمزرعة.

كان جوشوا بالنسبة لي وللأسرة مثالا رائعاً لاحتمال المصاعب كانت حالته مستعصية على العلاج والشفاء ولا تقبل أي احتمالات، وكان كل نفس بتنفسـه من الممكن أن يكون الأخير، وربما بسبب ذلك كان يتعامل مع كل لحظة وكأنها كتر نفيس وهب له.

يكفى ثلاثة

بعد مولد جوشوا، قرر والداي أن من الأفضل ألا تحمل أمي من جديـــد. كان لديهما ثلاثة أبناء، اثنان منهما معاقان إعاقة شديدة، وكان ذلك يكفى أي زوجين لمحاولة احتماله.

ولكن — وكما كانت أمي تشير في كل مرة تتحدث فيها عن هذا الأمـــر-- كانت مشيئة الله غير مشيئتهم.

كنا نعيش في ذلك الحين في مدينة كونكورد بولاية كاليفورنيا ,اكتشفت أمي فجأة أنها حامل مرة أخرى. كان أبواي يستعينان بوسائل لمنع الحمل بعد مولـــد

أخي جوشوا، لذلك كانا مطمئنين إلى أنه لن تكون هنـــاك إضافـــات جديـــدة للأسرة، ولكن يا للمفاجأة !!

بمجرد أن تأكد حمل أمي تفاوتت ردود الأفعال بين من قال "لماذا ترغبون في مزيد من الأطفال؟ " وبين من يقترح أن تجري أمي عملية إجهاض خيراً مـــــن احتمال ولادة طفل معاق آخر. و لم توافق أمي على ذلك كان مفهومــــها أن الطفل القادم نعمة من الله، كما كان أبناؤها الثلاثة السابقون نعمة من الله أيضاً، وكانت على يقين أنها لا يمكن أن تفكر في التخلص من الطفل القادم.

أكد الأطباء لأمي أنه لا يوجد أي احتمال أن تلد قزماً آخـــر، فـــهذا لا يحدث، وأن احتمالات تكراره واحد إلى مليون.

إلا إن ما لم يعرفوه — وما لم يكن أحد يعرفه في ذلك الوقت أيضاً- هـــو أن الأقزمة التشوهية وراثية إلا أنها من الصفات المتنحية. وفى الحقيقة، أثبتت آخـــر الإحصاءات أن الأقزمة التشوهية تبلغ نسبة الوراثة فيها ٢٥%.

اعتقدت أمي بقوة أنها سترزق بطفلة وقررت أن تسميها "سارة" ، وأملت بقوة أنها ستكون عادية. وكانت على خطأ في التوقعين ، فقد وضعت ذكـــراً ، واتضح فور ولادته أنه قزم وكانت له الصفات الجسمانية نفسها التي كانت لي: أطراف قصيرة ، ومفاصل شائهة.

أدرك أبي وأمي أن حياتهما ستصبح نوعاً من التحدي في تربيـــتي ورعـــايتي . وحين ولد أخي جوشوا ، أدركا أن حياتهما ستصبح أقسى وأصعب.

أما بعد ولادة سام ، أدرك كل من يعرف الأسرة أن حياة أسرتي ســتصبح غاية في العسر والمشقة على أفراد الأسرة الستة.

وقد أصبحت كذلك فعلاً.

(٣)

الناس الملائمون للمهام الصعبة

لم تكن رعاية وتربية ثلاثة من الأبناء المعاقين من المهام الـــتي يمكـــن لأي زوجين القيام بها، وكانت تلك المهمة تحتاج إلى حب يفوق قدرة البشر المعروفـة على الحب، وتحتاج إلى صبر نادر المثال ، وعطف وتعاطف ، وقوة وحزم، ورقـة، وإيمان عميق بالله، وفوق كل ذلك، إلى حكمة نادرة.

لم يكن أي من أبوي قزماً وفى الحقيقة ، أشك أن يكون أي منهما قد عـــرف قزماً في حياته قبل مولدنا وكان أبواي صحيحين وقويين وطويلي القامة ، لذلك لم تكن لديهما أي فكرة ولا سابق خبرة عن كيفية تنشئة أبناء من الأقزام.

كانت المسألة بالنسبة لهما تنطوي على قدر كبير مـــن اكتســـاب الخـــبرة وتجريب الصواب والخطأ، ومن المدهش أنهما لم ينجزا تلك المهمة فقـــط ، بـــل أدياها بامتياز.

اهتم أهلي باحتياجاتنا البدنية، وأحبونا حباً حقيقياً، ووجهونا التوجيـــهات الصحيحة، وكانا متشددين معنا في المواقف التي تتطلب منهما الحزم والشـــدة. كانا يعرفان أنهما يعدّاننا لمواجهة حياة قاسية لا ترحم أصحاب العاهات أمثالنـــا

ويمكنني أن أذكر بيقين مطلق أنني من المستحيل أن أحقق ما أنا عليه الآن لولا ما بذله أبواي في تنشئتي.

لم يغب عن ذهني أبداً ما احتمله أبواي وما ضحيا به من أجل تربيتي أنا وإخوتي، في الوقت الذي كان عليهما أن يبذلا مجهوداً واهتماماً مغايراً بشقيقتي روث، التي كانت تحتاج إلى عناية أيضاً.

لم يكن من الممكن أن نحظى بأبوين أفضل منهما. أزواج كثيرون كان من الممكن أن ينهاروا تحت وطأة أعباء أقل من تلك التي واجهها أبواي. وبصراحة ، لا أدرى كيف احتملا وطأة ذلك دون أن ينهارا معنوياً وبدنياً.

وبالرغم من الآلام والتحديات التي واجهتها أسرتي ، إلا أن أبوينا غرسا فينا الإيمان بأن فرصتنا في تحقيق السعادة لا تقل عن فرصة أي إنسان آخر ، وأن ذلك يتوقف على موقفنا من الحياة وفهمنا لها وثقتنا بالله وإيماننا به، وأن تلك العناصر هي التي تحدد ما الذي سنفعله بحياتنا، وما الذي يمكن أن نحققه من نجاح وسعادة

تشدد أبي وعطفه

حين أسأل عن الشخصيات التي أشعر تجاهها بالاحترام والتقدير فإن من يخطر بذهني هو أبي، فأبي رجل ذو إرادة حديدية (شديد المراس ويثق بنفسه وبآرائه ، وأنا مثله). قوى وصاحب شخصية متميزة. هذا الرجل الشديد، والجندي السابق في البحرية الأمريكية، هو أيضاً نفس الرجل الذي يتميز بكم هائل من الحب والعطاء والعطف والطيبة تجاه الآخرين. كان أبي خليطاً من قوة "جون واين" وطيبة "جيمي ستيوارت". كان توجهه في الحياة أن يراعى الله في كل ما يفعله، ولا يشعر بأي خجل من ذكر ذلك.

لم يكن أبي محباً للناس فقط، بل يشعر بمتعة في التعامل معـــــهم ومعاشـــرهم والتحدث إليهم ومعاونتهم في أمورهم. كان من ذلك النوع من البشر الـــذي يواجه مصاعب الحياة وكوارثها وملمالها بثبات ودون جزع ، يتبادل الحديث مع من يشعر بالوحدة، ويقدم وجبة لمن يدرك أنه جائع، وشراباً لعطشى وفراشاً دافئا للمتعب المقرور. لم يكن يفعل ذلك بإحساس من واجب . بل كان يشعر بسعادة داخلية حين يفعل ذلك وحين يقدم أي مساعدة يمكنه تقديمها لأحد.

لم يكن له تطلع اجتماعي معين، ولا ميل خاص إلى عنصر أو جنس عرقـــي معين من الناس، كذلك لم يكن متعصبا دينيا.

لم تكن تنتابه مخاوف من فشل. قضى هو وأمي بعضا من الوقت في حــــي واتس القريب من مدينة لوس أنجلوس ، وكان يعد في الثمانينيات مــــن المنـــاطق الخطيرة المشهورة بالعنف ، فكان أبي يقوم بالوعظ الديني بين سكانها. لم يكـــن لون المرء أو مرتبته الاجتماعية يعني شيئاً له. ويمكنني أن أذكر بكل فخـر أن أبي حين كان يشعر أن أحداً أيا كان يمر بمشكلة أو ضائقة، فإنه كان يسعى إليــــه ويجعله يشعر أنه ليس وحده، وأنه يقف إلى جواره، وأن من يعاني من ضيق لـــه أيضاً قيمة كبيرة وضرورة في الحياة.

كان هناك جانب آخر عند أبي، يبدو متناقضاً مع كل ذلك ، ويطغى علـــى كل ما عداه، وهو أن كل من يحبهم، أو أي أحد ضعيف، يشعر أنه في موقــف لا يستطيع الدفاع فيه عن نفسه.

إرادة المواجهة وتحدى المخاطر.

كان أبي على إيمان عميق بالله وبحب الناس، إلا أنه كانت به بقايا من حياتـه كجندي في البحرية الأمريكية ، وكذلك بقايا من مشاغبي الشوارع. لم يكن ميالاً للشجار أو اختلاق المشاكل بأي حال، ولكن حين يرى أي إنسان محـــاصر في

موقف لأنه أصغر أو أضعف ولا يستطيع الدفاع عن نفسه، فإنه لا يفكر كثـــيراً ولا يتردد في استخدام قوته للدفاع عن الضعيف والمظلوم . لم يكـــن أبي بـــالغ الضخامة ـــ كان طوله ١٧٧ سنتيمتراً ـــ إلا أنه كان قوى البنية، وفوق ذلـــك كان واحداً من أمضى الناس عزيمة من بين كل ما عرفت من بشر. لم يكن يتردد أو يتراجع عن مواجهة إذا أيقن أن هناك لونا من ألوان الظلم أو عدم التكافؤ.

من المواقف التي لا أنساها موقف حدث في سانتا كروز ،وكان أبي يصحبنـا إلى شاطئ البحر في أحد أيام الآحاد المشمسة بكاليفورنيا. كنا نأخذ معنا ملابـس البحر والعوامات وسلال الطعام. وكانت تعد من المناسبات العظيمـــة الـــتي يصطحبنا فيها. في طريقنا إلى البحر توقف أبي في إشارة مرور حمراء، وتوقفت إلى جوارنا سيارة أخرى كان بها رجل راح يسب امرأة تجلس إلى جواره ـــ كانـت زوجته ـــ بألفاظ وسباب فاحش مختلط بكثير من عبارات الكفر وسب الديـــن. كانت سيارتهما مكشوفة ولذلك وصل حديثه إلينا بوضوح. بعد الاستماع إلى سبابه لمدة دقيقة، اندفع أبي فجأة إلى خارج سيارتنا واتجه إلى الرجل وقال لـــه في غضب أنه لا يحترمه وهو يوجه ذلك النوع من السباب إلى امرأته على مســـمع منا. ومن الطبيعي أن الرجل جبن و لم يستجب لتحرش أبي به.

بعدها عاد أبي إلى سيارته وقال لنا بهدوء! " هل تصدقون مثل ذلك الرجـل؟ ما أسخفه! لابد أن يفكر مرتين قبل أن يجرؤ على التلفظ بمثل تلك العبارات أمـام أسرتي"، ثم واصل القيادة إلى الشاطئ الذي كنا نقصده.

رأيت أبي مرات كثيرة يثور على الأطباء حين يشعر أنهم لا يبذلون جـهدهم حين كنت أنا وأخي سام نخضع للعلاج. رأيته مرة ثائراً على مدرس التربية البدنية بالمدرسة العليا التي كنت بها ـــ كان مدرساً متشدداً أمضى شبابه هو الآخـر في البحرية الأميركية ـــ لأنه كان يصر أن أبدل ملابسي في حصص التربية البدنيـــة، مع أن تغيير ملابسي كان مهمة شاقة جداً بالنسبة لي.

مازلت أتذكر دخول أبي العاصف إلى مكتب إدارة المدرسة طالباً رؤية ذلك المدرس فوراً. وحين أتى لم يتوان أبي عن فتح نيرانه على الفور قائلاً : "على مدى ستة عشر عاماً وابني يضع دعامات السير في ساقيه نهاراً وليلاً ، ليس عليه أن يخلع دعاماته وملابسه ليرتدى تلك الأشياء العفنة التي تطلبونها. هل هذا واضح؟"

كانت أسوأ المواجهات التي يخوضها أبي هو مواجهاته مع موظفي الضرائب. فإن لم تكن من هواة حضور ومشاهدة حوار طويل جدا من طرف واحد — هو أبي بالطبع — فلا أنصحك بمشاهدة والدي في تلك المناسبات، ويبرر أبي ذلك بأنه إن كان عليه أن يبقي أولاده الثلاثة المعاقين بالمترل، وأن يعتني بهم، وهو أفضل من أن يحيلهم إلى مؤسسات حكومية تنفق على رعايتهم، فلابد أن تسمح له الحكومة باستثناءات ضريبية. كان منطقه بسيطاً وواضحاً : أنه يوفر على الحكومة أموالاً طويلة بقيامه هو و أمي بالعناية بنا، ولذلك لابد أن تسمح له مصلحة الضرائب أن يحتفظ ببعض دخله للعناية بنا.

كان أبي يسجل في إقراراته الضريبية أي مصروفات له أية صلة بي وبإخوتي المعاقين. كان يسجل المسافات التي قطعها بالسيارة من المترل إلى المستشفيات التي كنا نعالج بها ، وتكلفة جلسات العلاج ، وأثمان الفحوصات الطبية. كان حتى يسجل قيمة الوجبات التي تناولها وهو في طريقه من وإلى المستشفيات، وكذلك أي نفقات أخرى مهما بعد شأنها بإعاقتنا إلا أنها بشكل غير مباشر متعلقة بها.

وكان يرسل كل عام إقراره الضريبي وبه كل النفقات والخصومات المطلوبة، وكان مكتب الضرائب يخصص له كل عام على وجه التقريب جلسة استماع ومناقشة، وبلغت تسع جلسات.

ذات عام ، اتصل به مكتب الضرائب المحلى ليبلغه بموعد جلسة المناقشة، وطلب منه مأمور الضرائب أن يحضر في الموعد ، قال له أبي : " لا، لن أحضر" ، "أنا أعمل تسعين ساعة كل أسبوع واعتني بثلاثة أبناء معاقين ليس لدي وقت لآتى إليكم. إن كنتم تودون مناقشتي احضروا أنتم إلى بيتي"

قال له المأمور: "يا سيد رولوف ، لا يمكن أن نقوم بذلك" رد أبي :"حسـناً، إذن لا يمكن أن تناقشوني" ، كانت لهجة أبي تبدو وكأنه هو الآمر النـاهي: "إن أردتم مناقشتي فلتحضروا أنتم إلى منزلي"

وبالفعل ، جاء رجال الضرائب إلى بيتنا لمناقشتة، وعاملهم أبي بكل احـترام . اصطحبهم أبي إلى غرفة مكتبه ودعاهم إلى الجلوس بعد أن كان قـد سـبقهم إلى الجلوس على مقعده الهزاز. قام بعد ذلك واصطحبنا ا إلى الغرفة حتى يرى رجـال الضرائب بأنفسهم مدى إعاقتنا. ثم أخرج لهم كل الإيصالات والمستندات المالية التي تثبت ما ينفقه علينا وعلى علاجنا. كان يحتفظ بكل المستندات التي تتيح لـه خصماً من الضرائب. وكان يشرح لهم بصبر شديد كل إيصال وفاتورة. لم يترك سؤالاً منهم بلا إجابة شديدة الاقناع. وحين انتهت المناقشة، لم يجـد موظفـو الضرائب ما يمكن أن يؤاخذوه عليه. وشعر أبي أنه حقق نصراً معنوياً كبيراً.

في حين كنت اعجب أشد الإعجاب بتلك المعارك التي يخوضـها أبي بـلا خوف أو خشية، كنت على يقين أن مثل تلك المعارك تستنزف منه الكثير مـن الجهد. كان يخوض معركة كبرى كل عام من أجل توفير بضـع مئـات مـن الدولارات من قيمة الضرائب التي يدفعها، ثم اقتنع رجال الضرائب، بعد أعـوام، أن الأمر لا يستحق عقد جلسات مناقشة.

هكذا كان أبي ، رجلاً يعمل بكل جهده ويعول ثلاثة أولاد، ولا يتركـه رجال الضرائب في حاله، و لم يكن الأمر بالطبع محاولة منه للتهرب من الضرائب. كان يتعامل معهم بقواعد اللعبة كما وضعوها ويضطرهم إلى عقد جلسة مناقشة كل عام.

اعتقد أنني ورثت عنه طباعه بكاملها، فأنا أحب الناس، ولا أبخـل بوقـت أقضيه في تبادل الأحاديث مع أي إنسان أقابله، أو تناول قهوة أو وجبة إذا وجدت لديه استعداداً لذلك. مثل أبي وجدت نفسي مقاتلاً عنيداً، وهى صفة ورطتـني في كثير من المشاكل حين كنت صغيراً.

ورثت عنه أيضاً اللين والرقة واختيار المعارك التي تستحق أن أخوضها وفضلاً عن ذلك، اعتقد أنى أماثل أبي في أن كثيراً من مكوناتي الشخصية قد صهرتها نيران التجارب والشدائد.

ماض قاس

إن أردت أن تعرف ما الذي جعل من أبي مثل ذلك الشخص العطوف اللين العريكة والشديد في آن، لن تحتاج إلا إلى معرفة وقائع حياته وهو صغير، ويدرك أبي جيداً معنى أن يشب المرء ليجد نفسه في الشارع بلا عائل ولا راع. حين كان في الخامسة من عمره تركته أمه وكانت مدمنة خمر وهو وإخوته على قارعة أحد شوارع سان فرانسيسكو، وركبت حافلة إلى جهة مجهولة، وتركتهم لأبيهم. كان على أبي أن يتدبر أموره ويدافع عن نفسه في تلك السن الصغيرة طول الوقت الذي كان أبوه يقضيه في العمل.

وتعلم أبي أن يكون مقاتلاً شرساً في عالم لم يخلق لصغار ينمون فيه دون رعاية. لم يكن يملك شيئاً في ذلك الوقت، كما لم يكن لديه أي أمل أن يكون لديه أي شيء في أي وقت. مر بمرحلة طفولة في غاية القسوة، إلا أن تلك التجربة القاسية جعلته مصمماً على ألا يدع أبناءه يعانون من تجربة مماثلة مهما كان الثمن، هذا إن أصبح لديه أبناء. وجعلته تلك الطفولة عطوفاً على كل من يعانون من تجربة مماثلة لتلك التي عاناها.

بداية الالتئام الحيوي

كان أبي وأمي ينتميان إلى أصول متباينة تمام التباين، حتى أنه يعد من العجيب أنهما التقيا، والأعجب أن يتزوجا، وينجبا أربعة أبناء.

فبينما نشأ أبي دون أبوين، نشأت أمي في أسرة مترابطة بين أب وأم يوليانها كل رعاية واهتمام، أو كما تصف هي "نشأت في قماطات وأحفضة"

كانت حياتها مثالاً لحياة الأسرة المستقرة، فبينما كان على أبي أن يكون شديداً أو برياً حتى يحيا، كانت الحياة في أسرة أمي سهلة ميسرة. طوال سنوات الدراسة كان أبي رياضياً مرموقاً، بينما كانت أمي على العكس من ذلك، مثالا للفتاة المتوسطة في كل شيء.

التقى أبي بأمي مرة حين كانت جدتي (لأمي) تدعوه أحياناً لتناول العشاء لديهم في أمسيات الآحاد. كان أبي قد تعرف على جدتي لأمي في الكنيسة، ولأسباب لا أعرفها أعجبت به جدتي وأحبته، ولما عرفت أنه وحيد بلا أم، كانت تدعوه إلى العشاء في أمسيات الآحاد.

وبتردده على مترل أمي للعشاء، ظلت عيناه على أمي لا تبارحاها. في البداية لم تحاول أمي أن يكون لها علاقة بـ "رون رولوف" . لم يكن أبي من نفس طبقة أمي الاجتماعية.

وبالفعل ، وعبر ما يشبه معجزة صغيرة، وقع الشابان الصغيران المنتميان إلى عالمين مختلفين في غرام توج بالزواج.

انطلقا معاً فيما يشبه المغامرة في خضم تيار الحياة، حياة مليئة بمصاعب وآلام جمة. حياة كانت لابد أن تدفعهما إلى اليأس وذرف الدموع، وتدفعهما إلى أقصى ما يمكن الوصول إليه عقلياً وبدنياً وروحياً.



(٤)

سجن الطفولة

قبل أن أكمل عامي الأول ، كنت قد قضيت أغلبه بالمستشفيات. بـــــدأت بمستشفى "شراينرز" في سان فرانسيسكو ، ثم بعد ذلك في مستشفى خاص حـين كان لأبوي تأمين طبي لتغطية نفقات علاجي.

في الوقت الذي أكون فيه خارج مستشفى، أكون في فـــترة راحـة مـن المستشفيات. أنا لا أتحدث عن التواجد بالمستشفيات لبضعة أيام أو أسابيع، بـل أتحدث عن البقاء في المستشفيات لشهور طويلة في كل مرة، وأظل لأســابيع لا أرى أبي و أمي وإخوتي، ومشاعر قاسية من الوحدة بلغت من قسوتها أنني كنـت أتساءل معها إن كنت سأتمكن من رؤية أهلي أو أصدقائي مرة أخرى. كنت أشبه بالسجين . أتذكر مرة دخلت فيها المستشفى قبل عيد الشكر وظللت بها حـتى العام التالي.

وبالنسبة لطفل – فإن البقاء شهرين فقط في مستشفى يماثل الأبدية – خاصة إذا كان فيها الكريسماس.

كانت الجراحات التي أجريت لي والإجراءات التأهيلية التي تلت كلا منها، محاولات لإصلاح – أو على الأقل تحسين – حالة مفاصلي وعظامي.

وبينما نجد أن مشاكل العظام شائعة بين الأقزام، إلا أن كل الأقزام لا يعانونها بالقدر الذي عانيته. حتى زوجتي – وهى قزمة أيضاً – لم تعان أبدا من مشاكل بدنية ولو بقدر بسيط. وكان شقيقي سام يعانى نفس المشاكل التي أعانيها، إلا أنها لم تكن بنفس الشدة.

قال طبيب مشهور في مستشفى شراينرز عن حالتي : "إنه أكثر من خضعوا لعمليات إصلاح في تاريخ مستشفى شراينر". أجريت لي جراحات لتقويم ركبتيّ وساقيّ، وجراحات لتقويم وتقوية عظام الحوض. ثم أجريت لي جراحات أخرى متتابعة للحفاظ على ما تم تقويمه، ثم جراحات أخرى لنزع الشرائح والمسامير التي كانت قد وضعت في جراحات سابقة لتقوية الالتئام. ولا أعرف على وجه الدقة عدد الجراحات التي أجريت لي وأنا طفل – وهى على وجه التقريب بين عشرين وثلاثين عملية جراحية.

كنت في ذلك الوقت أشبه خنازير التجارب الطبية، وكانت جراحات كثيرة من تلك أجراها لي أطباء شراينرز جراحات تجريبية، لم تجر لأحد من قبلي. أراد الأطباء أن يجربوا كل أنواع الجراحات التجريبية، وكل وسائل التأهيل التي لم تكن قد طبقت بعد، وكان أبواي ، اللذان احتارا كيف يعاونانني، يوافقان على كل ما يشير به الأطباء لإصلاح العيوب التي ولدت بها. بعض الجراحات كانت تتضمن كسر عظامي ثم ليها وتعديلها للوضع المطلوب، ثم أوضع في رداء كامل من الجبس. بعض الإجراءات كانت ناجحة، وبعضها الآخر كان مضيعة للوقت. وحتى اليوم ، ستجد أن المراجع الطبية والدوريات الطبية الخاصة تحتوى على مقالات عن الجراحات التجريبية التي أجريت لي.

بعد الجراحات، كنت أخضع لوسائل كثيرة من إعادة تأهيل الأطـــراف – كان بعضها من أنواع وأصناف التعذيب – لإطالة وتقويم وليّ مختلف أعضـــاء بدني. أتذكر واحدة من تلك الوسائل كان الهدف منها تقويم عظام الحـــوض ، وكان ذلك يتم على جهاز من أجهزة التعذيب يسمى " منجلة الأعقاب" وكـان يتضمن أن أستلقى على وجهي، وتوضع وسادة تحت ركبتي ثم يربط حزام جلدي عريض يمر على مقعدتي ويثبت على الجانب الآخر. ودامت تلك الوسيلة شـهرين دون أي نجاح يذكر.

معرفة ما يخبئه الغيب

في الأيام الأخيرة من الراحة من مرحلة المستشفى ، حـين كـان أبـواي يصطحباني للعودة إلى المستشفى، كنت أعرف ما تحمله لي الأيام القادمة. كـان لدي دفتر خاص أدون فيه يومياتي. وما زلت أذكر ما دونته في إحـدى تلـك المرات حين كنت أنهي إجراءات دخولي، كنت قد ارتديت ملابس المستشـفى واصطحبوني إلى الغرفة التي سأقيم بها، كان ذلك إيذاناً بحلول الإحساس بالوحدة من جديد ، أخرجت دفتر يومياتي وسجلت به : " يا إلهي ، لماذا يحدث كل ذلك لي أنا ؟ " كنت قد بلغت التاسعة من عمري في ذلك الوقت ، وكنت أدرك مـن تجاربي السابقة ما سأخوضه وأتعرض له من الآم ومعاناة ووحدة بعيدا عن أهلـي وأصحابي ، وما يجب على من احتمال الآم تفوق أي الآم أخرى .

كانت العمليات الجراحية تجرى في مستشفى شراينرز سان فرانسيسكو يومي الثلاثاء والخميس من كل أسبوع. وحين يتاح له فسحة من الوقت في أي يـوم منهما لإجراء جراحة جديدة لي ، كان لابد أن أذهب ، وان لم أذهب سـينتهز غيري الفرصة ويمضى بدلاً مني لإجراء جراحة ينتظر دوره لإجرائها. كنت أغلب الوقت مدوناً في قوائم الانتظار العمليات الجراحية لإجراء ما يرى الطبيب أنه لازم لي ، وحين كان أبواي يتلقيان رسالة من المستشفى بأن هناك يوماً بـه فرصـة

لإجراء جراحة جديدة لي فيه، كان لابد أن أجهز نفسي للذهاب في اليوم الذي ذكروه.

حين كنت طفلاً صغيراً ، لم تكن أسرتي تملك مالاً ولا تأميناً صحياً يتيح لهم توفير العلاج لي في مكان آخر غير مستشفى شراينرز الخيري المجاني ، لذلك كنا مجبرين على قبول ما تعرضه المستشفى علينا، ووضعنا ذلك - نحن وأسر أخرى كثيرة - على برميل ساخن ، لأنه حين يكون هناك علاج مجاني في مستشفى خيري مثل شرايز ، فإن واهب الخدمة يكون له السيطرة الكلية على الموقف، ولا توجد أمام طالب الخدمة اختيارات أخرى متاحة له ، فالعرض واضح، إما أن تأخذ ما يعرض عليك، أو ترفضه، ولا يكون لديك بديلاً غيره.

ذات مرة اصطحبني أبواي إلى المستشفى دون أن يخبراني بما أنا مقدم عليه وبعد أن أنهيا إجراءات الدخول، حملت وأنا أصرخ وأقاوم قسم العزل حتى أهدأ أولاً. وظن والداي حينها أنني جننت.

منذ تلك المرة ، اعتاد أبي أن يشرح لي مقدماً عن وجوب إدخالي المستشفى، وأهمية إجراء جراحة لي ، كان يشرح لي ذلك قائلاً : "هذا ما يعتقد الأطباء أن علينا أن نفعله ، ونعتقد نحن أيضا أن هذا ما يجب عمله" ثم يقول لي: "فكر بالأمر". حين كان يقدم لي المسألة على هذا النحو، كان شيء بداخله يطمئنني أن أبي لا يمكن أن يفعل لي ما يسيء ، لأنه أستحوذ على أهم جوانب تفكيري وهو أملي في أن ينصلح حال بدني. بالطبع لم أحب أبدا أن أكون مقيما بمستشفى، كما لم أحب بكل تأكيد أن تجرى لي جراحات، وإجراءات، وعمليات إعادة تأهيل بعد الجراحات، إلا أنني كنت أذهب طواعية واختياراً حين يقدم لي أبي المسألة على النحو السابق ذكره. وأحياناً، وبرغم ذلك، كنت أشعر بخوف شديد وألم نفسي يجبرني على المقاومة والغضب في وجوهم، ذات مرة صرخت بكل قوتي في وجه أمي قائلاً : "أنا أكرهك".

وحادثني أبي عن ذلك قائلاً : " أنا أعرف أنك لا تكره أمك، وهى أيضاً على يقين من ذلك. أنت تكره ما يحدث لك الآن. حسناً ، أنا أيضاً أكره كل ما يجرى لك . وأكره الموقف الذي نحن فيه الآن . لو كان هناك أي شيء يمكنني أن أقوم به لتغيير هذا الواقع لكنت قد غيرته. ولكن علينا أن نجتاز معاً هذه الأوقات الصعبة والعصيبة"

كانت ذكرياتي التي أتذكرها بالكامل عن إقامتي بالمستشفيات قد بدأت تحفر في ذاكرتي مع بلوغي سن الخامسة.

قسم العزل

بدأ أبي وأمي يحدثانني عن احتمال إقامتي في المترل لعدة أسابيع قبل عودتي إلى المستشفى مرة أخرى. جعلاني أشعر وكأن على أنا اتخاذ القرار ، قرار إجراء جراحة مؤلمة. لم أكن أشعر إلا ببعض الخوف ... حفظت الإجراءات . أول يومين هما أشد الأيام وأصعبها وفيها يتم التعرف على الأطفال الآخرين في القسم، كنت على يقين أنني سأكون صداقات جديدة وبسرعة، وقد نحظى ببعض المرح والوقت الممتع معاً بالمستشفى.

وحين أوقفت أمي سيارتها بجوار نافورة المياه الضخمة أمام المستشفى، جذبت نفساً عميقاً من الهواء النقي – مدركاً أنه آخر نفس عميق نقى قد أتنفسه لفترة طويلة قادمة – ثم بدأنا إجراءات الدخول المعتادة. ولابد أن التوتر كان قد بدأ يستحوذ على، لأنني رحت أقرض أظافري وحين رأتني الممرضة أفعل ذلك اتهمتني على الفور أن ببطني ديداناً دبوسية وأنني مصاب بتلك الديدان ويكفى هذا بالطبع لوضعي في قسم العزل.

همست الممرضة في أذن أمي بشيء ما و لم تعجبني بعدها الملامـــح الـــتي ارتسمت على وجه أمي، كما لم يرحني ما يمكن أن يؤدى إليه ذلك الهمس.

ودعتني أمي والدموع تملأ عينيها وغادرت المستشفى. وبدلاً من إدخـــالي القسم المعتاد المليء بأطفال آخرين ، اصطحبوني مباشرة إلى قسم العزل - وهـــي غرفة تصل أبعادها إلى ثمانية أقدام في عشرة أقدام وتحتوى على فـــراش وطاولـــة ودورة مياه.

سالت الممرضة: "لماذا أحضرتني إلى هنا؟"

قالت : "نريد أن نجعلك بعيداً وحدك لبضعة أيام حتى نتـأكد أن أمعـــاءك خالية من الدودة الدبوسية"

احتججت قائلاً : "ولكنني غير مصاب بالدودة الدبوسية"

كنت على يقين من ذلك

قالت: "حسناً ، حتى نتأكد أنك غير مصاب ستبقى هنا بضعة أيام"

إلا أنني بقيت لبضعة أسابيع في ذلك العزل اللعين.

ذكريات مؤلمة، وأخرى جميلة

حتى الآن ، أتعجب من غزارة الذكريات التي علقت بذاكرتي عن الزمـــن الذي قضيته بالمستشفيات. بعض أجمل الذكريات وقع في مستشفى شـــراينرز في سان فرانسيسكو. مازلت أذكر ألوان محتويات غرفتي وألوان جـــدران ممـــرات المستشفى وكذلك الرائحة المميزة أبداً للمستشفيات. مازلت أتذكر ملامح وجوه الناس الذين قابلتهم من مرضى وأطباء وممرضات والآباء الذين يزرون أبنـــاءهم . كل تلك الذكريات ما زالت حية في ذاكرتي كأنها وقعت بالأمس القريب.

أما أكثرها إيلاماً فهي ذكريات الأيام التي عانيت فيها آلاماً وأوجاعاً بدنية لا يحتملها بشر.

لابد أن تدرك أن الجراحات التي أجريت لي كانت تتضمن فتح أجزاء من جسمي وكسر عظام وتقطيع مفاصل ثم إعادة - و محاولة إعادة - ترتيب وتقويم عظام جسمي، ثم إغلاق ما فتحوه، ثم إحاطة بدني كله تقريباً برداء كامل من الجبس حتى تلتئم عظامي على النحو والشكل الذي يريده الأطباء.

مازلت أتذكر إفاقتي من المخدر على تلك الآلام المبرحة والتي لا يستحوذ على عقلي معها إلا رغبة عاتية أن تتلاشى وتختفي في التو واللحظة.

مثل أي طفل كرهت الحقن، وبالرغم من ذلك كنت بعد بعض الجراحات أتوسل إليهم يحقنوني بأي مسكن من شدة ما كنت أعانيه من آلام . كنت أتوسل إليهم : "أرجوكم احقنوني بأي مسكن للألم". كان الحقن بمسكنات الآلام القوية محدداً جداً وإلا تحولت إلى مدمن لتلك الحقن.

حين كانوا يسألونني أين أشعر بالألم، كل ما كنت أستطيع قوله هو : جسمي كله آلام.

أتذكر أيضا مرة كنت فيها أعاني من الأم قاسية لا تحتمل رحت معها أرجوهم إن يقطعوا ساقيّ. كان أمل السير على ساقين يبدو بلا قيمة بجوار الآلام التي كنت أعانيها. كل ما كنت آمله أن تذهب الآلام ولم يهمني أبدا ما يمكن أن يكون ثمن ذلك.

وبالرغم من أنني كنت في غاية البؤس في المستشفى، إلا أنني خضت كل ذلك وكل تلك الجراحات، ونجوت منها جميعاً وأصبحت أشد وأقوى بعد احتمالي لها جميعاً. كنت أحيا يوماً بيوم، واستطعت أن أستجمع قواي بما يكفى لاجتياز كل تلك الآلام.

كان ذلك جانباً تعين على كل الأطفال في مستشفى شراينرز أن يتجـلوزوه. كان هناك أطفال بالمستشفى حالتهم أسوأ من حالتي، حالات تنطوي على إعاقـة مدى الحياة، واعتقد أن ذلك الجانب علمني ألا اشعر بالشفقة على ذاتي، تعرفـت بالمستشفى على أصدقاء فقدوا أذرعهم وسيقانهم في حوادث مختلفـة، وأطفـال تشوهوا بقسوة مفزعة من جراء حروق، وأولاد وبنات فقدوا الأمل نهائيـاً أن يتمكنوا من السير بعكازات أو بدون عكازات، وبقدر ما عـانيت في تلـك المستشفى، كان هناك من أجد أن حالته أسوأ من حالتي.

حين أرجع بذاكرتي إلى تلك الأيام ، أوقن أنني كنت الأكثر حظاً مقارنـة بأولئك الأولاد والبنات الذين عرفتهم بالمستشفى.

دعم الأسرة

منذ الوقت الذي كبرت فيه بما يكفى لفهم ما يجرى، كان هناك شيء واحد أتطلع إليه حين أكون بالمستشفى : زيارات أمي وأبى.

كانت هناك بعض الجوانب اليقينية في مطلع حياتي، كان أحدها أن يأتي أبواي لزيارتي بقدر ما يستطيعان – وبقدر ما تسمح لوائح المستشفى.

كان نظام الزيارات الذي تحدده لوائح مستشفى شرايز نظاماً مرعباً للآبـاء والأطفال بالمستشفى على حد سواء. كان مسموحاً للآباء أن يزوروا أبنـاءهم مرة واحدة كل أسبوع.

وحتى تلك الزيارة الأسبوعية كانت محددة بساعتين فقط يقوم فيها الآبـاء بعمل كل ما يلزم – من لقاء الأطباء ، وتحديد مواعيد فحوصات وملء وتوقيـع الأوراق اللازمة ، وهكذا يصل الآباء إلى المستشفى يبقون بقاعـة الانتظـار ، ويعطى كل أبوين ورقة مدون بها رقم دورهما. وينتظران حتى يحـين دورهمـا ويصحبهما أحد العاملين بالمستشفى إلى القسم. ويقضى الأب أو الأم الوقت مـع

الطفل وعليه أن يغادر في الوقت المحدد وأن يلتزم به حتى يترك فرصة لباقي الآباء لزيارة أطفالهم.

ما زالت أمي تذكر قضاءها الوقت المسموح لها به معي ، ثم تحاول احتمال بكائي وبكائها حين يحين موعد مغادرتها . ما زالت تذكر كيف إن قلبها كان يتمزق حين كانت تمضي مبتعدة عن غرفتي وصوت بكائي وعويلي يصل إلى مسامعها وأنا أطلب منها إن تعود . كانت أمي تبكي وهي تغادرني، تتمنى لو كان بإمكانها أن ترجع إلي ، إلا أنها كانت على يقين أنها ليس بوسعها أن تعود إلا بعد أسبوع آخر.

كان هناك مفهوم مشترك بين العاملين في شراينرز وهو أنه بمجرد أن تغادر طفلك الموجود لديهم فإنه يصبح ملكاً لهم ومن اختصاصهم هم فقط ولا يصبح من حق الأب ولا الأم التساؤل عن كيفية رعاية المستشفى لأطفالهم.

لو فعل أي أب أو أي أم ما يفهم منه أنه يعوق عمل المستشفى أو يعترض مسار النظام، فإن هناك إمكانية حرمان المتسبب في ذلك من رؤية ابنه أو زيارته.

تتذكر أمي أنها حاولت مرة أن تهدئ من بكاء أخي صموئيل، وكان صغيراً جداً في ذلك الوقت . كان سام يبكي بكاء شديداً، فإذا بإحدى الممرضات تأتي وتأخذه منها بكل حزم وتضعه في فراشه وتقول لأمي: "إذا داومت على جعله يبكي، لن يسمح لك بالمجيء مرة أخرى". لم تنطق أمي بحرف واحد فقد خافت أن يحرموها من زيارة ابنها بالمستشفى.

كان المبدأ الذي تلتزم به مستشفى شراينرز أن الإفراط في السماح بزيارة الآباء والأمهات له تأثير سيئ على انتظام العمل بالمستشفى وعلى جداول العمل ومواعيدها وعلى حالة الأطفال المعنوية أيضاً . وكانوا يمتنعون عن التدخل حين كان الأطفال يبكون ويصرخون عند مغادرة ذويهم لهم.

وبالرغم من افتقادي الشديد لأسرتي حين كنت بمستشفى شراينرز إلا أنني كنت من المحظوظين لأن أبوي كانا يأتيان لزيارتي بصفة منتظمة. كان يوم الزيارة

من الأيام المحزنة لكثير من الأطفال. كان كثيرون منهم قد تركهم أهلــــهم بهـــا ونادراً ما كان أحد يأتي لزيارتهم.

مازلت أتذكر أطفالاً – كان بعضهم في حالة أسوأ من حالتي بمراحـــل – لم يأت أهلهم لزيارتهم . كانوا قد تركوا بالمستشفى وأهمل ذووهم زيارتهم.

وحتى لا نظلم كثيرا من أولئك الآباء والأمهات ، لابد أن أذكركـــــم أن مستشفى شراينرز كان مستشفى خيريا يتبع مؤسسة خيرية لخدمة من لا يملكـون تكلفة العلاج . لذلك كان كثير من أولئك الأطفـــال قـــادمين مـــن ولايـــات ومسافات بعيدة جعلت من الصعب على ذويهم – الذين لم يكن بإمكان كثيرين منهم الحصول على إجازة لزيارة أطفالهم.

كان أبواي يشعران بالحزن والأسى لأولئك الأطفال الذين لا يـــأتي أحـــد لزيارتهم ، وغالباً ما كان أبي يتوقف ويقضى بعض الوقت معهم في يوم الزيــــارة محادثاً أولئك الأطفال ليسرى عنهم، وهو ما كان يتفق مع طبيعته المحبة للنـــاس . أصبح أبي رمزاً للأبوة لكثير من الأطفال الذين لا يزورهم ذووهم . لم يكـــن أبي يزورني أنا وشقيقي فقط ، بل كان يمضى الوقت – بقدر ما كانت تسمح لوائـح المستشفى – مع الأطفال المهملين ويهبهم بعض التشجيع ، وأحبه الأطفال أيضاً.

لقد كنت محظوظاً في جانبين ، أولهما أنه كان لي جدان – لأمي – أحبـــاني حبا جماً، وكانا يبذلان كل ما يمكن بذله لزيارتي. كان جدي وجدتي يختـــــاران موقعاً ملائماً خارج المستشفى يريان منه نافذة غرفتي ، وحين تأتى أمي في موعد الزيارة كانت تحملني وتأخذني إلى النافذة بحيث تمكن جداي مـــن رؤيـــتي مـــن موقعهما خارج المستشفى ، عندئذ يبتسمان في فرح ويلوحـلان لي بإيديـــهما ، فأبتسم وألوح لهما. كان لابد لذلك أن يتم بسرعة وفى لحظات، كانت تـــدرك أنها ستطرد على الفور إذا رأتها إحدى الممرضات تفعل ذلك.

كانت جدتي تحضر إلى المستشفى يومياً على وجه التقريب وتجلب لي في كـل مرة شيئاً ما أتسلى به – لعبة أو كتاب ملون - وتتركـــــه في إدارة المستشـــفى

لإيصاله لي. وأحياناً ما كانت تقف أمام نافذة غرفتي لأراها تلوح لي إذا كــانت الستائر مكشوفة عن النافذة ، وأحياناً كان بإمكانها إن تحدثني عبر زجاج النافذة.

كان لدينا الدوام كثير من الزوار يأتون إلى المستشفى في يوم الزيارة ، ولكن بسبب نظام المستشفى المتشدد ولوائحه الصارمة كنا نلجأ لبعض التحايل حـــتى يتمكن الزائرون من رؤيتي. كان من المهم لي أنا وشقيقي أن نحظى بعناية أسـرتنا. كانت أسرتنا هي المعبر الذي يصلنا بالعالم الحقيقي. لم نشعر أبداً بالحرمــــان أو المعاناة من رؤية من يودون زيارتنا. كان ذلك الجانب من الرعاية المعنوية هو مـــا أعاننا على احتمال النظام الصارم المتشدد من جانب هيئة العاملين بالمستشـــفى ، وكان لتلك العناية المعنوية أهمية خاصة للمرضى من الأطفال.

الممرضات

أتذكر أن جدتي أحضرت لي في إحدى المرات لعبة مكونة من أجزاء صـــورة لإعادة تجميعها داخل إطار. وعليك في تلك اللعبة إن تجرب الأجزاء في مواضـــــع مختلفة حتى تتوصل إلى التكوين الصحيح للصورة . أعجبتني تلك اللعبـــة كثـــيراً وأحببتها ، وكنت فخوراً بنفسي جداً حين تمكنت من وضع الأجزاء في أماكنـــها الصحيحة لتكون صورة "السوبرمان" ، ووضعت الرقعة على قـــاعدة النـــافذة بانتظار الزيارة التالية لجدتي حتى أريها مهارتي.

في الصباح السابق للزيارة جاءت الممرضة وسألتني : "ما هذا؟ " قلت لها : " لعبة لغز الصورة ، انتهيت من جمعها في مواضعها الصحيحة وسأريها لجدتي حين تأتى ". تناولت الممرضة الرقعة وخلطت جميع أجزائها، ثم قالت مبتســمة : "الآن يمكنك محاولة جمعها من جديد "

صعقتني بما فعلته واليوم، وقد مضى على ذلك ثلاثون عاماً، مازلت أتذكـــر بكل وضوح مدى الألم الذي شعرت به وكأنه من لحظة مضت.

كنا نتعامل مع كثيرات من ممرضات مستشفى شراينرز. ومازلت أتذكر مدى الاختلاف من ممرضة لأخرى: كيف كنا نحب بعضهن، ونحتمل بعضاً آخر، ونكره بعضهن كن يطبقن ما يتلقينه من أوامر من السيدة "راتشد" رئيسة الممرضات حرفياً، والتي كانت اكثر تشدداً من "فلورانس نايتنجال" ذاتها.

بعضهن كن عطوفات ويحببن الأطفال حباً حقيقياً كنا نحب أن يكن بالقرب منا على الدوام وأخريات، كن لا يهتممن إلا بتطبيق لوائح المستشفى بكل دقة، ولا يبالين بهلع الأهالي على أطفالهم ولا ما يعانونه من صرامة النظام.

لم تكن ممرضات مستشفى شراينرز متسامحات بأدنى درجة فيما يختص بنظام الزيارة. كان أبواي يتحايلان بقدر ما يستطيعان للالتفاف حول قواعد الزيارة الصارمة لرؤيتي كلما استطاعا، إلا أن ذلك لم يكن من الأمور السهلة بأي حال.

ما زالت أمي تتذكر كيف اقتربت مرة من نافذة غرفتي لتنظر إلي عبر زجاج النافذة . وحين رأتني ، راحت تلوح لي بيدها، ورأتها الممرضة فنظرت إلى أمي نظرة قاسية ثم سحبت الستائر على النافذة.

لذلك كنت أنا والأطفال الآخرون نراجع قوائم دورية العمل لنعرف أي ممرضة ستكون موجودة في وقت معين. كنا نسعد حين نرى أسماء معينة، ونشعر بالضيق حين نرى أسماء أخرى. حفظنا أسماء الممرضات ، والأهم من أسمائهن الطريقة التي كانت تعاملنا بها كل منهن أثناء نوبة عملها.

بعض التغيرات الإيجابية

لم أقصد بالطبع أن أظهر أن مستشفى شراينرز كانت سيئة في مجملها، أو أن أسرتي تشعر بالمرارة إزاء تلك التجربة. كانت المستشفى تقوم بأداء أشياء كثيرة ملائمة. كان مساء الثلاثاء مثلا هو ليلة البينجو وغالبا ما كانوا يحضرون في تلك الليلة مهرجين لإسعاد الأطفال. كانت هناك ليال أخرى للأفلام السينمائية تعرض

في قاعة مسرح المستشفى وكانت لنا ساعة للترفيه. وفي الحقيقة أشعر نحوهم بامتنان شديد لأنهم بذلوا أقصى جهدهم لمساعدتي ، كما عرفت مؤخراً أن المستشفى غيرت جوانب كثيرة من لوائح معاملة المرضى وذويهم. أذكر ما ذكرته لأنه لابد لي أن أذكر الوقائع كما حدثت، ودون أن أغفل أيضاً أن ذلك في الستينيات من القرن العشرين، وأن المجال الطبي – بما فيه الهيئات والمستشفيات الخيرية مثل مؤسسة شراينرز – أدخلت عليه إصلاحات وتعديلات كثيرة فيما يخص معاملة المرضى وذويهم.

وأعتقد أن هيئة العاملين في مستشفيات شراينرز – من إدارة وأطباء وممرضات وباقي العاملين – كانوا يقومون بما يعتقدون أنه في صالح الأطفال الخاضعين للعلاج بها.

ولسوء الحظ ، كانت السياسات العلاجية المتبعة قد وضعها أناس غير معصومين ومعتمدين على ميزانيات وموارد محدودة ، وأحياناً كانت نتائج العلاجات والجراحات تسفر عن نتائج غير تلك التي أرادها الأهل.

أحس أبواي بوطأة تلك الأيام. وكأب حالياً، أصبحت أدرك الآن كيف كانت مشاعرهما تجاهي في تلك الفترة العصيبة. وحين أفكر كيف يمكن أن تكون مشاعري إذا كان على أحد أبنائي أن يمر بمثل ما مررت أنا به، أتعجب وأتساءل كيف استطاع أبواي اجتياز كل تلك الآلام.

وتعترف أمي أنه كانت هناك أوقات كانت فيها على شفا الانهيار وتحكي لي الآن عن الحالة العقلية والذهنية التي كان يمكن أن تنحدر إليها في أوقات الشدائد التي مرت عليها.

كانت في حالة من يمشي بلا يقين على حافة منزلق عميق جدا وحين تأخذ بخناقها المشاعر الأليمة، وتشعر بإنهاك روحي وعقلي، كانت تتساءل : ما الخطأ الذي ارتكبناه حتى نمضي على تلك الحافة الخطرة؟ إلا أنها تتذكر كيف كان عقلها يهديها إلى أن ذلك النحو من التفكير لا جدوى منه وأنها إن تمادت في ذلك

سينتهي بها الأمر إلى مصحة عقلية تتعاطى فيها عقاقير نفسية ثم تعود من جديد للسير على حافة المنزلق العميق. وعلى المدى الطويل، وجدت أن فقدان قدراتها العقلية سيزيد الأمور سوءاً، لذلك صممت أن تحافظ على توازنها العقلي يوماً بيوم.

لابد لأي أب وأي أم أن يمرا بتحولات على مستوى التكوين الشعوري وهم يرون أولادهم يخضعون لثلاثين عملية جراحية غريبة وغير مفهومة تماماً. لقد كان لذلك بالتأكيد أثر على أبي . كان عليه هو وأمي أن يخوضا بأبنائهما الثلاثة غمار تلك الجراحات الطويلة ، وجراحات أخي صموئيل، وجراحات جوشوا ، بما فيها تلك الجراحة التي أجريت له لاستئصال ورم صديدي بالمخ التي كان يمكن – في حين يقول الأطباء لابد – أن تقتله أو تنهى حياته.

أدى احتمالهما لكل ذلك أن يكونا أكثر تفهماً للآخرين واكثر وداً وأشد تعاطفاً. تعاطف أبي مع الناس الذين يمرون بأزمات عصبية بسبب إعاقات بدنية. كان قلباً يزخر بالمشاعر تجاه المتألمين . والآن إذا رأى امرأ في بنك أو سوق تجارى على مقعد متحرك ، فإنه يسارع باصطحابه وقيادة مقعده المتحرك إلى الوجهة التي يقصدها . وهو يوجه السؤال الذي يحجم أي إنسان عن توجيهه : " ماذا حدث لك ؟ " ، ثم يستمع بكل اهتمام إلى الإجابة.

أعتقد أن تربيته لنا - وهو يرانا على مقاعد متحركة ، وفى أردية من الجبس ، وعلى عكاكيز - منحه ترخيصا لتوجيه مثل ذلك السؤال. أخذت أمي هي الأخرى خطها من التغير، أصبحت امرأة قوية بشكل مذهل، حتى أنها أصبحت تخطب في الندوات والتجمعات النسائية، وكانت ضيفة برامج إذاعية كثيرة تحدثت فيها عن تجاربها مع أبنائها المعاقين ، وكيف جعلتها تلك التجارب تؤمن بالله إيمانا عميقا ، وكيف أدى كل ذلك إلى نمو شخصيتها وقدراتها.

وعدا القوة التي اكتسبتها أمي ، كان حبها يظهر وعواطفها تجيش في المواقف التي تستدعى ذلك . فإذا التقيتها مصادفة وتعارفتما تشعر بسهولة

بمشاعرها الحميمة الحقة النابعة منها تجاهك ، لمجرد أنك إنسان وكفى . وبالرغم من أنها مرت بمحن ومصاعب جمة مع أولادها المعاقين ، إلا أنها تظهر تعاطفها مع الآباء الذين يمر أبناؤهم بمحنة ، حتى ولو كانت مشاكل بسيطة مثل استئصال زائدة دودية أو كسر بالذراع. أصبحت أمي على يقين أن أي طفل تجرى له جراحة فإن آلام أبويه لا تقل عما يحسه الطفل من آلام.

وخشيت أمي أن تتأثر شقيقتي روث بسبب انشغال أمي الدائم بالذهاب بنا إلى المستشفيات . كانت شقيقتي روث قد أتمت شهرها السادس عشر حين ولدت أنا – وكانت في صحة جيدة مثل أي طفل طبيعي – ثم فجأة وبعد مولدي تحولت حياتها إلى سلسلة متصلة من زيارة المستشفيات التي أكون بها ، ثم زاد تواجدها بالمستشفيات بعد مولد أخوى جوشوا صموئيل. واحتارت أمي فيما يمكن أن يحدث لمشاعر أختي ونوع الذكريات التي ستختزنها.

وحتى اليوم ، لم تظهر شقيقتي روث أي مشاعر سلبية أو آثار غير ودية تجاهنا من قضائها جل طفولتها في المستشفيات مع أمي لمتابعة أشقائها. وفى الحقيقة، ربما كان لذلك أثر إيجابي، فقد مضت في دراستها قدماً لتتخصص في التمريض.

بشكل ما ، يمكنك القول إن روث قد ظلمت. لقد كانت بصحة جيدة ، وبحجم البشر الطبيعيين ، ولذلك لم تستثن من الأعمال المترلية التي استثنينا منها.

وأتذكر بضع مرات – مرات قليلة جداً – كانت روث تتذمر فيها من غسل الأطباق أو ماعداه من أعمال المترل . كان أبوانا يحاولان إعدادنا وتأهيلنا لأداء عمل ما في الحياة ، إلا أن ذلك كان مستحيلاً في أغلب الأحوال وفى الحقيقة ، أدهشني أن روث لم تترسب في نفسها أي مرارة. أنا لا أدعى أنها مثالية ، إلا أنها تعاملت مع تلك المعيشة غير المتوازنة بطريقة جيدة وبنوع من التسامح ليس من حقنا أن ننتظره أو نتوقعه منها . كانت رائعة بشكل لا يمكن تصديقه .

كانت الأوقات التي قضيتها بالمستشفيات هي القوة المؤثرة الـــتي نمـت شخصيتي على النحو الذي أنا عليه الآن. ومع أني لا أعرف مدى تحسني البـدني الذي أحرزته بالمستشفيات ، إلا أن ما أنا على يقين منه أن حالتي الذهنية والروحية أصبحتا على درجة من القوة والرسوخ مما لا يستهان بهما . أصبح ذهني في فترات البقاء في المستشفيات أكثر حدة وتركيزاً وأكثر قدرة على التحليل . تعلمـت أن أشغل وقتي باستعمال عقلي ، وهذا وحده مكسب عظيم لطفل ظل ملازماً فراش المستشفيات شهوراً طويلة متواصلة.

(٥)

نمطي .. في مواقف غير نمطية .

كليكتي-كليك.. كليكتي-كليك.. كليكتي-كليك

مازالت أمي تتذكر ذلك الصوت الإيقاعي حين كنت طفلاً أسير بدعامات الجبس حول الساقين ، وكعوب تصطك ببعضها أثناء سيري . لم يكن ينتج عنها فقط ذلك الصوت الرتيب الذي لا ينسى ، بل كان ينتج عنها أيضا كثيراً من مسحوق الجبس المتساقط بين قدمي. ومازلت أتذكر مدى الضيق والملل الذي كنت أشعر به حين كنت أسير بتلك الأردية الجبسية. وبذلك القضيب المعدني المثبت ما بين الكاحلين حتى تظل ساقاي منفرجتين عن بعضهما إلى الخارج ، كانت أي حركة أو انتقال من مكان لآخر في غاية الصعوبة.

لو سبق طبيعي منكم أن يكون قد مر بتجربة أبسط ، لأدرك إلى أي مدى يشعرك ذلك بعدم الارتياح والملل ، لا تتمكن من الحركة بسهولة ، وسرعان ما تشعر بوخز في جلدك من تحت الجبس لا تستطيع حتى حكه.

فكر الآن على ضوء ذلك في " رداء كامل " من الكلس يغطى بدنك من أصابع القدمين حتى أعلى صدرك. لا يتركون إلا فجوات بسيطة في ذلك الرداء الحجري ، إلا أن تلك الفجوات لم تصمم ببراعة شديدة تتيح لك أن تجلس بطريقة

تحفظ توازنك حين تكون بالحمام لقضاء حاجتك . ولا تنس الضيـــق الـــذي يستنفذ كل صبر حين يبدأ بوخز الجلد في أماكن مختلفة تحت الكلس ولا تتمكـن من حك أي منها.

كان هناك جانب واحد جيد خرجت به من تلك الفترات الطويلة الـــتي قضيتها في أردية الكلس : أدى حملي الدائم لذلك الـــرداء الجبـــس إلى تقويـــة عضلات نصف جسمي العلوي الذي كنت أسحب به كل ذلك الوزن. حـــين تكون في رداء كلسي ، فكل ما تتمناه أن يكون لك بعض الاستقلالية : وهـــذا بالضبط ما تمنيته حين كنت طفلاً : أن أكون عادياً. كل ما كنت أتمناه كـــان ببساطة شديدة أن أكون مجرد طفل عادي بإمكانه أن يخرج من مترله ليلعب مـــع أترابه، وأن أذهب إلى المدرسة سيراً كما يذهبون ، وأشتبك في مشـــاجرات مـــع اخوتي (وقد فعلت ذلك على أي حال) ، وكل الأشياء الأخرى التي يفعلـــها الأطفال. كانت الحياة في مترل رولوف (أبي) تمضى على أي شكل يخطر في ذهنك إلا شكل الحياة الأسرية النمطية .ليس لديها قزمان وابن ثالث مولود بعيب خلقي خطير في القلب والرئتين . وأنا على يقين أن أبوي كانا يتمنيان أن تكون. أسـرتنا نمطية وهما على أي حال لم يختارا ما أصبحنا فيه. لو سألهما أحد من قبل مولدنـا عن أي حال صحية يتمنيالها لأبنائهما القادمين ، فأنا على يقين أنهما كانا سيردان في صوت واحد : " طوال القامة وأصحاء " لا يوجد أبـــوان أصحـــاء العقـــل والتفكير من الممكن أن يختار أن يكون لهما ثلاثة أولاد معاقون ، سيتمنيان بكـــل تأكيد أن يكون لهما أبناء أصحاء يخرجون مع رفاقهم ويفعلون الأشياء نفسها التي يفعلها كل الصغار والأهم من كل ذلك أنهما سيتمنيان أن يحظى أبناؤهما بالقبول من الآخرين وألا يكونوا مرفوضين أو متعثرين ومتخلفين وراء الأطفال الآخرين . وسيتمنيان أيضاً أن يكون لهم أصدقاء ولا يعانون من الوحدة .

لأسباب لا نعلمها، منح الله والدي مهمة العناية بثلاثـــة أبنـــاء معـــاقين . وجعلهما ذلك يواجهان تحديات خطيرة وصعبة في الحياة . فكيف استجابا لتلك التحديات والاختيارات؟ أول ما فعلاه أن قررا ألا يتركا أي إحساس بـــالمرارة أو

الغضب أن يسيطر عليهما مهما كانت صعوبة المواقف التي تواجههما. اختـــــارا أيضاً أن يحبانا، يشعرا نا بهذا الحب بكل الوسائل، وأن يعتنيا بنا بأفضل ما يمكنهما عمله. اختارا أيضا أن يجعلا حياتنا أقرب إلى نمط الحياة العادية بقد الإمكان. حـين يكتمل الجمع بالمترل بعد إحدى جولات المستشفيات، لابد أن تجد حولك مـــا يشي بأن أطفالاً معاقين يحيون بذلك المنـــزل. كنت أنا صموئيل مثلاً في أرديتنـــا الجبسية ، وجوشوا يتنفس من قناع متصل بأسطوانة أكسجين . لذلك لم تكـــن أسرتنا أسرة نمطية. وبالرغم من كل ذلك كانت هناك جوانب جعلتنا وجعلـــت الآخرين يدركون أن أسرة رولوف كانت أسرة عادية.

الحياة تمضي

بالرغم من أن أبوي حضرا كل إجراء طبي أجرى لي أو لأشقائي ، إلا أنهمـــا لا يستطيعون تذكر من منا أجريت له تلك العملية الجراحية أو غيرهـــا ، فقـــد تداخلت العمليات الجراحية التي أجريت لي ولأشقائي في ذهنهما حتى اختلطـــت وأختلط الأمر عليهما.كذلك اختلط عليهما من كان يتعاطى عقارا معينا ومـن لم يكن يتعاطاه. لم تكن محاولة تطوعية منهما لإسقاط الذكريات الســـيئة وطـــي صفحتها، لأنهما آمنا أن من الأفضل لنا ألا نحيا طول الوقت " بعقلية المستشفى ". كان نمط فكرهما متعلقا بالحياة، وقد رأيت ذلك منهما أنا وإخوتي في جـــــولات المستشفيات. لو تأملت بعض الجوانب التي خاضتها أسرتي حين كنت طفـــلاً ، ربما تجد أنه كان من الأسهل عليهما تناسي فترات المستشـــفيات والجراحـــات والعقاقير و آلام إعادة التأهيل ، فقد كانا مازالا يقومان بالأعمال اليومية التي تقوم بها أي أسرة نمطية، كان أبي يداوم على عمله لكسب قوتنا ، وأمي تقوم بغســـل تلال الملابس المتسخة الناجمة عن أربعة أبناء، وتصحب أولادها إلى ومن المدرسة، وتواظب على حضور صلاة الأحد في الكنيسة ، وتستمتع بالأوقات الأســـرية ، لم تترك أسرتي للإعاقة فرصة أن تحرمنا من التمتع بنمط الحياة الأسرية الأمريكية .

ربما لو كنا أصحاء ، لكان حال أسرتي قد أختلف من الناحية المالية . كانت تكاليف رعاية ثلاثة أبناء معاقين عالية جدا حتى تكلفة الذهاب والعـــودة مـــن المستشفى كانت مرهقة ، و لم يكن لأسرتي أي دخل غير دخل أبي مـــــن عملـــه كسائق شاحنات وأنا على يقين أن حياة أبي وأمي كانت نوعا من النضال حـــتى يتمكنا من الاستمرار ، ولكن بقدر ما عرفنا ونحن أطفال ، لم نشعر أبدا بنقـــص في أي من احتياجاتنا الطبيعية.

بالنسبة لنا ، بدت لنا حياتنا عادية ، و لم نعرف غير ذلك .عمل أبي في حياته المبكرة نجارا ، ثم عمل بعد ذلك سائقا لشاحنة . كان دائما يوفر لنا متطلباتنـــا . وبعد ذلك بزمن استطاع هو وأمي أن يحققا دخلا إضافيا عن طريق شراء البيـوت القديمة والمهملة ، ثم يقومان بتنظيفها وإعادة طلائها ، ثم يبيعالها محققين بعــــض الربح .

اكتشفت أن لدي أمي وأبى براعة ومقدرة خاصة في تجارة البيوت القديمـــة . كان بإمكالهما أن " يحيلا التراب إلى ذهب " كانا يشتريان أقدم وأقبح المنـــازل ، وببعض المجهود والبراعة يحولانه إلى بيت مختلف تماما، حتى أن المشترى يشير إليـــه بسعادة قائلا " هذا بيتي ". كان أبي ماكينة عمل. بعد أن ينهى عمله خلف عجلـة قيادة الشاحنة ، يعود إلى المترل ليربط حزام النجارين على خاصرته وتتدلى منـــه مطرقة ثقيلة تزن عشرين أوقية ، ويذهب ليقوم بأعمال نجارة لسكان الحي الذي نقطن به.كانت تمر عليه أزمان طويلة وهو يعمل تسعين ســاعة كـــل أســبوع ليتمكن من الوفاء بالتزاماته الأسرية واحتياجاتنا الخاصة ، وأحيانا ما كان يـــهبنا بعض الزيادات الطفيفة عن احتياجاتنا .

وأدى ذلك إلى أن تصبح حياة أمي أشد قسوة ، فقد كان عليـــها وحدهـــا العناية بكل شئون البيت . لا أعني الشئون الرئيسية للبيوت ولا مجرد الأعمــــال الروتينية اليومية ، ولكن أتحدث عن كل شئ يخص أسرتنا بظروفها الخاصة ، مثل اصطحابنا إلى ومن أماكن إجراء الفحوص الطبية ، التجول بنا على عربة تدفعـــها بيدها — حين تكون في أردية الجبس لا نقدر على الحركة ، وكذلـــك قضاءهـــا

الوقت الذي تتمكن من قضائه معنا حين نكون بالمستشفيات. مجرد الخروج بنـــا كان من المهام الشاقة جدا على أمي . ولا يمكن تخيل الوسائل الـــتي راح أبي يبتدعها لكن يتمكن من الخروج من المترل والانتقال من مكان إلى آخر . لم يكن أبي وأمي قادرين على الدوام على حملنا ، ولذلك كان عليهما ابتـــداع وســـائل تمكنهما من نقلنا من مكان لأخر ، خاصة بعد أن كبرنا لدرجة تجعل من الصعب دفعنا على عجلات.

صنع أبي عربات يدوية بعجلات ليضعنا عليها في الانتقال ، كـــان بعضـــها خشنا ومتعبا ولا يتميز بالبراعة أو الراحة له أو لنا . وكنت أندهش حين أفكـــر فيما يمكن أن يصنعه أبي بقطع من الخشب وبعض الأحزمة وعجلات معدنية قديمة

الأوقات الأسرية

أصبح أبواي مثالا لي حاولت أن أطبق ما فعلاه معي في صغرى مع أبنائي ، أي أن أصنع لهم أشياء بنفسي وأن أقضي معهم بعض الوقت . في غمار الفوضـــى التي كانت عليها حياتنا بسبب إعاقتنا ، كان والداي يهتمان ويحرصان علـــى أن يمضى كل أفراد الأسرة بعض الوقت معا .

وأنا على يقين أن أي امرئ لم يقض أوقاتا تمتد إلى شهور بالمستشفيات مـــن الصعب عليه تفهم مدى تشوقي إلى أشياء بسيطة تبدو لأغلـــب النـــاس تافهـــة وعادية. بعد قضاء شهور طويلة بالمستشفى فإن مجرد الإحساس باقتراب موعـــد الخروج واقتراب تنفس هواء نقى يخلو من روائح مطهرات المستشفيات أو تخيـــل ركوب العربة اليدوية والخروج مع الأسرة ، إحساس لا يصدق .

جعل أبواي من الأوقات التي أقضيها خارج المستشفى أوقاتا مثيرة وجميلة لي ولاخوتي . كان لديهما على الدوام مشروع ما نقوم بعمله معا حـــين تكـــون خارج المستشفى . كان قضاء الأوقات خارج المترل معا جانبا هاما من الجوانب

التي اهتمت بها أسرتي ، لذلك كنا نقض أوقاتاً كثيرة في المناطق الجبلية . كان أبي يعشق اصطحابنا إلى مخيمات ومعسكرات في مناطق خلوية .

وعلى مدى سنوات طويلة كان أبي يقضى الساعات يقود بنا السيارة حتى يصل بنا إلى حدائق " يوزيمات" القومية بكاليفورنيا . كنا نذهب إليها كثيراً ، وإذا كنت تعرف حدائق " يوزيمايت" ، فستدرك ما أعنيه وما كنت أشعر به من سعادة في روعة تلك الحدائق والتلال والجبال وشلالات المياه الموجودة بها.

في ذلك الوقت كان لي بتلك الحدائق متعة مفضلة : شلالات النار.

كان المسئولون عن الحدائق يقومون بعمل شلالات النار من أعلى قمة جبلية . بعد حلول انطلام مباشرة يدفعون من قمة الجبل أطنانا من جمرات الفحم الملتهبة فتنسال من فوق قمته باتجاه السفح . وتظل أطنان الجمرات المشتعلة تنسال على مدى عشر دقائق كاملة كل ليلة وتكون مشهداً رائعاً للمقيمين في المخيم في الوادي القريب من الجبل .

كان أبي بارعاً جداً في ابتداع الوسائل التي تمكنني أنا وأخي صموئيل من رؤية المشاهد والمناظر في منطقة المخيم . كان مثلاً يضعنا في أكياس القمامة الفارغة ويلصقها من حول الرقبة بشرائط مانعة لتسرب الماء حتى لا تبتل جبائر الجبس ، ويحملنا على كتفه ويخوض بنا عبر تيارات مائية شديدة الجريان ، وكنت أكاد أموت خوفاً . فلو سقطنا من على كتفه أو أفلتنا من قبضته لانتهت المسألة بنا نهاية مأساوية . إلا أننا لم نسقط منه أبداً . أتذكر مرات كثيرة كان يقود بنا السيارة عبر مناطق برية ويرى منطقة صخرية خطرة أو كتلة صخرية عظمى. فيتوقف بالسيارة وينزل ليتسلق تلك الحواف الجبلية الخطرة كما يفعل الماعز البرى.

ثم ينزل ويعود إلينا قائلاً : " من الممكن أن أحملكم يا أولاد إلى هناك ". فنرد في فزع "لا يا أبي، من فضلك نحن سعداء هنا". إلا أنه كان يصر ، ثم يحملنا على كتفيه ويصعد بنا. كانت مخاطرات مفزعة ، إلا أنها كانت مثيرة.

ولا أدرى أن كان السبب يعود إلى تلك التدريبات التي تلقاها أثناء خدمته في البحرية الأمريكية أم لغيره من الأسباب ، إلا أن أبي كان يحملنا طوال تلك السنوات بكل أمان ، لم نسقط منه من مرة واحدة ، حتى في أشد المواقف صعوبة

كنا نذهب أيضا إلى مخيم أسرة مسيحية في منطقة قريبة من جبال سانتا كروز بكاليفورنيا. كانت منطقة عشبية وبها عربات مخيمات ضخمة، وكنا دائماً نجد ما نفعله في تلك المنطقة، صغاراً أو كباراً. كان من الصعب على أن أكون موجوداً مع أولاد بالمدارس العليا في ذلك المخيم وأنا قزم. لم أتمكن من مجاراقم ولا من عمل ما تستوجبه الإقامة في مخيمات بسبب إعاقتي البدنية . كانت أوقاتاً عصيبة لي ، إلا إنها ذات قيمة كبيرة لأنها نمت شخصيتي ، وأتاحت لي أن أجد تعاطفاً من الأولاد الآخرين الذين كانوا يعاونونني بقدر استطاعتهم ، تعلمت أشياء كثيرة أثناء تلك المخيمات الصيفية أعانتني بعد ذلك بأعوام طويلة حين أصبحت أباً لطفل صغير.

إصابة الهدف ، والتوجيه الصحيح

ذات يوم، ولم يكن قد قضى وقت طويل بعد إحدى مرات خروجي من المستشفى، عاد أبي إلى المترل وهو يحمل أخبار سارة : يمكنه أن يحصل عليها متصلة أو منفصلة ، وسألنا : " ماذا تحبون أن نفعل فيها؟ قالت أمي : " حسناً ، لقد كنا نحلم دائماً أن نقوم برحلة عبر الولايات، وقد تكون هذه فرصة ملائمة ".

كنا بالفعل نحلم بالقيام برحلة عبر الولايات بالسيارة ، وأخبرني أبي وأنا بالمستشفى مع شقيقي صموئيل أنه يمكننا القيام بتلك الرحلة بعد خروجنا من المستشفى . وكنا نود أن نعرف كم ولاية من بين الثماني والأربعين ولاية أمريكية يمكننا أن نشاهدها ونزورها ، وكم ملصق من ملصقات شعارات الولايات يمكننا جمعة ولصقه على سيارة الأسرة . وبدا أن تحقيق ذلك الحلم أصبح ممكناً الآن .

كان أمامنا ثلاثة أسابيع نهنئ فيها أنفسنا قبل حصول أبي علـى الإجـازة . وخططنا المسار الذي سنمضي فيه ، وحرصنا على أن يمر المسار بمسـكن أسـرة أمي. وصنعت لنا أمي زياً موحداً زاهياً جميلاً (كان ذلك في الستينيات) حتى لا نتوه عن بعضنا .

كان لدينا في ذلك الوقت حافلة صغيرة فولكس فاجن طراز عـام ١٩٦٩ حولها أبي وعدلها لتصلح لزوجين وأربعة أبناء — بما فيهم من ولدين لا يسـتطيعان الجلوس على مقاعد بسبب أردية الجبس — وحل أبي تلك المشكلة عـن طريـق تثبيت بعض الأحزمة بالحافلة حتى نستطيع أن نكون أنا وأخي صموئيل مسـتريحين ونحن في أرديتنا الكلسية . وابتدع لنا طريقة تثبيت جعلت منا مشهداً عجيباً بعـد أن أصبحنا مثل الذبائح المعلقة داخل الحافلة ، إلا أنه كان وضعاً مريحاً لي ولآخي فقد كانت طريقة عملية وآمنة وكان ذلك واحدة من الاجتهادات العظيمة لأبى .

أخيراً ، جاء اليوم الذي نبدأ فيه الرحلة . ركبنا الحافلة وقادها أبي خارجا من مدينة كونكورد التي كنا نقيم بها في ولاية كاليفورنيا متجهاً إلى نيويورك . عشـنا بالحافلة الصغيرة وتبادلنا الحوار والأحاديث بها ، وتناولنا وجباتنا بها ، ونمنا بهـا أيضا . كان يقود الحافلة طوال اليوم ولا يتوقف إلا لزيارة أقارب أو معـارف أو لتأمل واحد من المشاهد البديعة التي نمر بها — ثم نتوقف ليلاً في أحـد مواقـف الشاحنات لتناول وجبة العشاء. كنا ننام ويستمر أبي في القيادة ، ننام في إحـدى الولايات ونستيقظ لنجد أنفسنا في ولاية أخرى . وأظن أن الأعوام التي قضاها أبي كسائق شاحنة قد جعلته يعتاد ذلك النوع من القيادة لساعات طويلة متصلـة. كيف كان يمكن لستة أشخاص أن يعيشوا مستريحين في حافلة صغيرة ؟

الفضل في ذلك يعود لأبى وأمي . لقد وظفا الوقت ، والمال ، وكل مواردنـا الأخرى بكفاءة كبيرة واقتدار. ولأن أبي كان قائد شاحنة فقد كان ماهراً في رص الأشياء وصفها بمهارة فلا تشغل إلا حيزاً صغيراً من الحافلة الصغيرة . كل فـراغ من الحافلة وخارجها وتحت المقاعد وخلفها وفى خزانة الحقائب وعلى الأرفف تم توظيفه لتخزين كل احتياجاتنا أثناء الرحلة.

كان التأهب للنوم متعباً قليلاً إلا أنه كان يفي بالغرض . أنا وجوشوا كنـــا ننام في الجزء الخلفي معلقين على أرجوحة شبكية ، وتنام روث على شبكة أخرى مطوية على أرض السيارة ، أما أبي وأمي فقد كان لهما حشية يضعانها على أرض الحافلة وتشغل من مؤخرة الحافلة حتى قرب مقدمها ثم يطويانها أثناء النهار، أمـــا صموئيل الذي كان عمره عامين في ذلك الوقت ، فقد كانت له حشوة رغويـــة توضع بين المقعدين الأماميين.

لم نكن نتوقف بالطبع لتناول وجبات في المطاعم الغالية ، إلا أننـــا لم نمـــت جوعاً أيضا. كنا في حالة تقشف في تلك الرحلة ، وكانت حالة التقشف لا تـترك فرصة ترفيه إضافي . كانت أمي توفر أحياناً من بعض نفقات الطعام حين تكـون على الطرق وذلك بأن تستعمل مواقد المعسكرات لعمل بعض الوجبات التقليدية الرخيصة بما فيها وجبات" الجرانولا" التي كانت قد أعدتها في المترل وعبأتهـــا في أوعية كثيرة صفتها بالحافلة . أصبحت الجرانولا إفطاراً ثابتاً لا يتغير وأعدتها أمي أيضاً في الشطائر . وأدى ذلك الوادي أن أكرهها ولا أمسها حتى اليوم.

لم نتمكن من زيارة الولايات الثماني والأربعين . لم نتمكن إلا من زيـــارة عشر ولايات . أما ما حصلنا عليه ، فقد كان كنزاً ثميناً من الذكريات العزيـزة . قضينا تلك الأسابيع معاً، وكانت مثل صيفية لأسرة " عادية " مثل جميع الأسر " العادية "

خطوة للأمام، خطوتان إلى الخلف

كانت تلك الإجازة التي قضيناها معاً سبباً في ولع أبي — وأنـــا أيضـــاً — بالمزارع . كنا قد مررنا بمزارع رائعة أثناء رحلتنا بسيارة الأسرة ، وفى كل مـــرة كنا نمر فيها بواحدة من تلك المزارع ، كنت أسمع تأوهات أبي.

لم يمض وقت طويل بعد عودتنا إلا وقد بدأ أبي يخرج بالسيارة في أيام الآحاد إلى المناطق الريفية شمال مدينة سان فرانسيسكو ، وعثر على مزرعة جميلة صغيرة المساحة (اشتراها بعد ذلك) تبلغ مساحتها فداناً ونصفا عند سفوح جبال سانتا روزا . كان بالمزرعة مترل ريفي عصري كان يعد بمثابة قفزة هائلة قياساً بالمنازل التي سكنا بها قبل ذلك . كان يقع بعد المنطقة العشبية مباشرة خور مياه ومنطقة غابات بدت صالحة للهونا وخوض مغامرات استكشاف أرجائها .

كنت حين انتقلنا إلى المزرعة قد انتهيت بالكاد من عملية جراحية كبرى لإصلاح عظامي، وأتلقى جلسات علاج طبيعي لاستعادة مرونة وقوة عضلات ساقي . ومازلت أتذكر عامل خطوط الهاتف وهو يتسلق عامود أسلاك الهاتف خلف مترلنا لتوصيل خط هاتف جديد . وبعد أن انتهى من عمله ورحل ، قلت لأخوي سام (تدليل صموئيل) وجوشوا (يوشع) أنني سأتسلق عامود الهاتف مثلما فعل العامل . تسلقت عربة اليد التي يستعملها أبي في الحديقة ثم تسلقت إلى ما فوق أكياس الملاط المكومة فوقها . وحين كنت أحاول أن أصل إلى أول وتد بالعامود لكي أتعلق به ، انقلبت عربة اليد على جانبها الآخر ، وانحشرت ساقي بين أكياس الملاط وجسمي ورأسي متدليان إلى أسفل ، كنت قد تخلصت من رداء الجبس من شهر واحد فقط ، وأنا محشور وجسمي مدلى رحت أصرخ " كسرت رجلي ".

العودة إلى رداء الجبس

لم يؤد كسر ساقي إلى عودتنا إلى المدينة ، إلا أن ما حدث في العام التالي أعادنا بالفعل إلى المدينة .

كانت هناك بحيرة عبر الطريق المار أمام المزرعة . وذات يوم كنا على حافة البحيرة لصيد الأسماك حين رأيت أمي تأتي راكضة وعلى وجهها ملامح فزع

وأمارات رعب شديد . كانت تقوم بإعداد بعض الفطائر المقلية فأمسكت النـــار بالزيت ثم امتدت إلى المطبخ كله.

اتصلت بالإطفاء ، وحين وصلوا كان المطبخ قد احترق تماماً وأتلف الدخان جوانب كثيرة من المترل . كان علينا الانتقال للمعيشـــة في بيـــوت الأصدقـــاء والأقارب حتى ينتهي إصلاح المترل.حكت لنا بعد ذلك كيف أحست بـــالرعب حين انتشرت النار بالمطبخ ، وكيف راحت تعدو في جنون حول المترل بحثاً عنـــا خشية أن نكون محاصرين في مكان ما من المترل ولا نستطيع أن نهرب بسبب إعاقتنا التي تعوقنا عن الحركة ، إلا أننا كنا لحسن الحظ عند البركة.

أعتقد أن أمي قد فقدت كل اهتمام بالحياة في الريف بعد ذلك الحريق .فبعـد هذا الحادث بفترة وجيزة عدنا إلى المدينة.

زرع القدرة على اتخاذ المواقف الصحيحة

لم يترك والدي أي فرصة لنا، أنا واخوتي ، أن يترسخ في نفوسنا أي مشــــاعر بالإشفاق على الذات ، بل لم يسمحوا لأنفسهم أن تتسلل تلك المشاعر السلبية إليهم ، ولذلك لم يسمحوا لها أن تترسب في نفوسنا .

كانا هائلين وعظيمين في تعليم اخوتي وتعليمي أنا أيضاً كيف نتخذ المواقــف الصحيحة حتى حين نكون متألمين أو نمر بحالات معنوية سيئة. علمونا أن نكـــون متواضعين (مازالت أمي تصر على أنها من زرعت في فضيلـــة التواضـــع) وأن نكون لطفاء دمثي الخلق وكيسين ، وألا نكون بغيضين وألا نطلب شـــيئا مـــن الناس لمجرد أننا معاقون. مازلت أتذكرهما وهما يقولان لي :" لا تكن طفلا معاقـا وتالفا أيضاً" لم أفهم تماماً ما كانا يعنيانه في ذلك الحين ، إلا أنني أصبحت علـــى وعى تام بما كانا يعنيانه الآخرين . كان أبوانا يريدان بكل بساطة أن نفـــهم أن

إعاقتنا ليست عذراً لنا حتى نأمر الغير بتلبية حاجة لنا ، أو أن نكـــون كثـــيري الطلبات، أو وقحين.

مازلت أذكر واقعة بينت لي إلى أي مدى حرص والـــداي علـــى تعليمـــي السلوكيات الصحيحة . كنت في الثانية عشرة من عمري وكنت أصوب ببندقيـــة الخردل على تلك الأجسام التي تشبه العلب المثبتة على أعمدة الهاتف . كنـــت أطرب لسماع صوت قذائف الخردل وهي ترتطم بتلك العلب . وارتدت إحدى حبات الخردل من العلبة واخترقت زجاج نافذة عيادة طبيب الأســنان كـــانت عيادته بجوارنا ومست وجه موظفة الاستقبال. وانفتح باب عيادة الأسنان بعنـــف وخرج منه رجل غاضب عرفت بعد ذلك أنه صديق موظفة الاستقبال وكان في حالة بالغة من الاستياء والغيظ.

جريت صوب بيتنا بأقصى سرعة أتاحتها لي العكازات التي كنت أســـتند إليها ودخلت حديقة بيتنا واختبأت خلف أمي التي كانت التي كـــانت تـــروى زهور الحديقة . ودخل الرجل خلفي مشتغلاً بغضبه ومهدداً بعواقب شديدة .

وقفت أمي بيني وبين الرجل الغاضب وسألته عما حدث . وحين أخبرهـــا عما فعلته وتأكدت أمي أن أحداً لم يصب بضرر، قالت له:" سأهتم بهذا الأمر ". استدارت إليّ أمي وقالت :" مات ، هلم إلى الداخل " كان كل ما انتوته أمي أن تحدثني عن الخطأ الذي ارتكبته، وتحرمني بعدها من البندقية لبعـــض الوقـــت ، وينتهي الأمر عند ذلك الحد. إلا أنني جعلت الموقف أسوأ كثيراً بسلوكي السـيئ إذ قلت لها :" لم يقع ما يهم " ، وكان هذا خطأ كبيراً من جانبي. لم تحب أمـــي أبداً في حياتها بنادق الخردل ، كما لم يتغير موقفها حين أصبح لدي واحدة حـــين كنا في المزرعة الريفية . كانت دائماً تشعر أنني سأطلق البندقية في عيني كما حدث لولد آخر من بضع سنين سابقة . وزاد كرهها للبندقية بعد انتقالنا وعودتنـــا إلى المدينة . أرادت أن تختفي البندقية من حياتي ، وبسبب ما قلته وفرت لهـــا المـــبرر الكافي حتى تحرمني منها نهائياً . سألتني :" أين البندقية ؟ "

ذكرت لها المكان الذي خبأتها به ، فقالت :" أذهب وهاتها " أحضرتها وناولتها إياها ، وكانت في الأثناء نفسها قد ذهبت هي الأخرى وأحضرت شيئاً آخر : مطرقة ثقيلة تزن عشرة أرطال .

تحولت أمي من أم حلوة محبة وحنون لم أكن أرى منها إلا عطفاً خالصاً ورقة وحنانا دافئا إلى شخص لا أكاد أعرفه. واتجهت والمطرقة في يد والبندقية في الأخرى وعلامات غضب كاسح شنيع تسيطر على ملامحها وحركاتها إلى ممشى جانبي ، وضعت البندقية على الأرض ، وانهالت عليها بالمطرقة بكل عنف ، وبدا أنها مع كل ضربة تزداد شهيتها للتحطيم . راحت تدقها حتى تحولت إلى كومة من الخشب والحديد والبلاستيك، لدرجة أنه لم تعد أي قطعة من الحطام من الممكن أن تشي بأنها كانت جزءا من بندقية. رحت أبكي بكاء شديداً في تلك اللحظة ، لم تخف أمي كرهها للبندقية ، إلا أنني كنت أحبها ، وكنت أحب التصويب بها وإطلاق قذائف الخردل منها على الأهداف التي أختارها ، وكنت قد أجدت التصويب وأصبحت البندقية من أهم ألعابي المفضلة ، والآن، أمام ذلك الحطام ، أيقنت أنني لن ألعب بها اليوم . شعرت أن كل ضربة مطرقة كانت تنزل على أنا . وفي الوقت الذي صبت فيه أمي غضبها على البندقية ، صببت أنا غضبي على أمي ، كانت دموعي تجرى كالأنهار ، قلت لها بكل ما أملك من مشاعر :" أنت أسوأ إنسان في العالم "

بلغت من الغضب أقصاه ، ركبت دراجتي ، وطرت بها إلى المترل ، واتخذت قراراً حاسماً ألا أعود إلى هذا البيت أبداً.

بقيت بعيداً عن البيت ، متنقلاً من بيت صديق إلى بيت صديق غيره، أتجول في الشوارع حتى خيم الظلام . كان أبي قد اتصل بصديقي " إريك " ، صديقي المقرب ، وسأله إن كان يعرف مكاني . قال لهما " إريك " في البداية أنه لم يرني، إلا أنه أخبرهما بعد ذلك أنني سأتوجه إلى الكنيسة الكاثوليكية وأقضي بها الليل وأنني لن أعود إلى البيت أبداً.

استقل أبي ومعه أمي سيارته الفولكس فاجن وخرجا للبحث عني. وأخيراً رأياني على دراجتي بأحد الشوارع . اقترب أبي مني بالسيارة وناداني : " هاي مات " ، فابتعدت عنهما بدراجتي وسرت بها في ممشى ضيق حتى لا يتبعاني . ترجل أبي من السيارة وتبعني حتى تمكن من الوصول إلى وحملني عائداً إلى السيارة ،وضعني في السيارة وأنا أصرخ وأرفس، وأمي تجرى الدموع على خديها في صمت. وعاد بنا إلى البيت.

وضعاني في فراشي ، وبكيت حتى نمت . في الصباح التالي بدا أن المشكلة قد انتهت . كان كل شئ هادئاً في مترل رولولف، و لم يبد أي أثر لغضب عند أي طرف من الأطراف. ومن سخريات القدر أن ذلك اليوم كان اليوم الذي سألقى فيه حديثاً في نادى جمعية المتفائلين . كانوا قد اختاروني لألقى خطاباً عن كيفية مغالبة الشدائد والمحن. كان على أن أحكي لهم لماذا أنا سعيد بالفعل بكوني معاقاً ، وكيف أن إعاقتي جعلتني أقوى نفسياً ومعنوياً . بالرغم من أنني لم أكن أشعر بأي تفاؤل في ذلك اليوم .

كانت تلك الأزمة من الأزمات التي يمكن أن تقع لأي أسرة من الأسر المتحابة . إلا أنه نتيجة لها ، كان هناك شئ واحد أصر أبواي على أن أعرفه بكل وضوح : لم يهمهما مدى الغضب الذي أظهرته، لم يهمهما مدى ضيقي بهما ، ولا طبيعة الخلاف ، كل ما كان يهمهما أنهما لن يسمحا بتركي أقضي ليلة واحدة متسكعاً في الشوارع ، ولن يسمحا لي أبداً باتخاذ موقف أكون فيه لا مبالياً وأقول في داخلي : " ما الذي يمكن أن يجرى ؟ لا يهم "

التعامل مع الناس

بالرغم من الآلام ، وعدم الارتياح الذي كانت تسببه لي الإعاقة ، إلا أنني كنت أحس في أعماقي أن الأمور ستتحسن . أدركت أنه في وقت ما سيمضى الألم بلا رجعة ، وأنني لن أكون في قائمة انتظار مستشفيات في يوم ما، وسأعيش

مع أهلي وأصدقائي. وبسبب ما كان يعلمه لي أبي على الدوام ، تعلمت كيف أعامل الناس وكيف أسمح لهم بمعاملتي — بطريقة مقبولة للطرفين . علموني ألا أتوقع شفقة أو استثناء خاص بسبب إعاقتي ، وعلموني أن أقبل المعاونة أو الاستثناء إذا كان تلقائيا من الآخرين، لا أسعى أنا في طلبه . إلا أن أبوي علمانا أيضا كيف يكون رد فعلنا إذا أشار أحد إلى إعاقتنا بما لا يسرنا — حتى إن كان دافعه الشفقة ، أو صفاقة ووقاحة — وإذا وقع شئ من ذلك في حضور والدي ، كان يجدها فرصة أن يلقن الآخرين درسا من دروس الحياة لا ينسونه .

كان والداي يعرفان كيف تكون استجابتهما لي أو لاخوتي إذا ذكر أحد شيئا ما عن إعاقتنا أو يتعلق بكوننا أقزاما. كان والدي يتصدى على الفور للمسيء إذا كان كبيرا بالغا ، أما إذا كان طفلا ، فقد علمنا أن نتصدى نحن له ونرد عليه دون أن يصل الأمر إلى حد الاشتباك بالأيدي .

لم يشجعنا والداي أبدا على أن نتذاكى على الأطفال الآخرين ولا على الاشتباك بهم إذا ضايقونا.

أتذكر مرة عدت فيها إلى البيت من المدرسة وأنا غاضب لأن أحد الأولاد ناداني قائلا:" يا قصير " . دخلت البيت وقلت لأبي : " هناك ولد ناداني ب "يا قصير ". نظر إلى أبي نظرة حيادية وقال :" ألست كذلك ؟ "

قلت : " بلى ، أنا قصير "

قال : " إذن ، ما المشكلة ؟ "

لم أجد ردا . نعم — قصير — أقصر بمراحل من أي زميل بالفصل الدراسي . عند ذلك ، أيقنت أن ما ذكره زميلي بالفصل لم يكن إلا حقيقة واقعة. كان أبي مباشرا تماما فيما يخص ذلك الجانب كان يقول لي : " إذا قال لك أي إنسان أنك ضئيل فهذا ما يعد إهانة ، حينئذ قل له أن محجري عينيه كبيران "كان والداي في جانب المتلقي أكثر من كونهما في جانب المهاجم . مازالت أتذكر أن أمي كانت تتلقى كثيرا من الانتقادات من الناس حين كانوا يرونها تحمل جوشوا بينما نسير

أنا وصموئيل إلى جوارها نتكئ على العكازات ، كان جوشوا تنتابه أزمات القلب والتنفس مع أدنى مجهود فيتحول إلى لون أزرق ويجاهد لالتقاط أنفاسه حتى لا يغشى عليه ، إلا أن من لا يعرفون ذلك كانوا يسألونها في انتقاد واضح : " كيف تحملين الولد السليم وتتركين المعاقين الذين يسيرون على عكازات ؟ " كانت هناك جوانب كثيرة من الحكمة فيما علمه لنا أبوانا ونحن صغار. فبدلا من تركيز تفكيرنا على مالا يمكننا أداؤه ، شجعانا على إدراك ما نملك من مواهب وتطويرها .

(٦)

كفاحي وانتصاراتي في المدرسة

في الأغلب الأعم كنت طفلا نمطيا. التحقت بمدرسة، كونت صداقـــات، وخرجت للعب كما يفعل كل الأطفال. اعتدنا أن نلعب لعبة الاستخفاء في ليالي كاليفورنيا الطويلة تحت أضواء الطرق التي كنا نتخذ من أحد أعمدة إنارتها قاعدة للانطلاق والاستخفاء . وحيث أنه لم يكن بمقدوري الانطلاق عـــدوا كبـــاقي الأطفال ، تعلمت أن أكون مبتدعا في التوصل إلى وسائل للاختفاء قرب قـــاعدة الانطلاق ، كنت أختفي أحيانا في فجوات صغيرة جدا لايشك أحد أنه يمكـــن الاختباء بها .

ومثل أي طفل أخر ، كان لي صراعاتي مع والدي ، وخضـــت عراكـــات ومشادات مع أخوى وأختي ، بل أنني خضت شجارات ومعارك مـــع الأولاد في المدرسة . وأصابتني الحالة النمطية من الاكتئاب التي تصيب الشـــباب في العقـــد الثاني من حياتهم ، وكانت لدي دوافع غريزية تجاه البنات مثل كل الشباب في سن المراهقة ، وكان لدي مدرستان مفضلتان وأثيرتان عندي، ممن كنت أعدهم مثـــلا أعلى لي . ولبعض الوقت ألحقني أبواي بمدرسة مسيحية خاصة ، فحين كنت في

رداء جبسي بعد إحدى الجراحات وكنت في حاجة إلى عناية خاصة ، ألحقــوني بمدرسة " البورتيل ديل نورت "، وهي مدرسة تقع على الخليج مختصة بالأطفــال المعاقين فقط . وفي الأغلب الأعم كانت أغلب سنوات دراستي في المدارس العامـة بمنطقة خليج سان فرانسيسكو . ولا أشعر بالفخر وأنا أعترف أنني لم أكن أفضل التلاميذ تحصيلا مع أنني كنت أستطيع أن أكون كذلك، و لم أكن بليدا.وحصلت على درجات جيدة في كل مراحل الدراسة ، حصلت فقط على الدرجات الـتي كنت أود الحصول عليها . حين كنت أحصر رغبتي في الحصول على تقديـر "ب" لكي استثنى من بعض الأمور فقد كنت أحصل عليه بالفعل . وحين كنت أود أن أحصل على تقدير "ممتاز" في امتحان معين ، كنت أحصل عليه . وفي المواد الـتي كنت أحبها مثل برامج الحاسوب على سبيل المثال كنت أحصل علــى أعلــى الدرجات بمجرد حضور دروس الفصل ودون مجهود إضافي لأني كنــت أشــعر بالمتعة وأنا أتعلم تلك الدروس . ولكن ، كان هناك شعور لدي أبوي — وكذلك لدي المدرسين — أنني يمكن أن أحصل على درجات أفضل كثيرا مما كنت أحصـل عليه .

كانت الأوقات الطويلة التي أقضيها في المستشفيات تؤثر دون أي شك علــى مستواي التعليمي ، وأدى ذلك إلى أن أقضي عامين بالصف الثالث .

وبمرور الوقت ، تخلفت كثيرا عن الدراسة بسبب وجودي بالمستشــفيات ، وكان عدم الإحساس بالراحة البدنية يجعل من الأمر أكثر صعوبــة أن لم يكــن مستحيلا . ولكي لا نتخلف عن الدراسة ، كان لمستشفى شراينرز نظام يســمح باستقدام المدرسين لمدة ساعتين كل يوم ، إلا أن الساعتين كانتا أقل كثيرا مــن الساعات النظامية بالمدارس .

وبسبب تلك العوامل على الوجه الأغلب ، لم أعــرف كيــف أســتذكر دروسي حين التحقت بالمدرسة العليا . كنت مراهقا ذكيا ، إلا أنه لم يكن لـدي الطاقة على الجلوس لمدة طويلة أمام أكوام الواجبات المترلية التي تحتاج إلى إنجاز .

أتذكر واقعة حدثت لي في ثاني أو ثالث يوم من التحاقي بالمدرسة العليا .

كان كل شئ جديدا في نظري وكذلك نظام الدراسة وكنت بالكاد قد بدأت استوعب كيف انتقل من فصل إلى فصل . وفى درس الرياضيات طلب منى المدرس أن أجيب على سؤال بسيط وبديهي . لم يكن بالطبع مطلوبا أن أجيب على حاصل جمع اثنين على اثنين ، إلا أنه كان يعد سؤلا تافها لمن التحقوا بالمدرسة العليا . إلا أن عقلي في تلك اللحظة أغلق تماما . جلست بالفصل وأنا أكاد أبكى غيظا من إحساس بمدى غبائي . بعد يوم أو نحو ذلك كنت أبذل جهدا لتطويع استجاباتي لنظام الدراسة بالمدرسة العليا، وكانت تلك الأيام الأول تشكل منعطفا هاما أمامي ، هل يجب على أن أنعزل وأموت بهدوء ، أم أن آخذ الأمر بلا مبالاة واستهتار وضحك من الأمر مع الزملاء ، أم أصل إلى حلول خلاقة لإعادة بناء إحساسي بذاتي الذي تلاشى ؟

في تلك اللحظة رأيت ملصقا يعلن باب الترشيح لانتخاب رئيس للفصل الدراسي الأول . ولمعت فكرة في رأسي: لن يضعني ذلك في قلب الأحداث فقط ، بل سيظهر للجميع أنني لست غبيا كما اعتقدوا.

أتذكر أنني تساءلت عما يمكن أن يحدث إذا رشحت نفسي و لم أنجح في تلك الانتخابات ، هل ستكون لدي القدرة على استعادة توازني المعنوي من جديد بعد ضربتين متتاليتين مبكرتين في بداية التحاقي بالمدرسة العليا ؟ يحتمل . إلا أنني كان لدي شعور دفين أنني لن اخسر .

بدأت حملة دعاية نشطة ومكثفة. وفى الليلة السابقة على الانتخابات تسلق بعض أصدقائي سطح المدرسة وعلقوا لافتة ضخمة جدا صنعت من مفارش للأسرة خيطت إلى بعضها ومكتوب عليها: "انتخبوا رولوف رئيسا للصف الأول.

نجحت نجاحا أسكريي ، وبأغلبية كبيرة وقضيت باقي العام مركزا على زيادة حصيلة الموازنة المالية وإقامة الاحتفالات في المناسبات المختلفة، أكثر من تركيزي على الدروس والدراسة.

وللمرة الثانية ، يصبح لدي من الاسباب ما يحول دون تحصيلي الدراسي كما ينبغي . لم أكن بليدا كما ذكرت . إلا أن دوافعي للإجادة كانت مرتبطة بقـــدر المتعة الذي أشعر بها من كل مادة دراسية. اخترت في المدرسة العليـــا دراســة الميكانيكا الآلية ، وأعمال الخشب ، والتزلق على الجليد ، وقضيت أوقاتا طويلــة بصحبة الأصدقاء .كنت محبوبا في المجتمع المدرسي ، وفزت في عدة مســـابقات للخطابة .

كنت ابذل جهدا كبيرا في كل الجوانب التي تبعد عن الدراســـة النمطيــة. وبذلت كل جهد للالتفاف حول المناهج المقررة أكثر مــن الــتزامي بالمنــاهج الدراسية ذاتها .

كان أبواي يشعران بالقلق مثل أي أبوين يجدان ابنهما يحصل على درجـــات متوسطة في حين يوقنان أنه من الممكن أن يحصل على أكثر من ذلك .

و لم يحضر أبي حفل تخرجي في المدرسة العليا . كنت قد أنهيت كل المقررات الدراسية اللازمة ، إلا أن أبي آمن أنني لا أستحق التخرج لأنني لم أبــذل الجــهد الكافي . في اعتقاده أن حفل التخرج يعني احتفالا بالإنجاز ، أما في حالتي فقد رأى أنني بذلت أقل جهد ممكن . والآن ، حين نتحدث عن ذلك ، يبدى أبي ندمـــه لعدم حضوره حفل تخرجي ، إلا أنني على يقين في داخلي انه كان محقا .

لم تر أمي أبدا أنني طالب عادى . كانت موقنة أنني ذكى وموهوب وأنــني لست أي طفل . حتى أثناء الحضانة ، كانت ترى أنني طفل موهـــوب ورجــت المدرسين مرارا أن يدفعوني أكثر لإظهار قدراتي.

وذات مرة أجاب أحد المدرسين على رجائها قائلا : حسنا ، اعتقد أن مــات لن يشعل النار في العالم ، وهو على أي حال تلميذ عادى متوسط الذكاء". وبلــغ الغيظ بأمي مبلغا أفقدها القدرة على الرد ، وبعد لأي تغلبت على غيظها وقــالت للمدرس أن أي امرئ يمكنه أن يتبين بسهولة أنني لست تلميذا عاديا بأي حال .

أراد أبواي لي أن أكمل تعليمي الجامعي ،و قد التحقت بالفعل بجامعة لفـترة قصيرة جداً – ومع أني لم أضف أي لقب بدرجة جامعية تسبق اسمي حتى الآن إلا أنني وجدت أن التعليم الجامعي لاينا سبني . كنت قد بدأت في تلقي محاضرات في علم الاجتماع ، إلا أن استيعابي لتلك العلوم كان سيئا.

كان انضباطي اللازم للدراسة الجامعية أقل مما هو مطلـــوب لاجتيـــاز الدراسة الجامعية ،ولذلك لم أبق بها طويلاً ،وأدى ذلك أيضا إلى إثارة المشاكل مع أبي وأمي . كانا – للتخفيف من الأمر – مخذولين .

أجدت العمل الذي اخترته جداً ، إلا أنني كثيرا ما أتساءل عما يمكـــن أن أنجزه لو كنت تلميذاً مجداً ومجتهداً . لدي اعتقاد أنني كنت سأكون أفضل حـالاً وكنت قد أصبحت معروفاً في الكتابة والرياضيات. أشعر الآن بالندم لأنـــني لم أبذل مجهوداً أكبر أثناء الدراسة ، وأبذل الآن كل جهدي في عملي حتى أشـجع أبنائي على بذل أقصى جهدهم في دراستهم . أريد لهم أن يكونوا فخورين ببـذل أقصى جهد في كل ما يفعلون.

تخطي العوائق

بينما كنت لا أحقق تفوقاً واضحاً في المدرسة ، إلا أنه لو كان هناك أي تقييم واضح للجانب الاجتماعي لكنت قد حصلت على امتياز. لم أكن أشـــعر أبداً بالخجل في تعاملي مع الآخرين ، تعلمت من باكورة حياتي كيف أســتعيض عن إعاقتي بتطوير ثقتي بنفسي في التعامل مع الناس . كانت لدي القدرة علــى الاختلاط بكل الفئات الاجتماعية ، سواء كانت انتماءاتهــا عرقيــة أو طبقيــة اقتصادية. كنت أومن على الدوام أن البشر هم البشر ، ولم يهمني إلام ينتمون – عرقياً أو اقتصادياً – ولا لون بشرتهم، ولا كم يكسبون. لذلك كان لي كثير من الأصدقاء في المدرسة. ومازلت أتذكر الشخصيات المختلفة الـــتي صادقتـــها في المدرسة العليا : ديدان الكتب، و المهرجين، و المتحجرين و المشاغبين ،وانتماءات

وألوانا أخرى كثيرة. وكنت ممن يحبون أن يصادقوا كل النوعيات. فقد كنت ودوداً للجميع . وكان لي بالتأكيد مجموعة مفضلة كنت أقضي معها كل وقتي .

على سبيل المثال ، كنت أمارس المصارعة في المدرسة العليا، ولذلك صادقت فريق المصارعة، لم أتعاط أي نوع من أنواع المخدرات و لم أدخن، إلا أن بعض الأصدقاء الذين كنت أحبهم في المدرسة العليا، كانوا يتعاطون المخدرات ويدخنون ،وكنت أقضي وقتاً معهم. كنت أحادث تلاميذ يتجنبهم كل التلاميذ.

أحد أصدقائي في المدرسة العليا كان قوياً وشديداً، وكنت أدعوه "جيمي" . لم يكن "جيمي" مجرد مصارعا في الوزن الثقيل، بل وحاصل أيضاً على الحزام الأسود في الجودو . كان بلا منازع أقوي طالب عرفته إلا أن مظهرة لم يكن يشي بذلك. لم يكن فارع الطول، كان أقرب في تركيب بنيته إلى مصارعي السومو، وبرغم ذلك شاهدت بنفسي مصارعين أكبر حجماً يتلقون ضرباً مبرحاً من جيمي.

كان جيمي حلو المعشر في جوهره وأعماقه ، إلا أنه كان ينتمي إلى بيت محطم وأسرة مفككة ،وكانت أمه تبذل أقصى جهدها لتحول دون وقوعه في مشاكل خطيرة. كانت تقول لي أحيانا:" مات، خذ بالك من جيمي فهو لا يعرف في بعض تلك الأحيان كيف يتخذ القرار الصحيح"، و لكن في بعض تلك الأحيان التي تقصدها أمه كانت المشاكل هي التي تجد طريقها إليه. كان لجيمي قلب من ذهب ، وكان صديقاً حميماً لي. وأخذ على عاتقه أن يحمي صديقه الضئيل.

وقعت مرة مشكلة بيني وبين ولد آخر ، إلا أنها لم تكن مشكلة كبيرة، كانت مجرد استفزاز بالكلام، وكبرت المشادة قليلاً إلا أنها انتهت بالضحك. واعتقدت أنها انتهت عند هذا الحد، إلا أن جيمي الذي وصلته أخبار تلك المشادة عن طريق صديق ثالث مشترك ، قرر " أن يعتني بالمسألة بنفسه". فوجئت به آتياً بعد يومين وهو يقول لي بتيه وافتخار : علمت بما حدث لك أول أمس واعتنيت بذلك الولد عناية خاصة" سألته في دهشة : "اعتنيت به ؟ ماذا تقصد؟"

قال جيمي إنه حين التقاه راح يدفعه ويضربه ثم رفعه ووضعه في صندوق القمامة. صحت فيه :" جيمي، لقد كان مزاحا، لا تعاقب الناس من أجلي بهذه الطريقة"

وأعانني جيمي مرة على الخروج من مأزق تعرضت له. كنت في الثانية عشرة أو الثالثة عشر على وجه التقريب حين تمكنت من إقناع أهلي أن يشتروا لي لوح الانزلاق بعجلات. كان ترددهم الذي لم يستمر طويلاً يرجع إلى خوفهم من المخاطر التي قد أتعرض لها، ومن جانب آخر إلى أنني يمكن أن أشتريه ولا أتمكن من استعماله . كان شراء زلاجة يعد أيضاً من قبيل الإسراف في ميزانية محدودة كميزانية أسرتي . وكيف لقزم مثلي أن يلعب بلوح تزلج في كل الأحوال؟

تعلمت أن أحافظ على توازني على ذلك اللوح وأن أدفع نفسي للأمام باستخدام العكازين . كنت قد بدأت استكشاف أماكن أبعد كثيراً عن البيت، وركبت ذلك اللوح ورحت أجوب به أغلب أرجاء المدينة.

كان يوجد شارع تجاري قريب من بيتنا. وأخبرني بعض الأصدقاء الأصغر مني أن هناك مكانا فسيحاً يصلح للعب بلوح التزلج أعلى أحد تلك المتاجر. كانت تلك القاعة في واقع الأمر حوض سباحة مهجورا وخاليا من الميله وكنت أوقن أن أمي لن تسمح لي بالذهاب، إلا أن إغراء معرفة كيف تبدو تلك القاعة كان أمراً أكبر من أن أقاومه. ذهبت إلى الباب الخلفي لتلك البناية وتركت لوح التزلج الأصفر مثل إصبع موز تحت السلم وصعدت الدرج بمساعدة العكازين.

كانت المساحة العليا بالفعل حوض سباحة كبيرا فارغا، ووجدت بأعلى بعض الأولاد الذين تبدو عليهم الشراسة. لم أخشاهم لأنني كنت متأكداً أن جيمي يعرفهم جميعاً. تفقدت المكان بسرعة متظاهراً أنني لست غريباً عنه، إلا أنني لم أعثر على جيمي. أسرعت إلى السلم نازلاً وأنا أشعر بالزهو لإقدامي على تلك المخاطرة.

كانت قد بقيت خمس درجات فقط حين دارت بي الدنيا وأصابني دوار من ذلك الذي يصيب من يكتشف أن شيئاً ثميناً جداً يخصه لم يعد في موضعه الذي تركه فيه. كان لوح التزلج الذي تركته أسفل السلم قد اختفى.

سرت عائداً تسيطر على مشاعر تتراوح بين الإحساس بغبائي والإحساس بالخوف، فماذا أقول لأهلي؟ جافاني النوم تلك الليلة. لم أكن أطيق الانتظار حتى الصباح التالي حتى أقابل جيمي في المدرسة وأرى إن كان بإمكانه معاونتي.

وبمجرد أن رأيته في الصباح قلت له: "جيمي، زلاجتي سرقت مني، ذهبت إلى الحوض الفارغ لمدة دقيقة، وحين خرجت كانت الزلاقة قد اختفت".

قال جيمي : ''لا تبتئس، سأحضر لك زلاقة غيرها. ما اللون الذي تفضله؟ قلت له: " كلا، لا أريدك أن تسلب فرداً آخر زلاقته، أريد زلاقتي التي سرقت. أريدك أن تعرف من سلبها".

ولأني كنت أسكن في حي ''مترو'' في مدينة سان فرانسيسكو، وهو حي مزدحم، كنت أعرف أن احتمال استعادة زلاقتي ليس إلا احتمالا ضئيلاً جداً، إلا أن اتصالات جيمي كانت واسعة، وأذاع بين كل معارفه أن زلاقتي سرقت ولابد أن تعود، وظهر جيمي بعد يومين ومعه زلاقتي المسروقة، ولسعادتي باستعادتها، لم أهتم كثيراً بمعرفة من الذي سرقها ولا كيف سرقها.

البحث عن الذات

مع تقدمي في العمر، نصحني أبي نصيحة بدت مشحونة ببعض روح الدعابة عن كيفية التعامل مع الأولاد الذين يضايقونني في المدرسة، قال لي: ''أعتقد أنك تعرف كيف تستعمل عكازك''

نادراً ما أحتاج أن أضرب أحداً على ساقه بعكازاتي، إلا أنني أتذكر أنني فقدت صوابي مع ولد كان يضايقني في حصة الألعاب. كنت في ذلك الوقت أنتقل

على مقعد ذي عجلات. وذات مرة وأنا على المقعد كنت أضرب الكرة بالأرض وأعيدها، وجاء ذلك الولد من خلفي وراح يدفع المقعد، و لم تكن تلك هي المـرة الأولى التي يضايقني فيها، طلبت منه أن يكف، إلا أنه ضحك في اســتهزاء وراح يدفع المقعد. بلغ بي الضيق غايته فــضــربته بالكرة بقوة في وجهه فســـالت الدماء من أنفه. و لم يعاود مضايقتي بعد ذلك أبداً.

ومررت بمرحلة اتسمت فيها بالاندفاع والتشدد. سيطر علي في تلك المرحلة أن أظهر أنني شديد بالرغم من ضـآلة جسمي. لم أكن أتسامح مع أي إنســان. كنت أظهر لمن يضايقني أنه ليست هناك حدوداً أقف عندها في غضبي، لا يوجد "سقف" ثابت لردود أفعالي، كنت أرغب أن يعرف الأولاد الشرسون أن لــدي دائمــاً ما أظهره في المواجهات الشرسة.

حين كنت أخرج مع أصدقائي وأنا أقود السيارة، كنت أجلس محافظــاً على ذراعيّ إلى جانبي حتى لا يدرك الشباب الذين لا يعرفونني في الطريق أن ذراعي قصيرتان. لم أكن أحب العراك، إلا أنني لم أكن أتردد في الاشتباك والثــورة إذا سلك أحد سلوكــاً يزري بي أو يقلل من شأني.

اعتدت أن أخوض تلك المواقف وكــأنها رياضة أو لعبة، حتى أصبح علــى شفا التشابك، ثم أعمل على التهدئة والخروج من المشكلة دون أن أمضي بها إلى نهايتها، وكنت ماهراً جداً في السيطرة على تلك المواقف. كان لدي المقدرة علــى تصعيد المشكلة، ثم ألجــأ إلى روح المرح والدعابة - بالاستعانة أيضــاً بمظهري الضئيل - للخروج من المواجهة.

كنت أتغافل عن كوني قزما بقدر الإمكان، وأصعد المشاكل حتى تصل إلى شفا الاشتباك، ثم أتراجع وأعود إلى التعامل طبقــاً لحجمي، وألوح بعكــازي في وجه الخصم، وأدعه يدرك دون أن أتفوه بلفظ أني أثق تمامــاً بنفسي وبقــدرتي على التغلب عليه، حتى إن أصحابي الذين كانوا يراقبونني من السيارة يقولون لي بعد ذلك :"كنت مقنعــاً تمامــاً يا مات، حتى أننا اعتقدنــا أن بــإمكانك

التغلب عليه من فرط ثقتك بنفسك''، وكانت أغلب تلك المواقف تنتهي بـــأن نستغرق أنا وخصمي في الضحك من المواجهة التي كانت على وشك الحـــدوث بينـــنـــا.

واحدة من أشهر تلك المواجهات التي لا أنساها وقعت في متجـــر ٧-١١ بالخليج. كنت أقود السيارة ومعي اثنان من أصحابي، وقررنـــا التوقف لشـــراء بعض المثلجات. أوقفت السيارة في منطقة مخصصة للوقوف، انتظرت بالســـيارة فيمـــا دخل صديقاي إلى المتجر لشراء مياه غازية مثلجة. لم ألحـــظ أن ســـيارة أخرى توقفت إلى جواري. كنت أجلس وفكري شارد فلم أنتبه إلى أن أنظـــر في اتجاه سائق السيارة المجاورة. كان الطقس بديعـــاً فأبقيت النوافذ مفتوحة، لم أكن أركز على شيء محدد حين فوجئت بســـائق السيارة الأخرى يسألني في خشـونة: "فيم تحملق؟". لم أكن أحملق في أي شيء. إلا أنني لم أتمكن من مقاومة إغـــراء الموقف، كنت كصائد سمك بدأت سمكة تعلق في سنارته، وحين تغمز الســـنارة لابد لك أن تجذب. قلت له : "أحملق فيك''.

كنت موقـــناً أن ذلك الفتى لم يكن يرى في من مكانه إلا فتى ضئيل الحجـــم ووقحا ويحتاج إلى علقة. كانت ذراعاي إلى جواري فلم يظهر قصرهمـــا، ولذلك لم يدرك أن هناك أي شيء غير طبيعي. صاح: ''أيها التافه الصغـــير، ســـألقنك درســـاً''. غردت في داخلي طربـــا، لقد وقع في سنارتي ووقع في فخـــي. ثبـــت نظراتي باتجاهه وقلت بـــأقصى قدر من الثبـــات: ''إذا خرجـــت إليـــك مـــن السيارة فستندم ندم عمرك" كان أوان تراجع الفتى عن هذا التحدي قد فـــات. فتح باب سيارته وترجل. وفعلت مثله وجذبت عكازاتى معي، واستدرت حـول السيارة متجهـــاً إليه وحين رآني اتسعت عيناه حتى أصبحت كل عين في حجـــم الدولار المعدني.

كنت أدرك أنني أوقعته في فخي. أراد الانسحاب من الموقف وكنـــت أرى ذلك في نظراته. كان يوقن أن ضربه لقزم يستند على عكازات لا يضفي عليـه أي

شرف. كان يبحث عن مخرج ملائم من ذلك الموقف. راح يرفع ذراعيه إلى أعلى كـأنه يستسلم قائلا: "أنت محق، أنت محق، أنا آسف" وراح يتراجع مبتعدا.

قلت وأنا أكتم الضحك داخلي بصعوبة: "أنت محظوظ لأني سـأتركك هذه المرة. ولكن خذ بالك من نفسك من الآن".

وأنا سعيد أن أسجل هنا أنني نميت هذا النوع من السلوك. كنت أعرف أنها ليست فكرة سديدة أن أسعى إلى المواجهات والاشتباكات، وأنا على يقين أن أغلب الناس لن يغامروا بالاشتباك بي في عراك. وأشعر بامتنان لأنني لم أصب بسوء أبدا نتيجة لتلك المواقف. واليوم، أصبح الناس يطلقون النار في مشاجرات أتفه كثيرا من تلك التي كنت أفتعلها.

كنت قد بدأت أتصف بالعدوانية حين كنت بالمدرسة، ولحسن الحظ وجدت مخرجا بناء وإيجابيا. كان مخرجا وهبني ذكريات رائعة وأضفى على صفات رياضية.

النجاح في المصارعة

قد يندهش أغلب الناس حين يقرءون ذلك. إلا أن الرياضة والألعاب من الممكن أن تكون جانبا هاما جدا من حياة المرء. أنا لا أتحدث عن كوني متفرجا، ولكني أتحدث كطرف ممارس. بالطبع كانت هناك حدود لما يمكنني القيام به كرياضي، إلا أنني وجدت طريقي إلى ممارسة الرياضة في المدرسة العليا.

اشتركت في رياضات كثيرة للمعاقين، بما فيها المسابقة السنوية لمباريات كرة القدم بالكراسي المتحركة على مستوى المدارس العليا في المنطقة. كانت توجد فرق كثيرة في منطقة الخليج، تقريبا فريق لكل ثلاث مدارس عليا من المعاقين بها. كنا نتبارى في ملاعب التنس أو في قاعة رياضة ونحولها إلى مناسبة احتفالية كبيرة ندعوا إليها الفرق الموسيقية والإذاعة المحلية.

اشتركت أيضـــا في فرق الانزلاق على الجليد، وأجدت الانـــزلاق تمامـــا. كنت مرنـــا وسريعا، وأظهرت قدرا كبيرا من الشـــجاعة في الطـــيران فـــوق المنحدرات والمتزلقات المفاجئة. بدأت التزلج على الجليد حين التحقت بالمدرســـة العليا، بعد أن أخذنا والدي للتزلج لأول مرة في حياتنا. عشقت التزلج، واشتركت في مسابقات كثيرة للمعاقين.

اشتركت بعد ذلك في منافسات المصارعة للمدارس العليا.

كانت المصارعة رياضة عظيمة لأي امرئ ضئيل الحجم، ومن المعـروف في المصارعة أنك تتصارع مع لاعب آخر في حجمك، لأنها تعتمد على الأوزان في تصنيف المسابقات. كنت أتصارع مع آخرين في نفس وزني.

خضت المنافسات على مدى أربع سنوات ضمن فريق "كرســـت مـــور" الثانوية العليا في سان فرانسيسكو. كان أدائي مرتفعـــا طول تلك الســـنوات. لم أكن بالطبع من فلتات الزمن، إلا أنني كونت سجلا حافلا بالانتصارات فقـــد كنت بطلا للمنطقة على مدى عامين. ثم أبليت بلاء حسنـــا في مســـابقات الولاية. لم أكن أبدا خصمـــا سهل المنال. كنت أصارع في وزن خمسة وتسعين رطلا، و لم يكن هناك مصارعون كثيرون في هذا الوزن، وكسبت من المنافســـات أكثر مما خسرت.

كنت أتفوق على الخصوم بميزة خاصة بي، وهي قوة الجزء الأعلـــى مـــن جسمي نتيجة سيرى بالعكازات. كما كان مركز الجاذبية في جسمي أقرب إلى الأرض، وكان قصر ساقاي يصعب الأمر على الخصم في إلقائي أرضـــا. كنـــت بمجرد أن أصافح الخصم في بداية التباري أجثو على ركبتي وأهجم على ســـاقيه. أحيانـــا كان الخصم يلتف حولي ويطرحني أرضـــا من الخلف، إلا أنني كنت قد اعتدت على التملص وعكس الوضع بسبب قوة الجزء العلوي من بدني.

بمرور الوقت، ذاعت شهرتي، وأصبح المدربون في منطقتي يعرفون حيلـــي في المباريات، وكان مدربو خصومي يعدون الخطط لمواجهة تلك الحيـــل. كـــانوا

يشددون التعليمات لمصارعيهم بأن يلتفوا بسرعة خلفي بمجرد أن أجثو على ركبتي، ويفوزون بنقطتين حين يطرحونني أرضا، ثم يتركونني قبل أن أتملص وأعكس الوضع.

كانت المصارعة مصدر ذكريات كثيرة عزيزة على نفسي. من أعز تلك الذكريات المباراة التي لعبتها وأنا حديث عهد بالمدرسة العليا ضد "توني باجنورال"، وكان قزما بالمدرسة. كان توني، وهو مازال صديقا لي حتى اليوم، يلعب ضمن وزن أثقل من وزني في مدرسة ''أورجان'' العليا. كان وزنه يزيد عن وزني بخمسة أرطال - وحين يكون وزني أقل من مائة رطل، فإن الخمسة أرطال تصبح فارقا ملحوظا – وأراد مدربي وأصدقاء الفريق أن أصارع توني. أنا نفسي رغبت في مصارعته. لم يهمني في ذلك اليوم أن ينظر أي أحد إلى المباراة على أنها استعراض جانبي. كل ما أردته هو أن أجرب كيف يمكن أن يكون أدائي أمام قزم آخر.

لم أكن مصارعا أفضل من توني. كان أكبر مني حجما وأطول قامة إلا أنها كانت مباراة عظيمة. طرحني أرضا أغلب وقت الجولة الأولى. ولكن بطريقة ما استطعت أن أعكس الوضع، وأن أثبت كتفيه على بساط اللعب. مازلت أتذكر كيف اشتعل حماس المتفرجين في قاعة ألعاب مدرسة "كرست مور". كانت تلك المباراة مدار حديث أسبوع كامل بين تلاميذ منطقة خليج سان فرانسيسكو عن القزمين المتصارعين.

مازالت ذكرى تلك المباراة من بين الذكريات المشهودة من أيام الدراسة. كانت تلك السنوات هي التي مهدت طريقي إلى "العالم الحقيقي" ، الأيام التي تعلمت فيها أن أتكيف مع الحياة بعيدا عن الأمان والحماية التي تضفيها على أسرتي في منزل ''رولوف''. كانت أياما مبهجة، وأيام تحديات، ومليئة بالذكريات. لقد كانت الأيام التي بدأت أتبين فيها أنه حتى كقزم يمكنني أن أحقق الكثير.



(٧)

بداية اقتحامي لعالم العمل

نصحني أبي حين هممت أن أبدأ حياتي العملية وأنا شاب في العقد الثاني من عمري، وقد كانت نصيحة لا تقدر بثمن. قال لي: "مات، عليك أن تتعلم كيف تستخدم عقلك لكسب عيشك. لن تستطيع أن تعمل في مطاعم ماكدونالد كباقي جيلك".

وكان أبي على حق. كان من الواضح بداية أنه ليس بإمكاني أن أؤدي أبسط المهام التي يؤديها الشباب في حياقم العملية.

لم يكن بإمكاني مثلاً العمل في محلات بيع الوجبات السريعة لأنني قصير جداً ولن أتمكن من رؤية الزبائن أمام طاولة البيع ولا أمام المشويات. ولا أستطيع أيضاً أن أعمل في محال البقالة لأنني لن أتمكن من الوصول إلى الأرفف العليا (مازلت أطلب العون حين أكون بمتجر أنا وزوجتي).

كان من الثابت أنني أعاني من محدودات بدنية تمنعني من أداء مهام معينة. وكان والداي يعرفان ذلك، وقدرت لهما إحساسهما الواقعي حين تحدثا إلى والى اخوتي عما يمكننا عمله. علمانا ألا نسمح للإعاقة أن تمنعنا من الاستمتاع بحياتنا. لم يخاطبانا كأطفال ولم يزرعا في أنفسنا أحلاماً غير واقعية أو أهدافاً لا يمكن تحقيقها.

علمانا أن هناك جوانب في الحياة لابد أن يكون لنا فيه مهارات، وأنه يمكننا أن نحيا حياة ناجحة إذا وظفنا تلك المهارات في الوظائف التي تتطلبها.

كنت مصابـــاً بمحدودية بدنية شديدة، إلا أنني كنت أمتلك إمكانية تطويـــر قدراتي الذهنية والعقلية وتنمية شخصيتي.

كل ما خضته بسبب حالتي البدنية صاغني وحولني إلى إنسان يثق في قدراتـــه على تحقيق أهدافه، حتى لو استدعى ذلك الاستعانة بالآخرين.

المـــحرض

كانت أمي تحكى لمن تعرفهم كيف أنني كنت قبل سن الثالثة من أفضـــــل وأهدأ الأطفال الذين يتمناهم أي أبوين. كنت أتميز بنظرة بريئـــة وأنـــا صغـــير. ولذلك تم اختيار صورتي التي تبرز تلك النظرة البريئة كصورة ملصق تذكـــاري للمسابقة الشرقية الغربية لكرة القدم في كاليفورنيـــا.

كان الملصق يصورني وأنا جالس في مهد صغير وفى عيني نظـــرة كـــأنها تساؤل: "ألا تساعدني؟" بعد ذلك، بالرغم من التغيرات التي طرأت على لم أتحول وأصبح مثيراً للمشـــاكل و لم أسبب أي مشاكل لأبوي ولا لمدرسي ولا لهيئـــة العاملين بالمستشفيات. إلا أنني اكتسبت صفة الحدة، وهى صفة مكنتني من دفـــع الأمور قـــدمـــاً للأمام، وأعانتني على أن أؤثر في الناس. كـــان لـــدي دائمـــاً شخصية ديناميكية. كنت في كل لحظة أعمل شيئـــاً، واستجاب الناس إلى ذلـــك الدافع بصورة طيبة.

كنت أيضـــاً مـــتفـــرداً بوسائلي، لم تعوزني الأفكار أبداً لعمل مـــا أود عمله.

وأنا أعرف أن هذا الجانب من شخصيتي لم يظهر إلا بسبب أزمتي.

كان ذلك تعويضـــاً عن العجز البدني.

أيقنت أنني لو كنت خجولاً لكنت قد قضيت جل وقتي مترويـــاً في أحـــد الأركان.

إلا أن شيئـــاً داخليـــاً كان يدفعني على الدوام منذ أن تكون وعى إلى إدراك أنني لابد أن أقاوم أي ميل تربي للانزواء، أيقنت أنني لابد أن أكون قوى الشخصية، وأن أكون منفتحـــاً على العالم

.. هذا أن كان على أن أخوض غمار الحياة.

كانت شخصيتي قيادية بين أترابي في المستشفى، كنت أؤثر عليـــهم حـــتى يتعاونوا معي. ولو كان هناك ما نود عمله، كنت أملك المقدرة على تنظيمــهم حتى نعمل ما نود ودون الوقوع في مشاكل مع هيئة المستشفى.

كنت أيضـــاً طفلاً لا يفلت فرصه القيام بمغامرة.

حرضنـــا طفل على الخروج من المستشفى وأن نذهب بكراسينا المتحركـــة إلى المتجر الذي يبعد عن المستشفى ببضع بنايات. كنت في رداء من الجبس في ذلك الوقت، و لم أستطع مقاومة القيام بتلك المغامرة. كنا قد انتهينا من مسابقة ساخنة بالكراسي عبر الممرات ومازالت الرغبة قوية لاصطحاب رفاقي إلى تلك المغـامرة. وبمساعدة من داخل المستشفى (لن أبوح باسم من ساعدنا) حصلنا على مفتـــاح الباب الخلفي وخرجنـــا.

ذهبنا إلى المتجر وعدنا، إلا أننا لم نعد إلا بعد أن كانت إحدى الممرضات قد أكتشف فرارنا.

و لم يعجب إدارة المستشفى خروجنا بتلك الطريقة. ووضعـــوا تحذيـــراً في سجلي بأنني لو كررت ذلك سأتعرض لعواقب وخيمة، وبعيداً عـــــن جهامـــة الرسميات، قالت إحدى الممرضات لأمي أنها سعيدة لأننا نسلك سلوكـــاً ممـــاثلاً للأطفال الطبيعيين.

لم تكن كل سلوكياتي بالمستشفى مفجعة. فقد تعلمت أنه من الأفضـــل في أحيان كثيرة أن ألتزم النظام واللوائح للحصول على ما أريد أنا ورفاقي. وجدنا أنه من الممتع أن تكون لنا غرفة نلهو بها ونفعل ما نريد بعيداً عن قاعـــات الإقامـــة والقاعات الرسمية. فكتبت خطابـــاً إلى إدارة المستشفى واقـــترحت عليـــهم أن يخصصوا غرفة لكبار الأطفال يستخدمونها للعب والترفيه.

ووافقت الإدارة، و لم يمض وقت طويل حتى كان لدينا غرفة أسميناها "قاعـــة العقد الثاني من العمر"، كان بها مقاعد وطاولة نلعب عليها الشطرنج والعـــــاب النرد ونستمع فيها إلى الموسيقى.

كنت أحرص وأسعى باتجاه أشياء لا تسبب مشاكل للممرضات ولا للإدارة. كل ما كنت أسعى إليه هو أن أجعل الحياة أكثر إثارة وبهجة وراحة لي ولرفاقي الأطفال.

حين كان يرد إلى ذهني شيء ما نفعله، كان يبدو لي أنه من الطبيعي أن نفعله وكان لدي الوسائل لفعل ذلك في البيت أيضاً كانت أمي تحرص على أن نظل بقرب البيت حتى نبقى تحت بصرها وتضمن سلامتنا. كنت أنا وأشقائي متحابين، وكنا نحب أن نقضي وقتاً ممتعاً. ولحسن الحظ، كان أطفال الجوار يأتون ويقضون أوقاتهم معنا، كان فناؤنا الخلفي يعج على الدوام بالأطفال، ولم تعوزني القدرة أبداً على ابتداع مشاريع اللعب.

كنا نبني قلاعاً وحصوناً، ونقيم احتفالات، ونلعب لعبة الحرب ولعبة الاستخفاء، وكل ما يجلب البهجة إلى نفوسنا.

ذات صيف، شيد لنا أبي بيتاً صغيراً للعب. كان جميلاً. كانت مساحته ثمانية أقدام في ستة عشر قدماً، وكان يعد كبيراً قياساً على ما يقام في الأفنية الخلفية. وكانت لعبتي المفضلة لعبة الاستكشاف. وجاءتني الفكرة من مشاهدة مسلسل أبطال هوجان في التلفاز. رحنا يوماً بعد يوم نحفر نفقاً تحت بيت اللعب. وذات يوم جاءت أمي إلى الفناء الخلفي لتفقدنا فوجدت أننا حفرنا حفرة يبلغ عمقها ستة أقدام. وأرعبها ذلك إذ خشيت أن تنهار جوانب الحفرة علينا ونحن بداخلها (كان ذلك يمكن أن يقع بالفعل) وانزعج أبي خشية أن تمتلئ الحفرة بالمياه. ولم يمض وقت طويل حتى كان مشروع الهرب عن طريق نفق قد تم إغلاقه.

روح المقاولين

لم أكن أنتمي إلى ما يمكن أن يطلق عليه أي أحد مجتمع الوفرة. كان أبي يتكسب ما يكفي لأن نعيش بلا عنت أو معاناة. لم يكن يرى في المال إلا أداة يستعملها للعناية بأسرته، إلا أنه ليس قيمة مسيطرة على حياته وأنا أحذو

حذوه الآن. فـــأنا أحيا حياة مريحة عن طريق بيع برامج الحاسب الآلي، إلا أنـــني لست ممن يعدون أغنياء.

لم أهتم أبداً أن أكون غنيـــاً. كنت دائمـــاً مغامراً فيما يخـــص الكســـب الشريف و لم أتقاعس عن بذل أي جهد.

وحتى في السن التي لا يفكر فيها الأطفال في العمل كنت أنا أفكر في وســـائل أكسب منها بعض المال.

حين كنت في الثانية عشر من عمري، أدهشت أبي وأمي حين أخبرتهما أنـــني ذاهب لأبدأ أول عمل لي في حياتي. قلت لأمي : "أنا ذاهب في عمل أبيـــع فيـــه الصحف" وطلبت منها أن تقلني بسيارتها إلى مكان المقابلة. وافقت بالرغم من أنها لم تعتقد أنه يمكنني أن أعمل ببيع الصحف. كانت تؤمن أن لدي القـــدرة علـــى ذلك، إلا أنها لم تؤمن برد فعل رئيس التوزيع حين يرى أنني أقصر من أي طفـــل رآه.

دنوت من مدير التوزيع وحادثته لبرهة، وبينت له إصراري علـــى أن أنـــال فرصة العمل. أخبرته عن مدى ثقتي بنفسي وأنني أستطيع أن أؤدي العمل علـــى خير وجه، وســـأكون إضافة جديدة وهامة ورصيداً يضاف إلى العمل.

صدقني مدير التوزيع وأسند لي العمل، وخصني بمنطقة هامـــة أوزع فيـــها الصحف وكانت لا تبعد إلا بضعة بنايات عن بيتي.

كانت الصحيفة تصدر مرتين أسبوعيـــاً، وكانت وظيفتي أن أوزع الصحف وأجمع ثمنها. مرات كثيرة كان الناس ينظرون إلي ويشعرون بالأسف من أجلـــي، ولذلك كانوا يهبونني هبات إضافية، لم آبه كثيراً بالسبب الذي يجعلهم يـــهبونني تلك الزيادات، استمتعت فقط بالنقود الإضافية التي أكسبها.

كنت أكسب أيضـــاً بـــإقامة حفلات في الفناء الخلفي. أقمنا أنا وأخـــوى مقاعد وطاولات وألعاب عرائس متحركة. ظللت مستيقظـــاً طوال الليل وقـــد جافاني النوم أفكر في مشروع جديد للعرض القادم ومصادر المواد التي أستخدمها في العرض. وكان أطفال الجيران يـــأتون وينفقون قروشهم وعملاتهم الصغيرة في تلك الحفلات التي نقيمها.

وحتى قبل أن أتمكن من قيادة السيارات، بدأت عملي الخاص: وهو "خدمات مات لجمع العلب الفارغة..، كنت أجمع علب المشروبات من الصفيح الخفيف لإعادة تصنيعها وقمت بوضع براميل كبيرة في المناطق الصناعية ليضع فيها العاملون علب المشروبات الفارغة ثم آخذها وأسطحها بالاختراع الذي صممته.

باستخدام مجهود عضلي بسيط وقوة التخيل صممت طريقة لسحق العلب الفارغة لأتمكن من بيعها. كنت قد قمت أنا وصديقي بنقل كتلة أسمنتية ثقيلة إلى الفناء الخلفي، وصممنا نظاماً من البكرات والحبال لرفع الكتلة الأسمنتية. أرفع أنا الكتلة بجذب الحبال ويدفع صديقي العلب أسفلها باستخدام مكنسة ثم أتركها تهبط بقوة على العلب وتسحقها. ثم آخذها إلى المختص بتدوير المخلفات وإعادة استخدامها ونقبض ثمن ما وردناه.

استطعت أيضاً أنا وأخوى أن نستغل أزمة النفط التي وقعت آخر السبعينات لكسب بعض المال. حين كنا نتفرج على السائقين المصطفين بسياراتهم في صفوف طويلة تتحرك ببطء حتى يأتي دورها في الحصول على الوقود، كنا نلاحظ أن سائقي السيارات يفعلون ذلك في ضيق ونفاد صبر، وراودتني فكرة بيع مشروبات لهم أثناء فترة انتظارهم. طلبنا من صاحب محطة الوقود أن يسمح لنا بوضع طاولة بالقرب من محطته ونبيع عليها القهوة والمشروبات والصودا المثلجة وأقتنع بوجهة نظري ووافق على إقامة طاولة المشروبات دون طلب أي عمولة على مبيعاتنا.

أيضاً كسبت كثيراً من عملي في إصلاح السيارات مع أنني لا أحب أن أفعل ذلك الآن. اعتدت إصلاح السيارات - خاصة الفولكس فاجن - وكسبت من وراء ذلك نقوداً. جاء على وقت كانت تصطف فيه أمام المنزل سبع أو ثماني سيارات أعمل فيها في نفس الوقت. كانت بعض تلك السيارات لا تتميز كثيراً عن صفيحة القمامة وينقصها محرك وكل شيء، وكان غيرها يحتاج إلى بعض أجزاء للمحرك فقط، وبعد إصلاحها كنت أبيعها وأحصل على بعض الربح اليسير. في بعض المرات كنت أكسب ألف دولار في السيارة.

أصبحت في ذلك الوقت من الميكانيكيين المعروفين، اشتريت أطقماً من أدوات ومعدات العمل. وحين كنت في السادسة عشر من عمري، اشتريت سيارة

فولكس قديمة، وقمت بمساعدة صديقي "إريك جونز" بنقل المحرك واعتدت تركيبه بعد إصلاحه وبعناها وحققنا ربحاً. ومرة أخرى اشتريت سيارة قديمة ووهبتها لورشة الفصل بالمدرسة للتدريب على إصلاحها، وبعد أن أصلحوها بعتها وكسبت بعض المال. كانت خطتي أن أصل إلى اتفاقات تفيد كل الأطراف، وتحول ذلك تدريجياً ليصبح أهم رأس مال لدى.

إنجاز عظيم

أثناء الفصل الدراسي الثاني من المدرسة العليا، تلقيت دعوة لإلقاء حديث في نادى روتارى المنطقة. تحدثت في ذلك اللقاء عن تجربة من يحيا بإعاقة بدنية، وأنني مازلت أؤمن أنه يمكن أن يكون لي مستقبل لامع، بالرغم من مشاكلي البدنية. ولابد أن شيئاً ما بذلك الحديث كان مؤثراً، فبعد انتهائي من إلقاء الحديث اقترب مني رجل – سيكون له دور كبير في حياتي بعد ذلك – اسمه "لو كاربابن"، صاحب مجموعة محلات سيزر في منطقة خليج سان فرانسيسكو.

قال "لو" أنه تأثر بجديتي وموقفي من عجزي البدني. وحين هم بالمغادرة، ناولني بطاقته وقال لي: "إذا احتجت أي شيء اتصل بي".

وبالرغم من أني كنت أكتسب بعض النقود من بعض الأعمال المتقطعة، إلا أنني كنت أود أن يكون لي عمل منتظم. كنت بالصف الثاني من المدرسة العليا، وكان كل أصحابي يعملون في محلات الوجبات السريعة، والمتاجر، ومحطات الوقود، وفي كل الأعمال النمطية التي اعتاد الطلاب العمل فيها. وذات يوم، بعد لقائي ب"لو كاربابن" بعدة أسابيع، كنت أتحدث مع أمي عن محاولاتي للحصول على عمل. كنا نتحدث عن أنواع الأعمال التي يمكن لي أن أمارسها وتلك التي يصعب على أداؤها بسبب إعاقتي البدنية. وفجأة، تذكرت أمي اليوم الذي ألقيت فيه الحديث من بضعة أسابيع وقالت: "لماذا لا تتصل ب لو كاربابن؟ لقد قال لك لو احتجت أي شيء اتصل بي. ربما يستطيع مساعدتك"

واتصلت بـ لو، ودعاني لزيارته في مكتبه، وحين قابلته تحدثنا عن أنواع الأعمال التي يمكن لي أن أؤديها لشركة "سيزر"، وبعد تبادل الحديث لبعض

الوقت، حدثني عن وظيفة يعتقد أنها تناسبني تماماً، وهي وظيفة تلقى طلبات البيوت بالهاتف.

كانت وظيفة هائلة لي. أتاحت لي تلك الوظيفة أن أعمل عدد الساعات الذي أرغبه وبأجر أعلى كثيراً من أجور الوجبات السريعة أو المتاجر. كانت الوظيفة أن أتلقى طلبات الزبائن عبر الهاتف، وكنت أسجلها على الورق حين بدأت، ثم بدأت أسجلها على الحاسب الآلي ثم أرسلها إلى المختص بتجهيزها وإرسالها على العناوين المدونة. وحين يقل الطلب عبر الهاتف، كنت أقوم بما يطلق عليه "تنشيط السوق" أي الاتصال بالزبائن الذين تعاملوا معنا قبل ذلك وأعرض عليهم خدمات شركة سيزر من جديد. كانت تلك الوظيفة أول وظيفة حقيقية لي، وأضافت إلى حياتي قدراً لا بأس به من المتعة وشغل وقت الفراغ. كنت أذهب إلى المدرسة في الصباح، وأعمل في إصلاح السيارات القديمة في الظهيرة، ثم أذهب إلى إدارة "سيزر" وأبدأ في تلقى طلبات الهاتف.

لم تكن الوظيفة تلائمني فقط، بل كنت أنا أيضاً ملائماً للوظيفة، لم أحسن من إعاقتي البدنية فلم تكن تحول بيني وبين إتقان ذلك العمل الذي كان ينحصر في تلقى الطلبات بالهاتف ولا يتطلب ذلك غير الحديث بأدب واحتراف مع العملاء، و لم يكن ذلك يشكل أي مشكلة لي، فقد كانت إحدى مواهبي إدارة الحوار مع أي امرئ لا أعرفه، وجعلني ذلك محبوباً جداً من العملاء. كانت الوظيفة ملائمة أيضاً لأنها كانت بمثابة إعداد جيد لي للعمل الذي سأعمله بعد ذلك. كان ذلك أول تعامل حقيقي لي مع الحاسب الآلي، وستتضح أهميته بعد انتقالي إلى العمل الذي سيصبح مهنتي الحقيقية.

-٨-

تحقيق الذات في عالم الواقع

كنت مثل كثير من الخريجين حين أنهيت دراستي بمدرسة "كرست مـــــور" العليا في ربيع عام ١٩٨٠ وفى يدي شهادة الدبلوم : فلم أكن أعرف ما الـذي أريده. كنت ممتازاً في ميكانيكا السيارات، وفى أعمال الأخشاب والمعــــادن، إلا أنني لم أتخصص في أي علم أكاديمي في المدرسة العليا، و لم تكن لدي خطط حقيقيـة للالتحاق بالتعليم الجامعي.

تلك المرحلة هي مرحلة الشدة في حياة أي طالب في سن الثامنة عشر أنهـــى لتوه المدرسة العليا. إنها المرحلة التي ينتهي فيها الشاب من التعليم – إذا لم يكـــن ينوى إكمال دراسة جامعية – ليشق طريقه العملي في عالم لم يعتـــده، عـــالم لا

يهتم إن كان يستطيع تحقيق ذاته أم لا، عالم كان الآباء يحمونهم من غلوائه حتى ذلك السن. وبعدها يبدؤون في مواجهة عالم الواقع، العالم الحقيقي، والذي يمكن أن يكون قد أخفى لهم أحداثاً قاسية.

لامرئ في مثل حالتي، كان لابد لعالم الواقع أن يكون قاسياً عليه وفى الحقيقة، كان لأبى الفضل الذي جعل ذلك الواقع لا يشكل لي مفاجأة قاسية. لقد نصحني بأنني أحتاج أكثر إلى استخدام عقلي لا بدني لو كنت أريد النجاح في الحياة العملية. كنت على يقين أن هناك أعمالاً من المستحيل أن أقوم بها لكسب قوتي. كل الأعمال التي يطلق عليها أعمال الياقات الزرقاء - أعمال التشييد والبناء والمخازن وما شابه ذلك - كانت خارج نطاق حساباتي وفى الوقت نفسه لم أكن ساذجاً، فقد كنت أعرف أن بعض أصحاب الأعمال يمكن أن يلقوا على نظرة خاطفة ثم يتجاهلونني تماماً ولا ينظرون بجدية في أمر تشغيلي لديهم.

وكنت أعرف أن على أن أجعلهم يدركون مدى قدراتي قبل أن يصلوا إلى حد التجاهل. كنت أوقن أن الأمور لن تمضى ببساطة. كان أبي وأمي قد رسخا في ذهني أن هناك شيئاً ما ملائماً لي في مكان ما، مكانه ووظيفة من الممكن أن أتميز فيها. قالوا لي كثيراً أن لدي من المهارات ما يؤهلني أن أكون مدير شركة، بل حتى سيناتور لو أردت. كانا يحثانني على التركيز في الدراسة فقد تتاح لي فرصة للالتحاق بكلية الحقوق.

وبعكس خريجي هذه الأيام، لم أكن حين أنهيت الدراسة بالمدرسة العليا قلقاً فيما يخص إيجاد فرصة عمل. لقد كنت أعمل قبل التخرج على مدى سنوات، وبشكل ما كان لدي يقين أن فرص العمل لن تختفي. كنت على الدوام أعمل قبل التخرج وأكسب مالاً، ودائماً كان جيبي يحتوى على نقود، وكنت أعرف أن ذلك يختلف عن كسب عيشي عن طريق وظيفة منتظمة، أدفع من راتبي إيجار مسكن، وأشترى طعامي بعيداً عن شبكة الحماية الأبوية. وشعرت أنني قوي بما يكفى لمواجهة هزات الحياة وتقلباتها دون مساعدة أبي وأمي، ولم أنتظر طويلاً بعد التخرج حتى انتقلت إلى مسكن خاص بي.

لم أكن محاصراً بفكرة الحصول على وظيفة بعد أن أنهيت دراستي بالمدرسة العليا. كل ما أردته وظيفة معقولة لدفع إيجار مسكني، وأن أجد معي تكلفة نفقات سيارتي، وأن أحظى ببعض المتعة بصحبة أصدقائي. وحيث أنني لم ألتحق بالجامعة، فقد كان ذلك هو الوقت الملائم لاقتحام مجال العمل.

التأقلم مع البرنامج

لم يخطر بذهني أبداً في ذلك الوقت أن مهنتي ستكون في مجال الحاسب الآلي. كانت قد تكونت لدي خبرة بسيطة حين كنت أعمل على الحاسب الآلي في شركة "سيزر". كنت أعلم أن العمل على الحاسب الآلي يتطلب مهارات ذهنية، وقد كنت أتمتع بمهارات عقلية وذهنية عالية.

دخلت إلى عالم الحاسب الآلي بعد أن اتصلت أمي – وكانت تشعر بأني خذلتها لعدم مواصلتي تعليمي الجامعي، هذا بالإضافة إلى عدم اهتمامي بالحصول على شهادة دراسة القانون – اتصلت بصديق قديم من معارفها اسمه "بيل ستيفنز". كان بيل قد أنشأ شركة في سان جوزيه أسماها الأنظمة الثلاثية، وبعد أن اتصلت به أمي، طلبت مني أن أهاتفه للحصول على وظيفة عنده.

ونجحت بالفعل في الحصول على الوظيفة بعد المقابلة الشخصية. وعملت في قسم تجميع لوحات الحاسب الآلي لمدة ستة أشهر.

إلا أن شخصاً آخر عرض على مغامرة جديدة.

هوليوود

كنت أعرف بعض الأقزام الأعضاء في جمعية أقزام أمريكا وظهروا في أفلام سينمائية في بعض الأدوار، وتلقيت مكالمة من واحد منهم يسألني أن كنت أقبل أن أؤدي بعض المشاهد في السينما.

وحتى أكون صادقـــاً أذكر أن ذلك بدا لي عرضـــاً مغريـــاً ورائعـــاً.

إلا أن ذلك كان يستدعى في حالة قبوله اتخاذ قرارات صعبة.

فكرت في تقديم طلب إلى الشركة للحصول على إجازة، ولكنى لم أكن قـــد أمضيت بها إلا فترة قصيرة و لم يكن طلب إجازة يليق بعد العمل لفترة قصـــيرة، لذلك قدمت استقالتي.

توجهت إلى لوس أنجلوس عام ١٩٨١ للعمل في فيلم سينمائي كان اسمـــه "تحت قوس قزح" يؤدى أدواره "تشيفى تشيز" و"كارى فيشر"، كان موضـــوع الفيلم هزليـــاً تعود أحداثه إلى عام ١٩٣٨ وتدور حول أعمال سحرية. كان لي دور جيد في الفيلم (في حالة الحاجة إلى إضافة مشاهد)، إلا أن أغلب المشاهد التي أديتها تم حذفها في غرفة المونتاج. لم أهتم بذلك كثيراً فقد كنت أدرك أن التمثيـــل ليس هدف حياتي. لم يكن يعنى لي أكثر من تجربة ممتعة.

لم تسعد أمي بتركي للوظيفة التي حصلت عليها في شركة الحاســـب الآلي. بالنسبة لامرأة ناضجة مثل أمي عاشت في "عالم الواقع" لسنوات طويلة، فإنها ترى أنه من الغباء أن أترك وظيفة جيدة وتحمل احتمالات التطـــور إلى وضـــع أكـــبر وأفضل، أما أنا، فقد اعتقدت أن ظهوري في فيلم هو في حد ذاته شيء رائع قـــد يحملني إلى أعلى.

حين أتذكر ذلك الآن، أجد أن ذلك الانتقال لم يكن عمليـــاً بأي حال، إلا أن كل ذلك أصبح مجرد ذكريات عزيزة. وأدى ذلك إلى ظهوري في أفلام أخـــرى بعد ذلك بزمن.

عملت في بعض الأفلام – للسينما والتليفزيون – وكان العمـــل في مجـــال السينما مثيراً جداً. و لم تمنحني حياتي الفنية القصيرة إلا كثيرا من الذكريات الجميلة. ظهرت مع كثير من النجوم المعروفين مثل "ويلفورد بريملى" و"تشيفى تشـــيز"، و"فال كيلمر" و"كارى فيشر"، و"هاريسون فورد".

كان هناك أقزام كثيرون شقوا طريقهم في عالم السينما، إلا أنه كانت توجد في الأغلب الأعم قيود خطيرة تحكم عمل الأقزام في السينما وكــانت مصــدر الشكوى المتكررة للأقزام.

فالأقزام غالبــاً ما يظهرون في الأفلام كأناس خبثــاء، أو مســحورين أو منتمين إلى عالم الجن الخبيث. ولكن الواقع أن من بين الأقزام أطباء، ومحامين ومهنا أخرى رفيعة. لابد لهوليوود أن تصور الأقزام بطريقة أكثر إيجابية واحتراما. كــان العمل الذي اعتقدت أنه سيدخلني إلى عالم الشهرة فيلمــاً اسمه "العودة مــن كوكب جيدي"، وهو الجزء الثالث من ثلاثية تحمل أسم "حرب الكواكب". ولا توجد أي وسيلة تعرفني بها في مشاهد الفيلم إذا لم أكن حاضراً معك أثناء العرض. لقد ظهرت وأنا أرتدي رداءاً سميكاً من الفرو جعلني أبدو مثل الدب تماماً في غابة قمر كوكب إندوز وكنت أؤدي دور أحد أبناء كوكب إيوك، كما لم يكتــب أسمي في مقدمة الفيلم بين أسماء الممثلين في حين تجــد أسمــاء "مــارك هــاميل" و"هاريسون فورد" و"كارى فيشر" و"بيلى دى ويليامز"، وتتعرف على صــوت "جيمس إيرل جونز"، إلا أنك لن تستطيع بين أحد سكان كوكب أيوك وآخــر غيره وقد كنت واحداً منهم.

أدى عملي في فيلم "العودة من كوكب جيدى" إلى ظهوري في حلقات أقــل شهرة للتليفزيون عن كوكب"إيوك" (في تلك الحلقات موهوا عكازاتى بــأن أظهروها كفروع تتدلى مني) . وبعد أن تزوجت، كان لي أنا وزوجتي دوراً صغيراً في الفيلم الاستعراضي "الصفصاف" الذي أنتج عام ١٩٨٨ وكان موضوعه يدور حول ساحر مبتدئ مطلوب منه أن يحمى طفــلاً صغيراً من جماعة سحرة أشرار.

كان من نجوم ذلك الفيلم "فال كيلمر"، وقام بالشخصية الرئيسية للســاحر الصغير قزم يدعى "وارويك دافيز"، وكان قد ظهر قبل ذلك في بضعة أيام. ومثــل أيضــاً في ذلك الفيلم "بيلى بارتى" القزم ومؤسس جمعية أقزام أمريكــا وكــان هو الآخر متمرســا بالعمل السينمائي.

عدت من لوس أنجلوس إلى منطقة خليج سان فرانسيسكو بعد انتهاء عملي في فيلم "تحت قوس قزح" ناوياً الحصول على عمل ثابت.

ولحسن حظي، كانت فرص العمل كثيرة بالمنطقة التي عرفت بعد ذلك واشتهرت باسم "وادي السيليكون". كان ذلك في بداية الثمانينيات، وكانت شركات الحاسب الآلي تستشري في المنطقة بسرعة كبيرة، وكان الاحتياج كبيراً وملحاً إلى عماله ماهرة - بما فيها مصممي البرامج ومصممي الدوائر - كانت الشركات توظف كثيرين بخبرة بسيطة وأحياناً بدون خبرة وتنظم لهم دورات تدريبية مدفوعة الأجر ثم تضعهم على خطوط الإنتاج أو في أقسام التصميم.

العودة إلى العمل الحقيقي

كنت أتحدث إلى أحد أصدقائي بعد فترة قصيرة من عودتي من لوس أنجلوس، ولسبب لا أتذكره، اقترح على أن ألتحق بمدرسة متخصصة لتعلم برامج الحاسب الآلي. كانت مدة الدورة التعليمية تسعة أشهر، وكانت تستلزم اجتياز الامتحان بدرجات عالية ووجدت كفيلاً وهو رجل يدعى "فلويد فام" وكان مؤسس ورئيس شركة تمسى "الشركة الوطنية للنظم المتقدمة".

لم يكلفني فقط السيد فلويد وزوجته "جيني"، بل دعياني للإقامة في شقة الضيافة التي تقع بالقرب من بيتهم في "سان جوزيه" أثناء فترة التدريب. وتحول ذلك العرض بعد ذلك ليصبح أحد أهم انتصاراتي.

وفى الحقيقة، لم يكن أدائي جيداً في مدرسة الحاسب الآلي: كنت أعاني من نفس المشكلة التي كنت أعاني منها في المدرسة العليا : وهى أنني لم أكن أعرف كيف يمكن أن أكون طالباً مجداً ومجتهداً.

ذات صباح وأنا خارج من شقة الضيافة متوجهاً إلى مركز دراسة الحاسب الآلي، رأيت السيد "فلويد" واقفاً بانتظار ما يقله إلى شركته بعد أن تعطلت

سيارته. توقفت أمامه بسيارتي الفولكس فاجن واصطحبته لتوصيله إلى عمله، وأثناء الطريق تبادلنا الحديث عن مجالات العمل بالحاسب الآلي. كانت تلك أول مرة أتبادل معه فيها حديثاً مطولاً وتحول ليصبح أهم حوار تبادلته مع أحد في حياتي.

عندما وصلنا إلى مكتب "فلويد" في شركته "الوطنية للنظم المتقدمة"، عرض على أن أدخل معه، واصطحبني إلى قسم شئون الأفراد، لمقابلة المسئول، قابلتني سيدة وسألتني عن العمل الذي أحبه وأجيده، ومتى أحب أن أبدأه. وقبل أن أفيق إلى نفسي، كان قد تم تعييني كمصمم برامج مبتدئ بالشركة.

كانت وظيفة مصمم مبتدئ هي أدنى درجات ذلك التخصص، وبسرعة اكتسبت خبرة المصممين القدامى الذين احتضنوني وعلموني الكثير من البرمجة وما يتعلق بها من سياسات وأنظمة ووظائف.

ولا أعرف أن كان هناك من يمكن أن نطلق عليه أنه إنسان ذو "طبيعة برمجية"، إلا أنه يبدو أن ذلك ما حدث لي بمجرد أن انتهيت من أساسيات التعليم. لم أنل تعليماً نظامياً، إلا أنني اكتشفت أن لدي القدرة على التوصل إلى حلول ذهنية والى التوصل إلى مفاهيم وتصورات ذهنية لكثير من المشاكل المعقدة.

ومازلت أحتفظ بذكريات عظيمة عن النصف الأول لعام ١٩٨٠ كان نصف العام ذلك منعطفا هاما من منعطفات حياتي فقد بدأت فيه أضع إقدامي على أعتاب مهنة عظيمة وحرفة أحترفها باقي عمري. إلا أنه كانت هناك أيضاً أوقات عصيبة مرت على فيها أصعب التجارب التي خضتها في حياتي - وكنت أنا سبباً في مروري بتلك التجارب العصيبة.

وقت التعلم

أرى أنني أكون مقصراً إذا لم أخبركم بأن حياتي لم تخل من عثرات خطيرة بما فيها تلك العثرات التي جلبتها أنا إلى نفسي.

لقد ارتكبت بعض الأخطاء في مسار حياتي. أحد تلك الأخطاء أنني بدأت أتعاطى المخدرات لفترة من الزمن.

بدأت أدخن مخدرات لم أكن بحاجة إلى تعاطيها، ثم تدرجت من المخدرات إلى عقاقير أكثر خطراً حتى الكوكايين. لم أتعاط المخدرات والعقاقير المخدرة لميول تأملية أو تحت ضغوط نفسية تدفعني إلى الهروب من عالم الواقع. كل ما في الأمر أنني أحببت أن أجرب أشياء مختلفة في الحياة وكنت من الغباء بحيث انزلقت أكثر وأعمق. كانت المخدرات في بداية الثمانينيات شائعة ومتوفرة ومتاحة دون عناء، خاصة في مكان يموج بالأموال والثروات مثل وادي السيليكون.

كانت أمي قد اعتادت المرور على شقتي التي أقيم بها من وقت لآخر لتتأكد وتطمئن إلى توفير طعام كاف في ثلاجتي لم تعرف أمي على وجه اليقين أنني أتعاطى مخدرات ولكنني أشعر أنه كان لديها شكوك. مازلت أتذكرها تقول لي: "عيناك عائمتان منذ فترة، فماذا يحدث لك؟" ويتلو ذلك نظرات القلق التي تظهر في عينيها، وكنت أطمئنها قائلاً لها أنني بخير وأنني فقط لم أنل قسطاً كافياً من النوم.

كانت تود مساعدتي، إلا أنها كانت على يقين أنني أدبر كل أموري بنفسي. وعرفت فيما بعد أنها كانت تقضي ساعات طويلة تصلي من أجلي.

لم يخطر بذهني أبداً أنه سيأتي على حين من الدهر أكون فيه ضمن من يتعاطون المخدرات، إلا أنه حدث. ظننت في البداية أنني سأجربها ثم أقلع عنها، إلا أنني كنت مخطئاً فقد أمسكت بي وأوقعتني في براثنها كما يمسك الفخ بالدب. وعلى وجه التقريب لم أستطع الفرار من ذلك الفخ.

لم أفقد طبعـــاً أي وظيفة بسبب المخدرات، إلا أنها كانت سببـــاً في وقوعي في أخطاء ومشاكل أثناء العمل كما أوقعتني في براثن ديون مالية ثقيلة وعدا ذلـك كنت أدرك مدى خطورتها على صحتي مازلت أذكر بضع مرات كنت أتعــاطى فيها جرعات كبيرة، وكيف كان قلبي يوشك على القفز من موضعه وكـــــأنه يشق ضلوعي.

لا أعرف طبعـــاً إن كان للمخدرات تأثير أكبر على كقزم أم لا، إلا أن مـــا كنت على يقين منه أنني أخاطر مخاطرة كبرى بتعاطيها.

بعد عام أو عامين من إقلاعي عن تعاطى المخدرات، مات نجم كرة السلة في جامعة ميريلاند "لين بياز" بسبب جرعة كوكايين زائدة. لقد كـــان مـــأساة حقيقية أن يموت شاب في مثل روعته بتلك الوسيلة، وشعرت بامتنـــان وســعادة داخلية أنني لم ألق المصير نفسه.

أدرك أنني أضعت كثيراً من الوقت، وكثيرا من الطاقة والجهد، وثروة ماليــة على ذلك الإدمان اللعين. وأهم من ذلك، كنت أعلم أن الله غير راض عني. لقــد وهبني الله كثيرا من النعم– وظيفة جيدة، ومسكنا، وأصدقاء – وهاأنذا أطيـــح بكل تلك النعم بترقي وأفسدها.

أردت أن أقلع عن تعاطى المخدرات، إلا أنني لم أتمكن، كنت ألجـأ في بعض الأحيان إلى قراءة الكتاب المقدس ليمدني ببعض القوة الروحية والحكمة. ووجدت آيات في سفر الرومان تتحدث عن البشر الذين يـــأتون بـــأشياء وهم لا يحبـــون إتيانها (سفر الرومان،٧) ســـألت ربى، ما هذا الذي أفعله؟ لم أكن أريد أن أظـــل على تلك الحال، لماذا وصلت إلى ذلك الدرك الأسفل؟ كنت أصلى لأستمد قـــوة تعينني على الامتناع عن تعاطى المخدرات، وأتمكن من الامتناع لبضعة أيام، ثم لا أعرف كيف كنت أجد نفسي وقد عدت إلى التعاطي من جديد.

والآن، أشعر بسعادة غامرة لأنني استطعت التوقف والامتناع قبل أن تحدث المخدرات تلفاً مستديماً لعقلي أو بدني. لم تكن معجزة ضخمة أن أخرج من أزمة الإدمان، فقد عملت على إحلال أشياء أخرى مكان الإدمان.

توقفت عن تعاطى المخدرات وعن الاختلاط بمن يتعاطونها، وبدأت أخرج كثيراً وأصادق أناسا لا يعرفون المخدرات وبدأت وظيفة جديدة.

إن القول الشائع : "إذا أدمنت ستظل مدمناً" قول صحيح وأنا من الشخصيات المؤهلة للإدمان. وأدرك أن الظروف لو قدرت لي لن أقضي وقتاً طويلاً مع متعاطين، سوف أتعاطى من جديد. لذلك كنت أحرص على ألا أخالط من هم معروف عنهم أنهم يتعاطون. عدا ذلك، فقدت كل اهتمام بأسلوب حياة المتعاطين والمدمنين الذين يبدو مثيراً في ظاهرة. لقد كان لدى الكثير لأقوله - وكذلك ذكريات من أسوأ الذكريات عن تلك الفترة - ولذلك لا أحب أبداً أن أعود إلى تلك الساحة ولا بالتذكر.

حين كنت أعمل بالشركة الوطنية للنظم المتقدمة، كنت أواعد مصممة برامج أقدم مني اسمها "جوى". كانت "جوى" متشددة معي وتتحدث معي بحسم: "مات، لابد أن تقلع عن تلك المخدرات، إنك تهوى بسرعة ولابد لك أن تقلع قبل فوات الأوان". وشجعتني على حضور جلسات علاج جماعي بل أنها عرضت على أن تحضر معي لتشجيعي وشد أذرى ، ولا أدرى أن كانت فائدة الجلسات مماثلة لفائدة (جوى) في حياتي كصديقة مخلصة أم لا . حصلت كذلك على معونة جدتي في تنظيم أحوالي المالية من جديد بتوجيه وترشيد ما أكسبه حتى أنهيت ما على من ديون ثقيلة كنت قد انزلقت إليها أثناء فترة تعاطى المخدرات.

اقتربت من الله اكثر أثناء تلك الأزمة ، وأيقنت أنه يهبنا اختيارات إلا أنه لا يجبرنا على الاختيار الصحيح . بل يرينا الصواب والخطأ ، وعلى كل امرئ أن يختار ما يريد .

الخروج بشيء جيد من فترة سيئة

من المتفق عليه أنه يمكن أن تولد أشياء جيدة من رحم جوانب سيئة وتجارب مؤلمة . أنا لا أوحى بالطبع أن على كل امرئ أن يمر بتجربة المخدر ، إلا أنني أعلم أنه يمكن للمرء أن يتوصل إلى رؤى إيجابية حين يضل الطريق .

كثير ما تساءلت على مدى سنوات كيف استطعت تحويل تجربة المخدر إلى أشياء بناءة في حياتي . أصبح لدي قدرة على توجيه من يقع في براثين المخـــــدر . يمكنني الآن أن أنظر مباشرة إلى عيني أي متعاط وأقول له : (لقـــــد ســبقتك إلى هناك،وأنت لست في الوجهة الصحيحة،لابد أن تفعل المستحيل للتوقـــــف عـــن التعاطي) . أصبحت أقول لكل من يقترب منها أو للتوقف فيها أن يظل بعيـــدا . أقول له : (إذا عرضها عليك أحد ، أركض ، لا تبتعد فقط ، بل أركض مبتعـــدا عنه)في الوقت الذي أقلعت فيه عن تعاطى المخدرات — وعن الأسباب التي يمكن أن تعيدني إلى التعاطي — بدأت في اتخاذ وجهة جديدة لحياتي .

منحنى على الطريق

على الدوام أشعر بامتنان شديد لبدئي حياتي العملية في الشركة الوطنية للنظم المتقدمة . كنت أعتقد أنني سأظل أعمل بها للأبد. ولكنني لم أفهم في ذلك الحين أن عمل مبرمجي الحاسب الآلي ليس إلا عملا انتقاليا . الهم يبدءون العمل بشـركة ن ويتعلمون فيها الكثير عن ذلك المجال ، ثم ينتقلون إلى شركة أخــــرى تشـــغل وظيفة أعلى . بعد عامين قضيتهما في الشركة الوطنية حدث ذلك لي أيضا .

وعلى مدى بضعة أعوام كنت قد طفــــت بشــركات كثـــيرة في وأدى السيليكون ، ونتيجة للاحتياج الشديد والمستمر لمبرمجين ، لا أتذكر أنني بقيــــت يوما واحدا دون وظيفة أو عمل .

وانتهى بذلك الطواف في شركة ٠آلتوس)لنظم الحاسب الآلي .

وفي شركة (آلتوس) بدأت خبراتي التي كونتها على مدى سنين تقلـــع بي كما تقلع الطائرات عن الأرض. كنت قد بدأت العمل في مشاريع تعد بحثيـــة في ذلك الوقت ومتقدمة إلى حد كبير في تقنيات الحاسب الآلي . وكنت في مقدمة من يعملون في ذلك المجال وأطور أفكارا جديدة وتقنيات مبتكرة لتطوير البرامج التي تقدم حلولا حقيقية لمشاكل كثيرة .وكنت سببا في توفير أموال طائلة للشـــركة ، وبمجرد أن تواتيني فكرة جديدة ، كنت أقوم بتنفيذها دون أن أكلـــف الشـــركة أموالا في البحث والتجريب .

كانت الموازنة والعوائد المالية أهم جانب لكل الشركات . وكنت أســـتفيد بأي جزئيات فنية يتقدم بها أي زميل للشركة وأدخلها ضمن مشروعات التطويـــر وأستفيد بها في برامجي .كنت أسعى أن أسلم أفضل إنتاج في أسرع وقـــت بـــأقل تكلفة أن كان هذا قد يفسر على أنني أبني عملى على أفكار الآخرين ، فإن هـــذ مردود عليه بأن عديد من حلولي التي كنت اطرحها لحل مشاكل معينـــة كـــان الآخرون يستعينون بها ويستغلونها في برامجهم ، هكذا كان الحال بالنسبة للجميع .

بدأت أتميز من بين حشد المصممين في شركة (آلتوس) حين بدأ الفريـــق في العمل في مشروع كان في حينه قفـــزة كبـــيرة في تأســـيس برنـــامج يســـمى (المعلوماتية)وأطلق عليه اسم التطبيع) ، وهو تقنية عملية ومفيدة جدا في مجـــالات عملية كثيرة .

بدأت أدرك أنني شديد الأهمية للشركة وفجأة رقيت إلى رئيـــس مكتـــب وكان كبيرا له واجهة زجاجية كاملة (وهو ما كان تميزا في مبنى كله قواطع تكون مربعات عمل) ، وظل أجرى بعدها في تصاعد مستمر .

ذات مرة واتتني فكرة هائلة قابلة للتنفيذ ، إلا أن رؤســـائي لم يســـتوعبوها ذهنيا لأنها كانت تعتمد على مفاهيم في ذهني . وعرفت أن ما يحتاجونـــه لكـــي يفهموها هو أن أصمم نموذجا عمليا ، ولذلك كنت أقوم بالأعمال اليوميـــة في الشركة نهارا،وانكب على تنفيذ نموذج فكرتي ليلا .

وأخيرا انتهيت من النموذج الأولى ,.وجاءت النتيجة كما كنت أتخيل . وعرضتها على كبار مديري الشركة فاهتموا بها اهتماما كبيرا وقرروا عرضها على نائب رئيس الشركة . ألقى عليها نظرة وقال :(فلننفذها)وبالفعل نقلتها إلى شبكة العمل ، وبعدها بثلاثة أسابيع في اجتماع رؤساء الشركة ، نودي اسمي لكي أتقاضى مكافأة من نائب رئيس الشركة وقال وهو يصافحني:(لو كان لدي اثنان آخران مثل "مات" لكنت قد حكمت العالم)عكفت على أفكار كثيرة في وقتي الخاص حتى حولتها إلى واقع —ومازال بعضها يستخدم حتى اليوم في أنظمة الحاسب الآلي .

اسأل رئيس أن كان بإمكاني العمل على تنفيذ فكرة جديدة تماما تكون قد واتتني ن كان يقول لي ك(إليك طرف الحبل، خذه واشنق نفسك به)

كان لي مدير عظيم يلائم تماما ذلك النوع من العمل . كان اسمه (جون اندرسون)، ضابط متقاعد لم يكن من الرؤساء الفارغين ولا من المدعيين وقد أحبه الجميع حبا حقيقيا . إلا انه كان فظا في تعامله مع مرؤسيه حين تخطو إلى داخل مكتبه ، يرفع بصره إليك ويسألك مباشرة :(ماذا تريد ؟) وهنا لابد أن تدخل في صلب الموضوع مباشرة وإن لم تفعل فإنك تخسره . وبعد أن تعرض عليه ما جئت من اجله ، لا يرد إلا بكلمة واحدة من اثنتين : نعم أولا ، دون أي نوع من التفسير المرافق مثل : (لا أظن أن هذه فكرة جيدة) أو ما شابه ذلك من تعبيرات .

لم يكن جون اندرسون من الذين يظهرون تقديرهم لمجهوداتي ، إلا أنني ظللت أتلقى المكافآت على عملي . وبعد فترة عمل في شركة آلتوس تنقلت فيها بين مختلف الأقسام ، أصبحت القائم على عرض الإنجازات الجديدة .هكذا أصبحت ،بالرغم من أنني كنت أقلهم تأهلا دراسيا وأقلهم تعليما .

وترقيت حتى وصلت إلى أعلى المناصب .

كان وراء كل ذلك النجاح سبب واحد ، وهو أنني كنت أحب دائما أن أعطى العمل اكثر قليلا مما هو مطلوب .

بالنسبة لي ، هناك رسالة ما في محتوى ما أحكيه كثيرا ما أستمع إلى أناس كثيرين يريدون التقدم والارتقاء في وظائفهم ، وأسمعهم يقولون : (كيف أحقق ذلك ؟ لدي أفكار عظيمة إلا أن رئيسي يقف عائقا دون تنفيذها) ، تعلمت أنه غير ضار أحيانا أن تعود إلى بيتك وتدير التلفاز وتجلس مسترخيا ، وتعكف على العمل في بعض الأفكار التي تواتيك.

لقد فعلت ذلك وأفادني في حياتي المهنية فائدة جمة وعجل بتفوقي فيها ونقلني من مستوى مهني أعلى.وتركت انطباعات جيدة لدي كل من عملت معهم أو لهم بإنجازي اكثر قليلا مما هو مطلوب أو منتظر مني .

في الحقيقة ، اعتقد رؤسائي في وقت ما بأنني أعمل وأبذل كل جهدي ولوقت أطول لمصلحتي الشخصية لا لمصلحة العمل . وكانت تلك الملاحظة المخلوطة سببا في ظهور أهم شخصية في مجرى حياتي كلها .

– ٩ –

قزم يقع في الحب

يلتقي الأقزام مثل أي جماعات أخرى في العالم ، يتحابون، ويتزوجون، وينجبون أطفالا ، ويتقدمون في العمر .

وبالرغم من أنني قد أقمت بعض العلاقات مع إناث طبيعيات في الطول وكونت علاقات رائعة في هذا الدرب ، إلا أنني كنت أتوق إلى الزواج من أنثى قزمة مثلي وأغلب الأقزام ينتهي بهم الأمر إلى الزواج من قزمات مثلهم (هناك استثناءات بالطبع فأخي صموئيل وهو قزم تزوج بامرأة عادية ، وعاشا حياة سعيدة وأنجبا طفلا). كنت أدرك أنه لابد لي من الزواج بامرأة تشاركني آرائي ومعتقداتي وقيمي .

كانت المشكلة أن أعثر على امرأة يتوفر بها الشرطان ، أن تكون قزمة ومسيحية . و لم يكن ذلك يتضمن أننا سنكون متوافقين تماما في باقي جوانب التكوين الشخصي .

كنت كمن يبحث عن إبرة في كوم من القش .وحتى أحصر بحثي في نطاق أضيق ، قررت أن أبحث عن امرأة بمواصفات خاصة حتى أنني كثيرا ما كنت أتسأل بتشكك داخلي إن كانت مثل تلك المرأة موجودة على ظهر الأرض . وبالرغم من ذلك كنت على إيمان شديد بأن مشيئة الله ستحل لي تلك المشكلة في الوقت المناسب كما حلت لي مشاكل كثيرة أخرى في حياتي .

كانت هناك مشكلة أخرى : فقد كنت من ذلك الصنف الــذي يعطـي ويكرس كل وقته لعمله حتى لا يتبقى من اليوم أي وقت لأي شئ آخر . كنـت أمثل حرفيا ما تعنيه صفة (متفان)

في عام ١٩٨٦ كنت أقضي أغلب ساعات اليوم منهمكا في تصميم نظـم للحاسب الآلي في شركة آلتوس كنت أعمل أسبوعيا ما يصل إلى خمس وثمـانين ساعة في الأسبوع ، وتضمن سجل عملي بضعة أسابيع عملت فيها اكـثر مـن تسعين ساعة في الأسبوع وأسابيع أخرى تخطيت فيها حاجز المائة ساعة . لم أكـن أعمل عدد الساعات الطبيعية المقررة ، فعند انتهاء مواعيد العمل الرسمية كـان الزملاء يقولون لي عمت مساء وينصرفون ، ثم يأتون في الصباح ويلقون على تحية الصباح وأنا مازلت في مقر الشركة من اليوم السابق كنت أعمل طول الليـل ، أتوقف أحيانا لبضع دقائق أتناول فيها ما يسد رمقي أو بعض القهوة ، أو لأغـير العكاكيز بغيرها مما احتفظ به في درج المكتب ، ويبدو لكل من يعـرف عـدد الساعات التي أعملها أسبوعيا أن ذلك ضرب من ضروب الجنون .وأنا متـأكد أنني لا يمكن أن أتمكن من عمل ذلك الآن .

كان العمل يمثل لي عنصرا ذاتيا بحتا . كانت أول وظيفة لي وأحسست أنـني لابد أن أبرز فيها كل قدراتي . كنت المسئول عن العمل وكان لدي عدا الجـانب الفني مهام إدارية أخرى من موازنات مالية وجداول عمل وجوانب إدارية مختلفة.

حين أتذكر ذلك الآن تبدو لي وكأنه من المستحيل أن يقوم بها فرد واحـد، كنت أشعر بشغف شديد تجاه تصميم برامج الحاسب الآلي وكانت البرامج التي أصممها تحقق نجاحا كبيرا واتسمت بصفات الخلق والإبداع والبساطة المحببـة . وبالنسبة لأي مصمم برامج لم يكن هناك ما يرضي غروره اكثر من وصف برامجه بأنها فعالة وسهلة الاستخدام ، وكانت تغمرني مشاعر الرضا أيضا لأن برامجـي كانت تحقق عوائد مالية هائلة لشركة آلتوس لم أتراخ أبدا كما لم أشعر أني محتاج

إلى وقت خاص ولا لإجازة من العمل . كنت أبذل كل هذا المجهود لأنني أحببت ذلك العمل ، بل عشقته و لم أكن أبذل هذا الجهد كنوع من التعويض عن جانب نقص آخر مثل العجز البدني مثلا ، المسألة بتجريد شديد هي أنني أحببت هـــذا وكنت أشعر بمتعة أنني موظف معروف وأملك قدرا من الشهرة في دوائر العمل .

وتقديرا من رؤسائي لكفاءتي وقوة إرادتي وتصميمي ، وإدراكا منهم أنـــه ليس من الحكمة أن يتركوني أفني نفسي في العمل على ذلك النحو ، طلبوا مني أن أقوم بإجازة وبينوا لي كيفية قضاء تلك العطلة . أخبروني أنه من الأفضل أن أتوجه في تلك العطلة لحضور تجمع أقزام في أمريكا في شهر يوليو في دير بورن ، وهـــي إحدى ضواحي مدينة ديترويت بولاية ميتشجان ، ورددت عليهم محتجا : "ليس لدي وقت للقيام بذلك ، مازال أمامي كثير من الرموز لتصنيعها وكثــير مــن المقابلات التي حددت مواقيتها "

كان رد فعلى هو رد الفعل النمطي لمدمن العمل تجاه فكرة الاسترخاء لبعض الوقت أو ابتعاده من العمل . و لم يجد ذلك فتيلا مــع رؤســائي . وفى أجــراء سيندمون عليه بعد ذلك ، تحالفوا على وجمعوا تكاليف الرحلة إلى "ديترويت".

دفعوا رسوم حضوري مؤتمر تجمع الأقزام، ابتاعوا تذكرة السفر بالطـــائرة ذهابا وعودة ، كما حجزوا لي الإقامة بديترويت. كانوا على درجة من التصميم من الممكن أن تدفعهم إلى حزم حقائبي وتكتيفي وإلقائي في الطائرة المغـــادرة إلى ديترويت. وأخيرا ، استسلمت —ووافقت بشرط أن آخذ معي بعض أوراق العمل لكي أنجزها إن واتتني فرصة .

بالرغم من كل اعتراضاتي ، كنت أدرك أنني سأحظى بوقت طيب في ذلــك التجمع كنت أدرك من ناشطي جمعية الأقزام ، ورأيت أن تلك الرحلة ســتكون فرصة طيبة التقى فيها بالأصدقاء القدامى وأعرف من خلالها آخر أخبار جمعيـــة الأقزام . وغير هذا التجمع مسار حياتي بأجمعها كما غير حيـــاة امـــرأة قزمـــة تصادف أنها كانت تحيا بمدينة ديترويت .

التغلب على بعض الخجل

كانت إيمى نايت تسكن في وستلاند بولاية ميتشجان ، على مسافة تعد قريبة بالسيارة من موقع الفندق الذي ستعقد فيه اللقاءات .

كنت قد حضرت عدة مؤتمرات للأقزام قبل عام ١٩٨٦ ، بينما كانت تلك أول مرة لإيمى تحضر فيها مثل ذلك التجمع من الأقزام وبالرغم مما كان يعنيه لها ذلك من متعة اللقاء بكثير مثلها من الأقزام ، إلا أن ذلك كان صعبا عليها في البداية كانت إيمى شديدة الخجل بالرغم من أنها نشأت بين أبويها جوردون وباتيشيا وأخ شقيق وأختين في الخامسة من عمرهما بدأت تدرك أنها مختلفة عن أشقائها وعن الأطفال الآخرين الذين تعرفهم . كان من الصعب عليها المرور أمام مرآة والتحقق من ضآلة حجمها مقارنة بالأطفال الآخرين واختلافها عن البنات اللائى كن في عمرها . وحين أصبحت في العقد الثاني من عمرها ، أصبحت المناسبات الاجتماعية التي تفرح بها البنات مصدر خجل شديد لها .

كانت إيمى تتوق إلى تكوين صداقات مع الشباب والخروج معهم كما تخرج الفتيات ، إلا أنها لم تفعل ، وكان سبب ذلك أن أحدا من الشباب لم يطلب منها التواعد على لقاء .كان أول موعد لها مع شاب في سن السابعة عشرة ، وتحول الموعد إلى كارثة خرجت للقاء قزم تعرفت عليه في نادى للأقزام ، وكان كلاهما على درجة من الخجل حالت دون أن يتبادلا كلمة واحدة وبعد أن انتهت الدراسة بالمدرسة العليا ، التحقت إيمى بجامعة ميتشجان المركزية ومع أن كليات الجامعة مكانا مناسبا يتخلص فيه اشد الخجولين من خجله ، إلا أن الجانب الاجتماعي من حياتها لم يحرز أي تقدم ، بل أنها مرت بأوقات عصيبة في المناقشات الجماعية مع الفتيات الأخريات في كليتها ... لم يمكن تحيا الحياة التي يحيينها : كن يتحدثن عن لقاءاتهن بالشباب والمواعيد التي يخرجون فيها معا ، أما هي ، فلم تكن لديها ما تضيفه ولا ما تساهم به في هذه الأحاديث .

إذا التقيت بها الآن ، لا يمكن أن تصدق أنها عانت بأي شكل من كونها قزمة. يجتاحها الخجل في بعض الأحيان ، إلا أنها تحولت إلى امرأة قوية تؤكد ذاتها عند اللزوم . وأخبرتني في مرات كثيرة أن إيمانها بالله هو ما جعلها توقن أنها ستلتقي بالشخص الملائم في يوم ما .

بعد تخرجها من الكلية في شهر مايو عام ١٩٨٥ ، بدأت إيمى العمل كسكرتيرة في شركة تقوم بتنظيف نوافذ المباني العالية . لم يكن ذلك العمل هو ما تحلم به أو ما يزداد ذهنها أن تستمر به على المدى البعيد ، إلا أنها كانت وظيفة على أي حال . واظبت على أي حال .واظبت على ذلك العمل وهى تبحث عن عمل آخر يتفق مع رغباتها. إلا أنها كانت في الأصل تبحث عما لا توفره أي وظيفة مهما كان النفوذ الذي توفره تلك الوظيفة ولا الراتب الذي تتقاضاه ، فمنذ أن كانت فتاة صغيرة ، كانت تحلم بالزواج وتتوق إلى أن يكون لها أطفال وكانت مشكلتها في كيفية تحقيق ذلك وتحويله إلى واقع .ومثلما كنت أدرك ن أدركت إيمى أيضا لا يمكن أن تتزوج إلا من قزم مثلها . ومع أنها لم تقصر أحلامها على ذلك الاختيار ، إلا أنها كانت براجماتية لا تسعى وراء الأحلام الخيالية ، كانت شديدة الواقعية . لم يوجه لها أبدا رجل عادى دعوة للخروج معها ، كانت تدرك أنه من الصعب أن تتزوج امرأة قزمة من رجل طبيعي الطول. وغير ذلك كان المانع يرجع إلى تعصب كلا الجانبين ، طوال القامة والأقزام ، فكثير من الناس ينظرون بدهشة حين يتزوج رجل عادي من قزمة .كذلك أيضا لا ينظر كثير من الأقزام بترحيب كبير إلى زواج قزم من امرأة عادية الطول .

كيف يمكن أذن لإيمى أن تعثر على رجلها المناسب ؟ وكيف لها أن تتواصل مع أحد الأقزام وهم مبعثرون في أماكن متباعدة ومن الصعب الالتقاء بهم ؟

واقترح عليها بعض أصدقائها أن تشارك في تجمع الأقزام وكان اقتراحا منطقيا منهم : أكبر تجمع للأقزام في أمريكا كان على وشك الانعقاد وفى مدينتها التي تعيش بها . سيتوفر عليها ذلك قيمة الانتقال أو تذاكر سفر إلى مكان بعيد،وسيوفر عليها الإقامة بفندق وأي تكاليف أخرى لم يكن هناك أي مخاطرة

من جانبها . كل ما كان عليها أن تفعله أن تظهر في التجمع فقط . وإن لم يعجبها، فكل ما عليها أن تفعله أن تعود إلى بيتها . كانت إيمى عملية للغاية وتفكر تفكيرا موضوعيا وتقبلت فكرة اشتراكها في مؤتمر الأقزام وبدت لها الفكرة وسيلة عملية للالتقاء بأقزام آخرين .

كان مجرد تواجدها لا يضمن لها فقط عقد صداقات جيدة ، أو الالتقاء بمن يصلح شريك حياة ملائم ، بل كان يضمن لها أيضا التواجد مع أعداد كبيرة من البشر يجمع بينهم جميعا صفة واحدة مشتركة ، وهى أنهم كلهم أقزام مثلها وعدا ذلك ، فإن الأمر يرجع إلى كل امرئ على حدة في كيفية قضائه الوقت بين ذلك الحشد من الأقزام.

تطلب منها حضور ذلك التجمع القيام ببعض الترتيبات ، لم تكن إيمى شخصية مقتحمة مثلى ، لقد كنت على الدوام من ذلك الصنف الذي تمكنه أن يتوجه إلى من لا يعرفهم من قبل ويبادرهم بالحديث وخلق بداية حوار ، إلا أن إيمى لم تكن من ذلك الصنف . كانت بالفعل تتميز بحميمية ودفء الحوار ، إلا أن بدء حديث مع من لا تعرفهم كان يشكل صعوبة خاصة وعدا ذلك كان كثيرون ممن سيحضرون المؤتمر يعرفون بعضهم البعض من مناسبات سابقة. ولذلك لم تشعر في البداية بالانتماء إلى ذلك الحشد ز

وبعد أن ساهمت في بعض فعاليات المؤتمر من ندوات ومسابقات رياضية وورش عمل ولقاءات اجتماعية بدأت تشعر بمشاعر لم تعرفها من قبل مشاعر الانتماء .

لأول مرة في حياتها كانت بين أناس كلهم مثلها تماما ، ويعانون مما تعانيه وتعتريهم مشاعر الخوف نفسها من عالم طوال القامة. على الفور قبلها الآخرون كوجود إنساني ، لا كنوع من أنواع الطرافة البشرية .. وبدأت في إقامة صداقات حقيقية ، صداقات مستديمة بأصدقاء ظلت تتواصل معهم حتى اليوم .

أشعر بسعادة غامرة وأنا اذكر الآن أن إحدى تلك الصداقات كانت صداقتها لي .

الالتقاء بإيمى

لم يدر بخلدي فكرة البحث عن زوجة حين توجهت لحضور تجمع الأقزام عام ١٩٨٦ . ولم يكن ذلك راجعا إلى موقف عدائي تجاه الزواج ، بل لأنني لم أكن أشعر بالعجلة ولا بدوافع ملحة تدفعني للزواج ، إلا أنه كان لدي شعور خفي بأن الأقدار ستسوق امرأة قزمة أثناء المؤتمر . والتقيت إيمى في بداية أسبوع المؤتمر بسبب الهواية التي جمعتنا معا وهى الألعاب الرياضية .

كان كل مؤتمر للأقزام يحفل بمنافسات رياضية ضمن فعالياته المختلفة،مسابقات الكرة الطائرة وكرة السلة ورفع الأثقال والعاب رياضية أخرى متنوعة ورأيت إيمى أول مرة أثناء مسابقة رفع الأثقال بعد يوم أو يومين من بداية التجمع. لم أكن مشتركا في مسابقة رفع الأثقال ذلك العام لأنني كنت قد أجهدت نفسي كثيرا في العمل و لم أجد فرصة كافية للتدريب تكفى لخوض المسابقات ، وكانت إيمى هي الأخرى بين المتفرجين ورأينا بعضنا حين دخلت القاعة أول مرة وجلست لمتابعة المنافسات . أحس كل منا بانجذاب نحو الآخر في الحال وبدأنا حوارا حول عمل كل منا ، وعن أسرتينا ، وعن أصدقائي وأصدقائها .و لم يمض وقت طويل حتى تبينت أن لدينا اهتمامات كثيرة مشتركة . ناهيك عن الانجذاب المتبادل .

وأنا أتحدث إليها شعرت أنني أحتاج أن أتعرف عليها أكثر وأعمق ، كان لديها الحساس ذاته تجاهي .

شاهدت إيمى مرات كثيرة في ذلك الأسبوع ، بما فيها تلك المرة في نهائيات مباريات كرة السلة . كنت اجلس أنا وصديقي "بيتر ريكنروف" نتابع المباراة النهائية .كانت إيمى ضمن فريق أقزام الجمعية المحلية للأقزام . أدهشني حميتها في

التنافس ، وسلوكها الرياضي المثالي تجاه إلى الآخرين أن هذا عدا مهارتها الفائقة في اللعب . كانت تلعب على الميدالية الذهبية في المباراة النهائية ضمن فريقها ، وظهر أثناء المباراة شخصيتها القوية ،وأصابت السلة موفقة من منتصف الملعب، في تلك اللحظة بدأت اشعر أنها تثير انتباهي واهتمامي.

اتضح لي أن إيمى رياضية من طراز فريد ، كانت من بين افضل خمس رياضيات من أقزام القارة . كانت إيمى لاعبة كرة سلة بارعة وكانت تمارس أيضا لعبة الكرة الطائرة ، وحازت ميداليات ذهبية كثيرة في مسابقات كثيرة على مدى الأعوام السابقة.

حين رأيتها تسجل تلك الرمية الرائعة في السلة من منتصف الملعب ، ملت على صديقي بيتر وسألته إن كان يعرف إيمى إلا أن معرفته بها لم تكن تزيد عن معرفتي بها . كانت جديدة على التجمعات الكبرى للأقزام ، لذلك لم يكن كثير من الأقزام يعرف عنها شيئا وكان على أن أسعى بنفسي لمعرفة المزيد عنها .

انتهى التجمع باحتفال نهائي يرتدى فيه الأعضاء ملابس رسمية ، وبدت إيمى في ذلك الاحتفال رائعة ، كانت من اكثر الحاضرات جاذبية وتألقا ، كانت ضربة قاضية . المشكلة أنها لم تكن بصحبتي ، سبقني إلى طلب صحبتها في الاحتفال النهائي قزم آخر اسمه داني ، وكنت أنا بصحبة فتاة أخرى تدعى كاميل . وتصادف أن تصادمت بإيمى عدة مرات أثناء الحفل . وانتهز كل منا الفرص للحديث إلى الآخر تلك الليلة (أظن أن داني وكاميل قد قاما بنفس الشيء فقد تزوجا بعد ذلك بعدة شهور) تحدثنا عن ترحيبنا بالتواصل بعد انتهاء التجمع وتبادلنا العناوين وأرقام الهواتف .

في الصباح التالي رجعت إلى شمال كاليفورنيا يملؤني الشوق إلى العمل الذي أعشقه و لم أكن على يقين من أي شيء يختص بمعرفتي بإيمى .كل ما كنت أدركه أنني تقبلتها بارتياح شديد ، إلا أنني لم أنس أنها تحيا في ديترويت ، على بعد نصف قارة من المكان الذي أعيش فيه ، كان من الشائق أن أخمن هل يمكن

الشرارة التي اشتعلت بيننا أن تتحول إلى لهب متصل ،أم أنها سـرعان مـا تخبـو وتنطفئ.

التواصل

بعد اقل من أسبوع عودتي إلى سان جوزيه — وكنت قد عدت إلى إيقـاع العمل الذي أعمل به تسعين ساعة كل أسبوع ، تلقيت رسالة من إيمى لم تكـن رسالة حب ، كانت رسالة قصيرة ورقيقة تذكر فيها كيف أنها استمتعت وسرت بلقائي. كانت تلك المشاعر متبادلة بطبيعة الحال ، وكانت لدي النية أن أرد علـى رسالتها وإخبارها انه كانت لدي المشاعر نفسها من السعادة بمجرد أن يتوفـر لي بعض الوقت للكتابة إليها .أخبرتني إيمى فيما بعد أنها استاءت لعدم ردى علـى رسالتها فور تلقيها .

كانت مهتمة بتقوية أو اصر العلاقة بيننا ، إلا أنها كانت تدرك أيضا بعـد المسافة التي تفصلنا .كنت أود وأرغب بشدة أن تظل على تواصل ، إلا أنني كنت — ومازالت — أسوأ كاتب رسائل على وجه الأرض . اتركني مـع أي امـرئ مواجهة ، أو حتى على الهاتف وستجدني متحدثا بارعا لا يشق له غبـار . أمـا كتابة الرسائل فإنها تبدو لي غاية في الصعوبة . كان رأى إيمى أنني أن لم أكن أود أن أرد على رسالتها أو الاتصال بها فإن الحياة ستستمر على كـل حـال ، وأن الخسارة لي أنا هي إيمى ، ما كنت أتطلع إليه تماما : فتاة جميلة ذكية ذات تفكـير منطقي معتدل ، رياضية من الطراز الأول — وعدا ذلك مسيحية حتى كعبـها — كانت هي الإبرة التي أبحث عنها في كومة القش .

فما المشكلة إذن ؟

لم يمض وقت طويل على رسالتها الأولى حتى تلقيت رسالتها الثانية ، وحتى اليوم لا تعرف إيمى ما الذي دفعها إلى الكتابة إلى من جديد فمن الطبيعـي إذا لم يهتم امرئ بالرد على الرسالة فإن ذلك يعني نهاية المطاف . كانت الرسالة الثانيـة

تتضمن أنني أن كنت مهتما بها فعلى أن أظهر ذلك . وإن لم أكن مهتما بها فإنها يسعدها أنها التقت بي في تجمع الأقزام .

وبدلا من أن اكتب إليها اتصلت بها . كان أول حديث لنا عبر الهاتف حديثا قصيرا . وبمرور الوقت أصبحت محادثاتنا الهاتفية أكثر انتظاما . كانت غالبا ما تتصل بيمن ديترويت في الخامسة صباحا بتوقيت كاليفورنيا على مكتب الشركة بالطبع ، كنت استعدت العمل بجنون طول اليوم وكل النوبات الليلية ولذلك كانت تعرف أين تعثر على . كانت تحادثني عبر الهاتف وأنا أعمل أمام شاشة الحاسب الآلي .

وبعد التراسل والتحدث عبر الهاتف لعدة اشهر ، بدأنا نرتب تفاصيل زيارة تقوم بها إلى كاليفورنيا عمليا ، كانت إيمى هي من بادر باتخاذ الخطوة الأولى . كان لديها إجازة من عملها ، وقررت أن تأتى لزيادة صديقة لها على مبعدة ساعة بالسيارة من المدينة التي أحيا بها وقالت لي أنها ستمر بي وهى في طريقها إلى صديقتها قلت لها : حسنا ، فكرة عظيمة ، أتمنى فعلا أن أراك . سأنظم لك جولة لزيارة أماكن كثيرة عند وصولك .

كنت أتطلع إلى معرفتها بصورة أوثق بعيدا عن فعاليات مؤتمر الأقزام الذي يحاول فيه كل واحد أن يظهر أفضل ما يمكن إظهاره وكان ذلك يعني أننا سنقضي معا وقتا بمفردنا ، وكانت فرصة جيدة لكي يعرف كل منا الآخر على نحو أفضل .

قالت إيمى عبر الهاتف أنها ستمر على وتقضى يوما واحدا ثم تتوجه إلى سكرامنتو لزيارة صديقتها وبعد أن قارب يوم الزيارة على الانتهاء سألتها إن كانت ستتصل بصديقتها قبل توجهها إليها ، قالت : " كلا ، أستطيع أن أبقى هنا يوما آخر وأسعدني ذلك البرنامج المرن . في اليوم التالي أعدت عليها السؤال ذاته وتلقيت الإجابة ذاتها . وانتهى الأمر بأن قضت الأسبوع بأكمله معي و لم تقم بزيارة صديقتها في سكرامنتو .

حين ارجع بذاكرتي إلى ذلك الوقت ،يطوف بذهني أن تلك كانت خطتها المسبقة من البداية ، وضعت صديقتها على قائمة الانتظار كأنها قالت لها قبل قدومها (سأزور ذلك الصديق فإن لم تطب لي الزيارة سأرحل وأجيء إليك ، ولو طابت لي الزيارة ، ربما لن تريني هذه الإجازة) كنت أنام على الأريكة وتخليت لها عن غرفتي طول فترة الزيارة .

ظل ذلك الأسبوع الذي قضيناه معا من أعز وأغلى الذكريات ،اصطحبت إيمي بمحاذاة ساحل خليج سان فرانسيسكو و زرنا وادي نابا المشهور بزراعة الكروم وصناعة النبيذ ، وقضينا أوقاتا طويلة على شاطئ البحر ، وتناولنا وجبات في مطاعم فاخرة زولا أتذكر أنني قضيت وقتا ممتعا مع أي إنسان في تبادل الأحاديث مثل ذلك الوقت الذي قضيته مع إيمي . كان يمر بسرعة حين نكون معا ن و لم نمر بلحظة واحدة يعوزنا فيها الحديث في أي موضوع .كنا نحن الاثنين نتعجب من إحساسنا بالراحة الشديدة الذي نحسه كلما كنا معا .

اهتممت بخلق انطباع جيد لدى إيمي عن اجمل مكان احبه في العالم وهي قنطرة الباب الذهبي وإريتها تلك القنطرة من جميع الزوايا التي يمكن رؤيتها منها واحبت إيمي ذلك المكان مثلي تماما .

واعتقد أن القنطرة كانت تمثل لي شيئا خاصا جدا بسبب ذكرى من ذكريات طفولتي : كانت تجرى في ذلك الوقت لآخي جوشوا جراحة خطيرة ، وكان يجاهد حرفيا ويصارع لكي يبقى حيا .

ظننا أننا سنفقده تلك المرة . كانت جراحة قلب مفتوح تستغرق ست ساعات ألبسنا أبي معاطفنا وراح يمشى بنا في مسيرة طويلة وبطيئة على معبر الباب الذهبي ريثما تنتهي الجراحة التي كانت تجرى لجوش . مازلت أتذكر كيف كان الضباب يترل علينا ويغلفنا منعشا نفوسنا التي أضناها الخوف على جوشوا .

وحين وجدت أن إيمي أحبت أيضا ذلك المعبر كما كنت أحبه ، أيقنت أنها الفتاة التي أبحث عنها .

اصطحبت إيمى لمقابلة أبي وأمي واخوتي وجدتي . سيطر على إيمى شعور بالقلق قبل لقاء أسرتي ، خاصة أننا لم نكن قد تعارفنا إلا من فترة قريبة .أردت أن أعرف انطباعهم عنها بعد الزيارة ، وأن كانوا يرون فيها زوجة ملائمة لي ، و لم يدهشني أنهم أحبوها جميعا . ودون أن نشعر ، انتهى بسرعة الأسبوع الذي قضيناه معا . وحان موعد عودة إيمى إلى ديترويت ، وعودتي أيضا إلى ساعات العمل الطويلة في وظيفتي .

وماذا بعد ؟

لم يعد هناك شك لدي أي منا أننا نود أن نظل معا . بعثت إلى إيمى بعد رجوعها باقة من الزهور ،وأصبحنا نتحدث عبر الهاتف كل يوم على وجه التقريب .

كان على الآن أن أقوم بالخطوة الكبرى والذهاب إلى ديترويت للتعرف على أسرة إيمى وفى شهر أبريل طرت إلى هناك لقضاء خمسة أيام مع أسرتها وكانت إيمى تشعر بعصبية شديدة لأنها ودت من كل قلبها أن أحوز إعجاب أسرتها . واعتقد انهم ظنوا قبل لقائي أنهم سيرون شابا همجيا غير مروض .

هذا عدا ما سيجدونه في من احتياجي الدائم إلى عكازات للسير إلا أنني وإن كان لي جانب همجي في شخصيتي ، إلا أنني لم أظهره بالتأكيد في ديترويت . كنت بالكاد قد انتهيت من مشروع كبير في العمل ، وكنت منهمكا . أتيحت لي معرفة كل فرد من أسرة إيمى وسرعان ما سكنت كل هواجسهم ، وباركت كل الأسرة علاقتنا الجديدة ورضوا عن استمرارها . أدرك كل منا في داخله أن علاقتنا من الممكن أن تكلل بالزواج . كان السؤال المطروح في أعماق كل منا هو متى نقدم على تلك الخطوة وكيف ننجزها ؟

أثناء زيارة إيمى لي بكاليفورنيا كنت قد سألتها أن كانت تقبل فكرة الانتقال إلى كاليفورنيا حتى تكون قريبة مني وقد سألتها ذلك السؤال في صيغة الافتراض ، بطريقة (ماذا لو) و لم تكن تلك الطريقة من صياغة الأسئلة تلقى ترحيبا من إيمى ، لقد كانت تنتظر ما هو اكثر من التساؤلات الافتراضية ، كانت تأمل أن تستمع إلى عبارات يقينية لا افتراضية . كان من المستحيل أن تقبل الانتقال إلى كاليفورنيا

لتحيا بمفردها ، كانت تتمنى أن تتيقن من جديتي في السعي إلى الارتباط بها واتخاذها زوجة ..

كانت إيمي قد قررت من وقت مبكر قبل أن تعرفني أنها إن التقت بـــالرجل المناسب لها ، لن يهمها بأي حال في أي بقعة من الأرض يعيش. لم يكن يشـــكل لها هذا الأمر أية أهمية مقارنة بفكرة قضاء عمرها مع رجل تحبه .كانت على يقين أنها يمكن أن تحيا في أي مكان بشرط ارتباطها برجل ملائم لها.

أيقنت بدوري أنني أرغب في الزواج بها وأنني لو صارحتها برغبـــتي فإنهـــا ستوافق على الانتقال إلى حيث أعيش . وأصبح على أنا أن أقوم بمبادرة كبـــيرة ، مبادرة من اكبر المبادرات التي اتخذتها طول حياتي .

الخطوبة

كان قلبي يدق بعنف ، وكان ضغط دمي مرتفعا ، وتســـاءلت أن كـــان بمقدوري أن أتحمل تلك الحالة ليوم كامل .

لا أعني بالطبع خططي التي أعددتها لتوجيه السؤال إلى إيمي أن كانت تقبـــل الزواج بي، بل أتحدث عن رحلتنا إلى القمة الجبلية الثلجية الكائنة بحدائق يوزمايت القومية .

بعد شهر من زيارتي ديترويت ، جاءت إيمي لزيارتي في كاليفورنيا وقضـــاء أسبوع معي أعددت نفسي وتأهبت لإلقاء السؤال عليها — وكنت احتفظ بخـــاتم زواج جدتي في جيبي استعدادا لوضعه في إصبع إيمي — إلا أن خوفي من الأمـــاكن المرتفعة ووجودي بتلك القمة الذي يستهلك مني كل أعصابي وقدرتي على النطق أو التفكر جعلني لا أقوى حتى على النطق بما كنت قد أعددته من كـــلام . ودت إيمي أن تخطو حتى حافة الجبل لتتمتع برؤية الوادي السحيق في مشهد رائـــع مـــن فوق قمة الجبل . كانت في البداية تعاتبني وتسحبني إلى الحافة ولا أظن أنها كـــانت تعرف في ذلك الوقت مدى رعبي من الأماكن العالية . كل ما كانت تريـــده أن أتمتع معها بروعة المشهد كما يبدو من فوق .

وأخيرا ، وبعد عناء شديد استطعت أن أجعلها تتراجع عن الفكرة وتجلس إلى جواري بعيدا عن الحافة . كانت تلك هي اللحظة الملائمة والفرصة التي كـــان على تحينها (نصحني بعض أصدقائي قائلين : اقذف السؤال بلا تردد ، ثم اصمت

تماما ولا ترغى كثيرا كما تفعل دائما معنا) أخرجت العلبة الصغيرة من جيبي ، وفتحتها لأظهر الخاتم الذي بداخلها ، وقلت إيمى ، أنا احبك ، هل تقبلينني زوجا لك ؟ (ثم أغلقت شفتي وانتظرت ردها) ، وبدموع ملأت مقلتيها قالت نعم . وظهرت دموع الفرح إلى عيوني أنا أيضا . دفعت الخاتم في إصبعها ، وأصبحنا خطيبين .

يوم العرس

لم أطق الانتظار طويلا لإتمام الزفاف . كنت أود الفرار إليها .بدا لي الأمر أشبه بمغامرة مثيرة . كنت أتعجل السفر لقضاء شهر عسل معها ، ثم نعود لتقيم حفل استقبال لأسرتينا . إلا أن إيمى لم تتزحزح عم موقفها . فمثل كل الفتيات ، كانت إيمى تحلم طول عمرها بيوم الزفاف ، و لم تكن أبدا على استعداد للتضحية بهذا الحلم . تركتني في كاليفورنيا وعادت إلى ميتشجان ، وانهمكت في الإعداد ليوم الزفاف.

اتفقنا أن يكون الزفاف في شهر أكتوبر ، ولكن تحت الحاح وضغط مني قدمنا الموعد إلى الثاني عشر من سبتمبر وتم عقد القران في كنيسة الدرز حيث الميثودية ، وهى الكنيسة التي نشأت إيمى في رعايتها .

وسعدنا جدا بقضاء ليلة الزفاف في الفندق الذي ضم تجمع الأقزام والذي تعارفنا فيه لأول مرة . ثم طرنا إلى كاليفورنيا . قضينا شهر العسل في مدينة كارمل.

وبعد انتهاء شهر العسل ، أقمنا حفل استقبال لأسرتينا وللأصدقاء .

كانت بداية عظيمة لحياتنا معا ، تلك الحياة التي سرعان ما ستقابلها منحنيات ومنعطفات جديدة عديدة .

-١٠-

اتخاذ قرارات هامة

كما كان التوافق كبيرا بيننا ، وكما كانت زوجة عظيمة ، وأن كلا منا ملائم للآخر تماما ، إلا أنه كانت هناك بعض الاختلافات بين شخصيتنا ، وكان من أهمها طريقة تعامل كل منا مع المواقف الهامة التي تعترض مسيرة حياتنا .

كانت إيمى عملية ومنطقية ،بينما كنت أتطلع إلى المغامرة والإثارة . كانت إيمى تصر على أن يكون كل شيء في حياتنا مخططا سلفا وبدقة ، بينما كنت أتكيف بما يقابلنا من ظروفا وتغيرات واقبلها.

لا يعنى ذلك أنني كنت من ذلك الصنف الذي يعرض نفسه أسرته للمخاطرة إلى الدرجة التي يدمر فيها نفسه ومن معه. لم يكن من النوع الذي يخاطر بأمن زوجته وأبنائه ، مهما كان الثمن مغريا .

إلا أنني كنت أؤمن أن خوض بعض المخاطرات أو اتخاذ بعض القرارات التي لا تعتمد على ضمانات مطلقة أو ما يسمى المخاطرة المحسوبة يجعل للحياة نكهة مثيرة وممتعة المخاطر المحسوبة هي التي توازن فيها بين ما يمكن أن تخسره وبين ما يحتمل أن تكسبه ، ثم تقرر أن كانت تستحق خوضها أم لا .

خضت مخاطرة من تلك المخاطر التي اعنيها بعد زواجي بإيمى مباشرة .

استقلت من وظيفتي المضمونة التي أتقاضى عنها راتبا مجزيا في شركة آلتوس لنظم الحاسب الآلي . وأعتقد أن ذلك مثال يوضح المخاطرة المحسوبة كما اعنيها كنت أوقن من خبراتي السابقة ومن تاريخي العملي أنني لن أصل بتلك المخاطرة إلى وضع اعجز فيه عن دفع قيمة استئجار المسكن أو توفير الطعام لي ولإيمى.

و لم اتخذ قرار الاستقالة للحصول على وظيفة تدر دخلا اكثر أو ذات نفوذ اكبر لأنني كنت راضيا على الجانبين في الوظيفة التي كنت أشغلها . الدافع في تلك المخاطرة هو الإحساس بالحاجة إلى التغيير ، والدافع وراء ذلك الإحساس هو أنني تزوجت .

استقلت من وظيفتي في مجموعة آلتوس لنظم الحاسب الآلي لأنني كنت أود أن أقضي وقتا أطول مع عروسي إيمى .بدأت بإعلام رؤسائي بعد زواجي أنني أود أن أقلل من ساعات عملى الطويلة فمن المستحيل أن أعمل طول الليل حتى بعد زواجي ، ومع أنهم وافقوا على ذلك ، إلا أنهم واجهوا وقتا عصيبا في ملء الفراغ الذي تركته بعد أن اعتادوا لسنوات على قيامي بالعمل لساعات طويلة بجنون (أنا واثق أنهم ندموا على إرسالي إلى مؤتمر الأقزام) و لم يمض وقت طويل حتى تحققت أنني قد خلقت سابقة لا يمكن الاستغناء عنها في شركة آلتوس وأدركت أنني لن أتمكن من العمل لساعات عادية مثل كل البشر إلا إذا انتقلت لعمل آخر .

أعطيت مهلة ملائمة لشركة آلتوس وتركت العمل بعد المهلة وأنا على علاقة طيبة مع جميع العاملين بها ومازالت صديقا لهم جميعا . كان الوقت قد حان لكي أبدأ فصلا جديدا من فصول حياتي .

العمل حتى ولاية أوريجون

تلقيت عروضا كثيرة للعمل بعد استقالتي من مجموعة آلتوس من جميع أنحاء وادي السيليكون . بعض تلك العروض كان من شركات كبرى ، وبعضها من شركات عائلية صغيرة .

أحد تلك العروض كان من مجموعة (الشركات الثلاث)وذهبت رأسا للعمل معهم .كنت أقوم بالوظيفة نفسها التي كنت أقوم بها في شركة آلتوس وهى تصميم برامج الحاسب الآلي للخدمات المختلفة للشركات . بعد شهرين من العمل تيقنت أن مجموعة الشركات الثلاث ليست المكان الملائم لي ، فاستقلت وعملت لشركة (فيرفاكس —رو)، وهى شركة استشارية صغيرة في شركة (فيرفاكس —رو) ابتدعن تصميم البرامج واندمجت اكثر في الجانب العملي من هذه الأشغال . وأجدت في المجال الجديد كما أجدت فيما سبقه وأعانني على ذلك شبكة علاقاتي الواسعة التي كونتها وأنا أعمل في مجموعة آلتوس . كنت أقوم بإرسال المواصفات الفنية لمن أعرف أنهم يحتاجون إليها وانتظر ما يأتي به من أوامر تشغيل .

جلبت لشركة (فيرفاكس — رو) صفقات كثيرة وتسويقا واسعا لمنتجاتهم من البرامج ، وسرعان ما خطر بذهني أنني أستطيع أن أقوم بالعمل نفسه ولكن لحسابي الخاص وبذلك أحقق دخلا ماديا أكبر.

استقلت من عملى لدي (فير فاكس —رو) وبدأت العمل لحسابي كصاحب شركة استشارية صغيرة . راقني تماما أن أكون صاحب العمل الذي أمارسه والحرية التي يوفرها لي ذلك ، إلا أنه سرعان ما تبينت أن تكويني الشخصي لا يتلاءم مع كوني صاحب العمل . لم أكن من الشخصيات عالية التركيز في الجوانب الإدارية التي تتطلبها إدارة الأعمال ولا املك صفات الانضباط الصارم اللازم لتحقيق النجاح الإداري .

كنت مازلت أتلقى عروضا كثيرة من شركات مختلفة لأعمل لها ، وقبلت عرضا من شركة أريك لنظم الحاسب في سان جوزيه . وكانت وظيفة لا تنسى إذ وقع أثناء عملى بها الزلزال العظيم الذي ضرب منطقة خليج سان فرانسيسكو عام ١٩٨٩ .

ظللت أعمل لشركة لأر يكس على مدى عام ، وهو ما اعتبرته إيمـــي أول ثبات نسبي لي في العمل منذ زواجنا . لم نعان أبدا منذ زواجنا من نقص مـــالي أو أزمات اقتصادية فقد كنت أتقاضى راتبا جيدا كما كانت إيمى تعمل بوظيفة تدر عليها دخلا جيدا في شركة (هيويلت باكارد) ولكني كنت أدرك أن إيمى كـــانت تتساءل في أعماقها عن استقراري الوظيفي وهل سأظل انتقل من عمل لآخر علـــى ذلك النحو ؟ عندما تزوجنا كنت قد أمضيت أربعة أعوام في شركة آلتوس ، أما بعد زواجنا ، بدا لها أنني لا أستقر طويلا في عمل واحد .

كنت أحصل على مبلغ طيب من الاستشارات الفنية التي أقوم بها خـــارج إطار الوظيفة وكان ذلك إضافة جيدة لدخلنا من الأعمال المنتظمة ، وأتاح لنـــا ذلك أن نشترى أول منزل لنا معا . كان منزلا جميلا على الطراز الحديث في منطقة جميلة من مدينة سان جوازيه . استطعنا لأول مرة في حياتنا أن نكون ما لكي المنزل الذي نقطن في وقت كان فيه من المستحيل على حديثي الزواج أن يتمكنوا مـــن شراء منزل في سان جوزيه ، فما بالك بمنزل جميل كمنزلنا ؟

بدا من ظاهر الأمر أننا سنستقر في تلك المدينة لزمن طويل بعد أن اشـــتريا المنزل .

إلا أن أحد الأصدقاء قدم لي فكرة غيرت مجرى حياتي ، واعتقدت في البدايـــة أنها فكرة مجنونة ، إلا أنها راحت تنمو في داخلي باضطراد .

كنت رضيا بعملي في شركة أريكس وأحقق منها دخلا جيدا ، و لم يكـــن لدي أي نية للذهاب إلى أي مكان آخر .

وفي يوم ، زارني صديقي (بات جن) وكان معاونا لي حينما كنت أعمل في شركة آلتوس ، جاء إليّ بغرفة مكتبي في المنزل وأخبرني عن عزمه الانتقـــال إلى الساحل الشمالي الغربي

قال وعيناه تلمعان بالإصرار والعزيمة (سأنتقل إلى أوريجون ،حصلت علـــى وظيفة في شركة حاسب إلى ، وسأنتقل للعيش هناك)

قلت مندهشا : (أوريجون ؟ لماذا إلى أوريجون ؟ ما الذي بها أوريجون ؟)

حين كان (بات) يغادر مكتبي ، كنت أقول في داخلي ، حظ حسن أيــــها الأحمق). لم يكن لدي أي تفسير منطقي لماذا يترك أي امرئ أهم مركز للتقنيـــة المتقدمة في العالم — وهو وادي السليكون- وينتقل إلى ولاية في الأطراف مثل ولاية أوريجون . حين وردت ولاية أوريجون في ذهني لم أر فيها إلا غابـــة بعيـــدة أو صديقة خالية أو مكانا تقصده في رحلة لصيد الأسماك أو إقامة مخيم في غاباتهـــا لا مكانا للإقامة الدائمة و طاف بذهني أنها ولاية تتميز بجمال طبيعي إلا أنها نائية أن ما تمثله هوليود للممثل هو نفسه ما يمثله وادي السيليكون لمن يعملون في أنظمـــة الحاسب الآلي وكل ما يتعلق به بالنسبة لي لم تكن ولاية أوريجون موجودة حـــتى على خارطتي العقلية لم يشاركني (بات) سخريتي من العيش في أوريجون وانتقـــل بالفعل إلى بورتلاند بولاية أوريجون وبدأ العمل لشـــركة (ســيكوينت) لنظـــم الحاسب الآلي ، وكانت شركة كبيرة ذات سمعة جيدة بعد ذلك بثلاثة أشـــهر، اتصل بي ، بات)هاتفيا وراح يتحدث عن أوريجون بافتتان كبير ، حكى لي عـــن جمال الطبيعة المذهل وعن أهل الولاية الودودين اكثر من أي أناس رآهـــم مـــن قبل،وأخبرني أن هناك وظيفة بانتظاري لو قبلت الانتقال إلى أو أوريجون.

قال : شركة سيكوينت بحاجة إلى خبرتك يا صديقي . كأن بات قـــد عين نفسه متحدثاً رسمياً عني إلى رؤسائه ،واستمعوا إليه باهتمام.

قلت له :- " أنت تعرف يابات طريقتي في العمل ،فأنا أحتاج إلى قاعـــة مستقلة خاصة بي تساعدني على تصميم البرامج ،ولا أود الدخول في مشـــاحنات في أي شركة لا تحقق لي ذلك ،وليست لدي النية أن أعمل في أي شركة محـــدودة الفكر والإدارة". رد بحماس " ثق بي يا صديقي"

بعدها اتصل بي أحد موظفي سيكونيت وسألني أن كنت أستطيع أن أذهب إلى أوريجون لمجرد الزيارة وتفقد الشركة وإن وافقت سيقومون بتحمـــل كـــل تكاليف السفر والإقامة ،وبذلك لم أجد ما يمنع أن أذهب للزيارة.

كنت أكن تقديرا واحتراما لصديقي بات وأعرف مدى دقة حكمه على الأمور ،وذلك أدركت إنه يتحدث عن أوريجون بمثل هذا الحماس إلا إذاكانت تستحق فعلا تلك الإشادة ،وإن لم تكن كذلك ،سأعتبرها فرصة أتيحت لي لزيارة صديق.

بعد أن وصلت ورأيت المنطقة وعرفت تفاصيل العرض الذي تقدمه شركة سيكونت لي ،مثل ذلك في مجموعه ما يمكن أن تسمية الحب من أول نظرة ،كانت إدارة الشركة كأنها تفرش تحت أقدامي أبسطة حمراء من فرط الترحيب واظهروا لي بكل الوسائل أنهم يريدونني معهم وطاف بي بات في أنحاء بورتلاند ،وكانت كما ذكر لي عبر الهاتف ،أصابني جمالها بالذهول كما كانت بساطة التعامل بين أهلها والود الظاهر في تعاملاتهم يثير الدهشة . لقد وقعت في هوى وحب تلك المنطقة على الفور.

كان من الصعب أن أدع فرصة مثل هذه تفوتني كان العرض أن اعمل لهذه الشركة الواعدة التي تنمو بسرعة كبيرة نفس العمل الذي أريده ويروقني : وهو العمل في تصميم نظم الخدمات وكان المقابل المالي أكثر من مغر . عرفت ما الذي كنت أريده ،ولكن كان علي أن أتأكد أولا من موافقة إيمي قبل الإقدام على تلك النقلة البعيدة.

كانت إيمي تشعر القلق والتوتر من الانتقال من جديد إلى موضع ومنطقة أخرى ، وكان ذلك القلق يرجع إلى تساؤلها الداخلي عما يمكن أن يحدث إذا لم أوفق في العمل الجديد ، إلا أن الجانب العملي من شخصيتها استطاع أن يرصد فوائد الانتقال إلى أوريجون . من ذلك مثلا أنه يمكننا الحصول على منزل كبير وواسع مقابل مبلغ زهيد (كانت تكلفة شراء منزل في وادي السيليكون تكلفة فلكية) وأنها أيضا منطقة ملائمة لتربية أولادنا .

وأرسلت في استدعاء إيمي وجاءت لتفقد المنطقة والتعرف على إمكانيات الإقامة والمعيشة والسكن ووافقت إيمي على الانتقال إلا أنه كانت مشكلة أخرى

كان لابد أن نجد لها حلا قبل اتخاذ القرار النهائي . فقد كنا لا نعرف أي شيء عن الإمكانيات الطبية المتوفرة لرعاية سيدة قزمة وحامل بتوأم .

تفصيلة أخيرة

كنت قد اتفقت أنا وإيمي منذ أن تزوجنا أن تكتفي بثلاثة أبناء ومع حملها في توأم نكون قد حققنا ثلثي حلمنا .

كان أطباء سان جوزيه قد أخبرونا من بداية الحمل أنهم يتوقعون أن الحمل توأما وكانوا سعداء لمعاينة حالة نادرة لقزمة حامل بتوأم لأن الحمل بتوأم نادر جدا بين الأقزام كنت أنا وإيمي على علاقة بكثير من الأقزام ،و كنا نعرف أخبارهم ،و لم نسمع إلا عن حالتين مماثلتين حدثا قبل ذلك.

كان حمل إيمي بتوأم يشكل خطورة عليها بل خطرا أكبر من أي حالة حمل لسيدة قزمة ،فكل حمل بجنين واحد لسيدة قزمة يسجل طبيا أنه حمل خطر بسبب أقزمة الأم وصغر عظام الحوض لديهن ولذلك تصبح الولادة بجراحة قيصرية شبه مؤكدة .وكان حمل إيمي ينطوي على نفس المخاطر بل يزيد عليه إنها حامل بتوأم،وقررت هي أن تخوض المحاولة حتى آخر لحظة لكي تلد ولادة طبيعية لاقيصرية. حين فكرنا في الانتقال كان لابد من التأكد أولا أن إيمي ستجد في بورتلاند الرعاية الصحية ذاتها التي كانت تنالها في سان جوزيه.

درنا على المستشفيات وسألنا كثيرا من الأسئلة وحصلنا على إجابات .كنا نبحث عن الطبيب المناسب لحالة غير مناسبة. كانت المشكلة في ندرة الأطباء الذين باشروا حالة مماثلة من قبل ، وكان اغلب من سألتهم من أطباء يعتقدون أنهم يمكنهم مباشرة حالتها .كان كل منهم ينظر إلى حالة إيمي كتحد. وكان ذلك ما أردت سماعه.

كواحد ممن يحبون التحديات ، أعتقد أن الطبيب الذي لا يقبل التحدي عليه أو عليها أن يغير عملة طبيب ويمتهن مهنة أخرى كنت مهتما أكثر من اهتمامي برغبته الشخصية في متابعة الحالة أو قبول التحدي.

زرنا أطباء وهيئة تمريض مستشفي إيمانويل في بورتلاند ،ووجدنا أكثر من رائعة ،وكانت جديدة ،و أعجبنا بقدرات الأطباء وتعاملهم مع المرضى وأيقنا أن إيمي ستحظى برعاية تامة إذا انتقلنا إلى بورتلاند وبذلك قبلنا عرض شركة سيكونت.

العثور على مترل الأحلام

لا يعد الانتقال من مسكن جديد من الأمور السهلة ولا المحببة .وهو أمر مزعج على الأخص لامرئ يجد معاناة في الانتقال بمقعده المتحرك إلى طاولة الطعام فما بالك بنقلة على شاحنة.

عند وصولي مع إيمي إلى ولاية أوريجون وجدنا منازل كثيرة في غاية الجمال واشترينا مترلا أعجبنا . وذهبت بصحبة إيمي لمعاينة مزرعة تبلغ مساحتها أربعة وثلاثين فدانا كانت معروضة للبيع واصطحبنا مكتب البيع مع عملاء آخرين لمعاينة المزرعة . لم تكن حالة المزرعة تشكل أي إغراء ،كانت تقع في نهاية طريق تحف به الأشجار من جانبيه — لم تكن مغرية لإيمي التي كانت تشعر أن التوأم سيقفز من بطنها .كانت أغلب مساحة الأرض تنمو بها أعشاب شوكيه برية وبعض أشجار التوت البري الأسود.

وكانت المترل القائم داخلها بحالها مزرية ،ولم يكن من البيوت البسيطة التي يعاد طلاؤها بسرعة وتحاط بأحواض من الزهور .كانت تحتاج إلى مجهودات فائقة حتى يمكن تحويلها إلى مكان صالح للمعيشة.

أغلب من كانوا معنا أداروا وجوههم بعدم رضا حين رأوا المترل وأغلب من يرونه بتلك الحالة لابد أن يزدروه أنا فقد رأيت فيه جوهرة إلا أنها تحتـــاج ليــد جديرة تعرف كيف تصقلها . أعجبتني تضاريس أرض المزرعة ،والموقع الــــبري الذي تقع به .حتى المترل كانت له ميزاته التي تخفي علـــى الأعــين المتعجلــة. أحسست بعين معاينة المزرعة أنها يمكن أن تتحول إلى مزرعة خاصة متميزة.

تعلمت أن أدرك جوهر الأماكن والبيوت ومميزاتها من أمي كان باســتطاعة أمي أن تكتشف في أسوأ المنازل وأقبحها شكلا مميزاتها الخافية ثم تحيله بمجــهودها إلى مترل في غاية الجمال ، تتخلص من كل ما ليس له ضرورة ،وتضيف ما هــو ضروري ولازم لم تكن حقيقة الأمر أني أريد شراء مزرعة ، بل الدخول في تحدي مع تلك المزرعة التي تبدو في حالة مزرية وتحويلها إلى مزرعة تدعو إلى الفخر وبعـد مساومات حول ثمن المزرعة حققت الثمن الذي أراه مناسبا و لم يتبق إلا إقنـــاع إيمي. قلت لها "أعرف يا عزيزتي أن المكان لا يبدو مغريا، إلا أنني على يقين أنـــه يمكن تحويلة إلى شيء متميز ،تضاريس الأرض بمرتفعاتها ، وانخفاضاتهـــا تعجبـــني ويمكننا أن نغير من المترل ، وانظري إلى تلك المساحة من الأرض — سيكون لــدي أبنائنا مساحة كافية يلهون فيها. وأظن أن هذا ما أثر فيها كما لم تكن في حالــه تسمح لها بالنقاش كانت قد تعبت من محاولات الاستقرار ،كل ما كانت تريـده أن تستلقي في أي مكان وتستريح .

قالت : " يبدو مكانا عظيما ،فلتفعل ما تراه مناسبا لنا. بعنا المترل الـــذي اشتريناه وخسرنا بعض ثمنه واشترينا المزرعة وبدأنا العمل فيها في الحال في إجـراء الإصلاحات الضرورية وتحويلها إلى مكان صالح للمعيشة ، ثم عدنـــا إلى ســان جوزيه لننقل أشياءنا.

وعبر لنا كل أصدقائنا في وادي السيليكون عن تعاطفـــهم وعـــن صـــادق مشاعرهم تجاهنا ونشروا خبرا في الصحيفة المحلية لسان جوزيه عن رحيلـــي إلى أوريجون ،وكنت أعرف أني سأفتقد كل أولئك الأصدقاء ولكني كنت مشــغولا اكثر بالتحديات التي تنتظرنا أنا وإيمي كانت لدي خطط إصلاح المزرعة ،كنــــت

أنوي إقامة تعريشة للعمل في الهواء الطلق ،و مخزن حبوب على الطــراز القــديم ،وممشى واسع ممهد للدراجات الثلاثية ليلعب به التوأم بعد ولادته ،و لم أســتطع مقاومة البدء في تلك الإصلاحات.

في خضم كل ذلك ،كنت على وشك اقتحام أعظم مغامرة في حياتي وهــي مغامرة الأبوة . كان التساؤل الذي يدور بذهني هو هل سأكون أبا لأبناء أقزامــا مثلنا ؟ كنت أعرف أن احتمالات ذلك قوية ،وحتى نهاية الحمل ،كنــا بانتظــار إجابة ذلك التساؤل.

هل هم مثلنا ؟

وبالرغم من أن حمل إيمي كان ينطوي على مخاطر كثيرة إلا أن الأطباء قــالوا لنا أنه لا يوجد ما نخشاه وكانت صحة إيمي جيدة أما عن تصنيفها في حــالات الحمل الخطر فقد وفرت لها عناية طبية كافية دون أن أهتم أن كان التأمين الصحي سيغطي تلك التكلفة أم لا .

تابع الأطباء حمل إيمي بكل دقة وعناية . كانوا يجرون لها فحص الموجــات الصوتية على الرحم كل أسبوعين أو ثلاثة ، وفي كل مرة يقول لهــا الطبيــب :"أنت على ما يرام ،أراك بعد أسبوعين"

كنا نعرف أن هنا احتمالا أن نكون أبوين لقزم ،إلا أنه لن يكــون مصابــا بأقزمة تشوهية مثل حالتي كنا نعرف أن ولد القزمين من نــوع توقــف النمــو الغضروفي (مثل حالة إيمي) أمامه فرصة تمثل ٢٥ بالمائة أن يكون طبيعيــا ،و٥٠ بالمائة أن يكون قزما مثل أبويه، و٢٥ بالمائة أن يولد بما يطلق علية جنــين ثنــائي السيادة ،وهي حالة ميئوس منها يموت الجنين أثناء الولادة أو بعدها مباشرة.

ولحسن حظنا لم يكن علينا أن نتزعج من تلك الاحتمالات لأنني كنت مــن نوع الأقزمة المشوهة وكانت إيمي من نوع توقف النمو الغضروفي .

ويعني ذلك أن المولود إذا جاء قزما فإنه يكون من نوع أقزمة أمه لأن جين أقزمة توقف النمو الغضروفي يسود على جين الأقزمة التشوهية التي أنا عليها .قال لنا الأطباء أن ولادة مولود لنا بأقزمة تشوهية احتمال نادر جدا ، لأن الأقزام المشوهين لا يورثون تلك الصفة.

تحدثنا أنا وإيمي كثيرا عن كيفية تعاملنا مع المشكلة إذا كان أحد التوأم أو الاثنين أقزاماً تحدثنا عن كل الاحتمالات ،وعما يمكن أن يكون علية الحال إذا جاء التوأم طبيعيين ولهما أب وأم من الأقزام ،وهي تجارب مر بها أصدقاء لنا .

بينما كنت أدرك أنا وإيمي طبيعة المشاكل الاجتماعية وغيرها — التي تواجه الأقزام ،إلا أننا لم نخشى أن يكون أحد التوأم أو كلاهما من الأقزام . فمن تجاربنا الذاتية قررنا أن نكون أفضل والدين لأبناء من الأقزام ،وإن جاءا عاديين من طوال القامة ،سنكون أيضاً مستعدين لتكوين أسرة يكون فيها الأبناء أطول من آبائهم عند بلوغهم سن العاشرة.

وراح الأطباء يتابعون نمو التوأم داخل الرحم بكل دقة عن طريق الموجات الصوتية حتى يرسما خطا بيانيا لنمو العظام . ونحو الشهر السادس من الحمل ، أظهرت الموجات الصوتية حقائق جديدة : توقف نمو عظام واحد من التوأم .وكان ذلك يعني أننا سنكون أبوين لقزم واحد على الأقل .

في العاشر من مايو ١٩٩٩ أصبحت أنا وإيمي والدان لطفلين ذكرين . جيرمي وهو الطفل العادي ،وزاكاري الطفل القزم.

أدهش الأطباء أن إيمي ظلت متماسكة حتى الأسبوع الرابع والثلاثين من الحمل .وهو مدى زمني مذهل لامرأة قزمة حامل بتوأم.

إلا أن الطفلين كانا ناقصي النمو ،وظلا بالمستشفى أسبوعين ونصفا زيادة ،وكان ذلك أنسب لنا حتى تسترد إيمي عافيتها بعد الولادة القيصرية كانت تحتاج إلى أكبر قدر من الراحة قبل أن تبدأ معاناة تربية طفلين. كنا على وشك خوض مغامرة جديدة في حياتنا وهي مغامرة الأبوة.

-١١-

الأبوة كقزم

كنت سعيد الحظ في جوانب كثيرة ،وفي الحقيقة يصعب سرد الجوانب كلها التي أرى إنني كنت مسعداً فيها . أنعم الله علي بأبوين تمكنا من تحويل طفولتي التي كان لابد أن تكون بائسة وحزينة إلى ذكريات جميلة .ولدي صداقات حميمة يصعب حصرها ،وأعمل في مهنة عظيمة ،واستمتعت بالنجاح الفذ في مجال العمل الذي احترته .كما أبي شاكر لله أن أنعم علي بزوجة جميلة محبة.

إلا أن هناك نعمة تقف وحدها شامخة بين كل النعم الأخرى وهى نعمة أتاحت لي تحقيق الذات في جوانب كثيرة ،و تتحداني كي أحقق المزيد ،وتمنحني إحساساً عميقاً بالمسئولية، ووجود هدف وأن هناك من يحتاجني .إنني أتحدث عن هبة من أعظم الهبات التي تترتب على الحياة الزوجية وهي هبة أن تصبح أباً .

ومثل أبناء أبي : روث، ماثيو ،صموئيل، وجوشوا (يوشع) كان أبنائي أنا أيضاً يحملون أسماء دينية: جيرمي(إرميا) ،وزاكاري (زكريا) ،وجيكوب (يعقوب) وموللي على أي حال اسم موللي مشتق من مريم .وزاكارى هو الوحيد الذي جاء قزماً.

دائماً نقول أننا أكثر الأسر اكتمالا وتوازنا — إلا أن موللي تحتج على ذلك بأنها بنت واحدة بين ثلاثة ذكور – ، لأن أسرتنا مكونة من ثلاثة أقزام وثلاثة طبيعيين. وعلى قدر ما نعرف ،فنحن الأبوان القزمان اللذان انجبا أربعة أبناء طبيعيين ،وكذلك من النادر أن ينجب قزمان توأما ، ولكن أن نكون زوجين قزمين بأربعة أبناء ، فهذا تفرد .

بعد إنجاب أبنتنا موللي (وهي الثالثة في الترتيب)، قررنا أن نكتفي بذلـك ، إلا أن مشيئة الله كانت غير مشيئتنا ، فوهبنا هبـة جديـدة ، ابننـا الأصغـر يعقوب،مشيئة الله تنفذ دون استشاراتنا.

حين كانت إيمي حاملا في بيعقوب ،كان لأبنائنا الثلاثة أمنيات في الجنـين القادم ،تمنت موللي أن يكون أنثى حتى يكون لها أخت،وتمنى جيرمي أن يكـون ولداً .أما زاكاري فقد تمنى أن يكون القادم قزماً حتى يكون له شقيقا قزما مثلـه كان له أبوان قزمان إلا أنهما لم يكونا أطفالاً أقزاما يلعبون معه.

لم يولد وجيكوب قزماً وكان ذلك مبعث سرور كل أفراد الأسرة بما فيـهم زاكاري. كأبوين ،كان من الممتع أن تشاهد أبناءك يكبرون بدنياً وفكريا ودينيـا – وتبدأ في ملاحظة ورصد الفروق والتباينات التي تظهر بين شخصياتهم .

وأحيانا وأنا بصحبة أبنائي ، أتساءل كيف يمكن أن يكون لكل منهم ميـول شخصية مختلفة مع أنهم نشأوا جميعاً معا. كل واحد من أبنائي كان له تفـرده . جيرمي وزاكاري وموللي متشابهون في جوانب كثـيرة ،إلا أنهـم مختلفـون في جوانب أخرى .كنت أرصد جوانب الذكاء والمهارات والمكونات الشخصية التي ستؤدي بكل منهم إلى مسارات مختلفة في الحياة مع تقدم نموهم.

ويدهشني في أحيان كثيرة عمق الحب الذي أشعره تجاه أبنائي. كنت قبل أن أصبح أباً أسمع من الآباء لا يمكن فهمه تماما ولا إدراك عمقه إلا بعد أن تصبح أبا. والآن وأنا أب، أصبحت أدرك ذلك .

أنا أحب أبنائي اكثر من حبي للحياة ولا يوجد ما يمكن أن أحجم عن عمله من أجل العناية بهم وحمايتهم والتأكد من راحتهم.

ليست أسرتي مثالية تماما، فهي مثل كل الأسر، فيـها صراعـات ، ونمـر بأوقات نكون فيها في أدنى الأحوال المعنوية ، وأوقات نحتاج فيها إلى كل قدر من الصبر حتى نستمر كأسرة ولكني أشعر بسعادة كبيرة حين أرى أنـني وزوجـتي وأبنائي نمضي معاً في جو من التحاب الأسري.

ليس من السهل أن تكون أبا ، أتذكر حين كان جيرمي وزاكاري (التوأم) في الثالثة من عمرهما كنت قد اصطحبتهما في سيارة النقل الصغيرة في جولة حول المزرعة ، وقررنا أن نستكشف منطقة من المناطق عبر منحدر تليه أشجار برية كثيفة مثل غابة ثم عبر جزء مكشوف إلى خور ماء . حين كنت أعبر الخور بالسيارة انغرست إطارات السيارة في الطين و لم أتمكن من إخراج السيارة من الموضع الذي غرست فيه بالرغم من أن الولدين كانا يدفعان من الخلف بكل ما أوتيا من قوة. لم تكن معي عكازاتي وأحسست أنني وقعت في مصيدة ووجدت في ذلك الموقف فرصة ملائمة أعلم فيها أبنائي الثقة بالنفس والتي لا يصل إليها أي امرئ إلا بتنمية قدرته على التغلب على المواقف الصعبة التي يواجهها.

سألت جيرمي : " هل تستطيع أن تصل إلى البيت وحدك ؟ "

كان البيت على بعد ميل وعبر أماكن لم يصل بها من قبل ولا يعرفها أجاب بلا يقين "أظن ذلك"

وشت نبرة صوته بقدر من الاهتمام والإثارة ومواجهة التحدي.

قلت له :" عظيم ستكون بطلا حقيقيا إذا استطعت أن تعرف الطريق إلى البيت وتطلب من أمك أن تحضر بالسيارة الجيب وسلسلة معدنية لقطر السيارة"

لابد أن أعترف أنني كنت مشدود الأعصاب حين كان جيرمي يرتقي إلى أعلى التل شاقا طريقة إلى مزرعتنا مخاطر كثيرة من الممكن أن تحدث لطفل في الثالثة من عمرة وخفف من تلقي إدراكي أننا محاطون بمزارع كثيرة ، فإن تاه وضل طريقه فسيعثر عليه من يعملون بتلك المزارع وخمنت أنه يمكن أن يصل إلى البيت دون أن يضل الطريق وأن ثقته بنفسه ستنمو وتزداد حين ينجح في تحقيق مهام والتغلب على تحديات.

لم يمض ما يزيد على ساعة حتى رأيت إيمي قادمة بالسيارة ومعها جيرمي في المقعد الأمامي ليدلها على الطريق وعلى الموضع الذي كنت به أنا وزاكاري. الأبوة مليئة بكل أنواع التحديات ، وكثير منها ما كان طي الغيب، لم يصادفني

بعد كل يوم يمر على أي أب لابد أن يكون مليئا بألوان جديدة من المشاكل وألوان من الانتصارات أيضا.

وقعت في أخطاء كثيرة كأب ، إلا أنني ممتن أيضا لقدرتي على تطويع نفسي حتى أكون جديرا بالأبوة

هناك دائما شيء مخيف ومثير حين أدرك أنني مسئول عن تشكيل حياة أبنائي الأربعة ولا يوجد تحد يوازي تحدى الأبوة في العالم بأجمعه وهو بالطبع نوع التحدي الذي أحب أن أواجهه.

تعليم الأبناء ما هو مقبول

من التحديات التي واجهتها أنا وإيمي كقزمين لديهما أربعة أبناء أن تعاونهم على الفهم والاستجابة المنضبطة للفوارق بين أسرتنا وأسر أصدقائنا

ومما جعل من ذلك التحدي تحديا حقيقيا أن أبناءنا لا يعرفون أي نمط لحياة أخرى غير أسرتنا. كانت أسرتنا بالنسبة لهم الشكل الطبيعي للأسر، ذات مرة سألت طفلة صغيرة ابنتنا موللي وكانت في نفس عمرها عما أصاب أمها إيمي وجاءت إجابتها التي نشرت بعد ذلك في صحيفة محلية إجابة تلقائية غريبة ، إذ قالت لها "هل جننت إنها مجرد أم صغيرة ، ألا ترين ذلك".

لم يكن الأطفال يعرفون مدى ندرة وجود أسرة كأسرتنا، لم يدر بذهنهم أن الناس لا ينظرون إلينا من نفس منظورهم هم، أردت أنا وإيمي أن نغرس في أطفالنا مفاهيم صحيحة عما يمكن قبوله ومالا يمكن قبوله من سلوكيات في المواقف الاجتماعية المختلفة.

حين نكون في أحد المتاجر للتسوق ، نتوقع منهم أن يسلكوا سلوكا حسنا ، وأن يتحدثوا بصوت على مستوى مقبول ،و أن يظلوا بالقرب منا. علمناهم أنهم سيرون بعض الناس يسلكون سلوكا رديئا غير مقبول، وأن هناك طرقا ملائمة

للتحدث وأشكالا ملائمة ومقبولة من السلوكيات وأن هناك أشكالا مقبولة لـرد الفعل تجاه من يسلكون سلوكا سيئا حين يشاهدوننا كقزمين ولنا أربعـة أبنـاء علمناهم أنهم في خضم الحياة لا يسلك دائما كل الناس سـلوكاً مـهذباً ، وان بعض الناس قد تخرج منهم عبارات غير مهذبة أو تخلو من الكياسة، وأفهمناهم أن بعض تلك العبارات التي قد لا تعجبهم أو تلقي استحسانهم قد يكون السـبب وراءها أن الأقزام يبدون في نظرهم كائنات مختلفة ، وأن تلك التعليقات التي تخلو من التهذيب قد تكون ناتجة عن جهل قائلها وأنها نادرا لسوء الحظ تكون عـن قسوة متعمدة وأنهم إذا سمعوا أطفالا يقولون :" انظروا إلى الأب و الأم القزمـين " أو يستعملون لفظ " المسخوطين " فإن ذلك راجع لجهلهم بما يكون عليه الأمـر إذا كانوا هم أنفسهم أقزاما أو أن يكون أحد آبائهم من الأقزام لا يعرف أغلـب الناس ماذا يكون رد فعلهم الفوري حين يرون قزما، علمناهم أيضـا أن أغلـب الأطفال في عمرهم لا يعرفون ما هو القزم ولا يعرفون حتى أن مثل أولئك البشـر موجودون لأنهم لم يروا إلا بشرا عاديين.

أردنا من أطفالنا أن يتصرفوا بحكمة إذا رأوا أو سمعوا ما لا يسر . أردنا مـن جيرمي أن يكون لديه ولاء لزاكاري وأن يحميه إذا عامله أحد بطريقة سـيئة . إلا أننا علمناه أن يفعل ذلك بطريقة ملائمة.

أردنا لجيرمي أن يعرف كذلك زاكارى وموللي وجيكـوب — كيـف يسلك إذا تلفظ الغير بألفاظ مسيئة وأوتوا بأفعال غير ملائمة.

أردت أن ينشأ أولادي على احترام الناس والتعاطف مع المختلفين عنـهم -- المعاقين والمصابين بعاهات والذين يختلفون عنهم في اللغة والمنتمـين إلى أعـراق وأجناس أخرى.

كل تلك المواقف والسلوكيات والأخلاقيات تبدأ في غرسها فيـهم في تلك المنازل لأن لأبنائي أبوان قزمان ،وأبا يعرج مستنداً إلى عكازين في أمـاكن عامة مثل المراكز التجارية الكبرى ومحال البقالة.

أردت من أبنائي أن يحترموا الآخرين المختلفين عنهم ولأن زاكاري شقيقهم كان قزماً فإن ذلك أتاح لنا الفرصة لجعلهم يفكرون فيما يكون عليه حالهم لو كانوا هم أيضا أقزاما، وعلمناهم كيف يكونون مريحين للغير دون أن يكونوا عبئا ثقيلاً.

كان هناك رباط خاص يربط ما بين جيرمي وزاكاري لأنهما كانا توأم ، كانا يسلكان نفس السلوك في المرح ،ولهما كثير من الأصدقاء المشتركين وحين يكون لديهما جمع الحبوب أو في نفق المنجم وفي بيت الأشجار الذي شيدته لهم.

ويبذل زاكاري مجهوداً كبيرا حتى يجاري باقي الأولاد ،إلا أن ساقيه القصيرتين كانتا تخذلانه في مسايرة الأولاد وهم يهرولون فيعود باكيا وشاكيا أخاه جيرمي الذي تركه في الخلف . و نجد في مثل ذلك الموقف فرصة عظيمة أن تعلم كل منهما درسا .نعلم زاكاري ألا يلوم أخاه أو يشعر تجاهه بالمرارة حين لا يستطيع مجازاته هو والأولاد وأن يطلب من أخيه دون غضب أن تنتظره حتى يلحق بهم . أما جيرمي ،فإننا نعلمه حين تأتي الفرصة أن تنفرد به دون أخيه التوأم القزم أن عليه أن يهتم بأخيه ونذكره أن الأولاد الذين يأتون للمترل هم أصدقاء زاكاري أيضا ،وأنه لابد له أن يرعى أخاه حين يكونان بالخارج .

التعاطف مع ابننا

مثل العمل العظيم الذي قامت به والدا إيمي وأبواي في تربيتنا ونحن أقزام، ورعايتنا لتخطي الأوقات العصيبة التي تسببها لنا أقزمتنا ،كانت هناك ميزة في تربية زاكاري لم تتوفر لنا مع آبائنا : لقد كنا ندرك ما يكون عليه شعور المرء حين يكون قزماً في عالم من طوال القامة.

ومع أن أبوي كانا محبين وعطوفين علي وكانا عظماء في تربيتهم لي وعبورهم بي وبأشقائي كل المصاعب والأزمات التي واجهتنا من جراء المشاكل البدنية التي ولدنا بها ، إلا أنهما لن يعرفا أبداً ما يشعر به المرء إذا كان قزماً ،

هناك حدود لفهم لذلك ،فهما ببساطة لم يريا العالم أبدأ بعيني إنسان لن يزيد طوله عن أربعة أقدام.

كان زاكاري يعرف ويدرك أنه مختلف عن أشقائه وشقيقته ، وعن أصدقائه وعن باقي الأطفال في المدرسة ،وكان يعرف انه مثل أبيه ومثل أمه ،وكان يدرك أن هناك أقزاما آخرين في هذا العالم وكنا أمناء مع زاكاري بصدد ذلك الاختلاف وتلك الفوارق لم نزوق الحقائق .ودون أن نثبت في نفسه الخوف وندفعه للتقوقع ،حاولنا أن نجعله يدرك أن الحياة كقزم ستكون قاسية عليه في بعض الأحيان إلا أننا حاولنا أيضا أن نجعله يدرك أن بإمكانه التغلب على كل المشاكل ،وأن بإمكانه أن يحيا حياة سعيدة كقزم ، بالضبط كما فعل أبوه وأمه.

علمنا زاكاري أن الثقة بالنفس لابد أن تنبع من داخله ،لأنها لن تأتي أبدا من العالم الذي حوله . علمناه أن يستمد الثقة بالنفس من حقيقة أن الله هو الذي خلقه هكذا ، وأن الله لا يخطئ في شيء .علمناه أنه قيمة وجوهر ، قيمة غالية لديها الكثير الذي شيء تقدمه للحياة وأنه لا يوجد عيب به ، لا يعدو الأمر إلا أن يكون مختلفا حجماً عن الناس الذين يحيا بينهم.

علمنا زاكاري أيضاً أن يمضي إلى ما هو أبعد من مجرد كونه حياً ، وأن يستخدم مهاراته ومواهبه لإثبات وجوده . لقد كانت تلك التربية هي ما نشأت عليه أنا ،وهي ذاتها التي أرشحها في وعي أبنائي .وأنا أومن أن كل أب — خاصة من لديه طفل قزم أو ذو عاهة أو إعاقة بدنية — لابد أن ينشأ أولاده على تلك القيم والمبادئ والأفكار .وأؤمن أيضاً أن الأب الذي ينشئ أولاده وعينه على مجرد الحياة والبقاء لا على إجادة كل ما يعملون فإن ذلك يعلمهم أن يكونوا محدودي الأهداف ويرضون بالحدود الدنيا من أي شيء .

وفي الوقت الذي كنا نظهر فيه التفهم والتعاطف مع زاكاري ، إلا أننا لم ندلله . و لم يدللنا آباؤنا بالرغم من أنهم خاضوا مشاق كثيرة وصعبة ليجتازوا

بنا إعاقتنا البدنية ،و لم يسمحا لي أبداً أن أشعر بالرثاء لحالي أو أن أكون في موضع يجعل الناس يشفقون على فيه كقزم.

كان والدا إيمي على نفس الحال ،عاملاها المعاملة ذاتها التي عاملا بها باقي أبنائهما، كان الهاتف مثبتا عاليا على الحائط لا تستطيع أن تطوله ،فـــإذا أرادت استعمال الهاتف ،كان عليها أن تحضر مقعداً وتصعد فوقه وإذا كانت هامتـــها لا تصل إلى الطاولة التي تخبز أمها عليها الحلوى ،كان موقف والديها هو أن عليها أن تكيف العالم مع احتياجاتها .

قد يبدو ذلك كله وكأنه نوع من " الحب القاسي " ،وأعتقد أنه كذلـك في بعض جوانبه ، تلك الأنواع من الدروس من الأفضل أن يتم تعليمها في البيـــت حيث يتوفر مناخ من الحب والإحساس بالأمان . في مناخ المترل نعلم زاكـــاري كيف يتكيف مع العالم باستخدام عقله وتفكيره، نعلمه ألا يحاول أن يتمـــرأس أو يتحامل على أحد ، وأن يتخذ مواقفه حيال ذاته بلا تطرف وألا يشعر بالدونيـــة بسبب ضآلة حجمه .

بداية قاسية

كان زاكاري طفلا ذا طبيعة سمحة لينـــة ، ســـعيدا ومبتســـما اغلـــب الأوقات. إلا إنه كان كثير المرض، كان يمر بحالات يصيبه فيها نوبات من القـــيء المستمر ، يتقيأ فجأة بلا سبب واضح ثلاث أو أربع مرات كل أسبوع. لم تكـــن تلك مشكلته الوحيدة . لم نعرف أبداً سببا لتلك العلة ، وكان هناك شيء آخـــر ، لم يكن ينمو بدنيا بالمعدلات التي ينمو بها من هم أقزام مثله ،ومر بأزمات شديدة كانت تحتاج إلى أقصى درجات الاهتمام والعناية ، وقعت أشد تلك الأزمـــات وأقساها وأكثرها رعباً لنا في فبراير عام ١٩٩١ ، حين كان في الشهر التاسع من عمره.

كان أبي وأمي قد أتيا من كاليفورنيا لزيارتنا ، وكالمعتاد كانا يقضيـــان كل وقتهما مع أحفادهما وفجأة وبلا أي مقدمات أطلق زاكاري أنينا مثل أنـــين المريض،ثم تيبس ،ثم توقف عن التنفس ، ثم بعد ثوان كان يضحك ويلعب مــــع جدته ،وبعد ثانية أصبح رخوا كعروس دمية مصنوعة من قماش لين لم يكن هناك موضع لشك أن زاكاري كان يموت، بدت عليه كل إمارات الموت . ثبتت عينـله ولا تتحركان ، و تيبست أطرافه ، و تحول لونه إلى لون مرعب أقرب إلى الأزرق وتساءلت أن كانت هذه نهايته . لقد مرض قبل ذلك كثيرا ،ودار بذهني أن هـــذه المرة ستكون آخر معاناة له.

وحين أسرعت إلى الهاتف وأدرت رقم ٩١١ ،تذكرت بعد المســـافة الـــتي تفصلنا عن المدينة ،وكم يستغرق فريق الإغاثة الطبية حتى يصل إلينا.

وحين رد من بالطرف الثاني قائلا :" تسعة واحد " حاولت قصـــارى جهدي أن أبدو هادئا وأن أخبره بالوقائع المجردة ، قلت له : " لدي ابن يبلغ تسعة أشهر من عمره وهو مولود بتوقف النمو الغضروفي وقد توقف عن التنفس "

سألني مستقبل المكالمة : " أين هو الآن "؟

قلت :" إنه الآن مع أمي "

قال :" حسنا ، مدده على الأرض"

قلت لأمي :"مدديه على الأرض "

قال المعالج على الهاتف بهدوء :"ضع إصبعا في فمه ونظف كل ما تجد أنـــه يعوق تنفسه".

قلت :"ألا يكون من الأفضل أن نضعه في السيارة ونأخذه إلى المستشفى"

قال المعالج عبر الهاتف :"هل تريد أن تتكلم أو أن تسمع ؟"قلت أريد أن أسمع قال:" قل لأمك أن تضع فمها على فم الطفل وتنفخ ثلاث نفخات"

قلت :"انفخي يا أمي في فمه ثلاث نفخات"

بدأت أمي في هدوء تجري لزكاراي تنفساً من الفم إلى الفم . كانت قد فعلت ذلك من قبل مرات لا تحصي لأختي جوشوا.

ثم سمعت زاكاري يئن وبدأ في التنفس، صرخت في الهاتف "إنه يتنفس إنه يتنفس "وبعد دقائق وصلت سيارة الإسعاف لتنقله إلى المستشفى. ظل زاكاري في المستشفى عشرة أيام ، وعالجه الأطباء مما عرفنا فيما بعد أنه كان فيروسا تنفسياً أصابه،وهي حالة كانت ستماثل أعراض البرد لو كانت لا تعني إلا موتاً مبكراً.

كانت تلك أسوأ أزمة في حياة زاكاري المبكرة ، إلا أنه مر بمحن أخرى . كنا نعرف أن هناك خللا ما في زاكاري . لم يكن يستطيع أن يرفع رأسه دون أن يبذل مجهودا خارقاً كما لم يكن ينمو النمو المتوقع لأمثاله . اصطحبناه إلى كثير من الأطباء و لم يتوصل أي منهم إلى معرفة طبيعة مشكلته . قال أغلبهم أعطوه فرصة لبعض الوقت ،وأنه سيمر من تلك الحالة مع تقدمه في العمر.

كان زاكاري قد أوشك على إتمام الثانية من عمره حين قررنا في اللحظة الأخيرة أن نصطحبه معنا إلى مؤتمر الأقزام عام ١٩٩١ في مدينة دالاس بعدما عرفنا أنه سيكون بالمؤتمر أطباء متخصصون في حالة أقزمة توقف النمو الغضروفي، كان من أولئك الدكتور تشارلز الاستشاري بالهيئة الطبية العليا لجمعية الأقزام الأمريكية والمتخصص في حالة توقف النمو الغضروفي.

وتوجهنا لمقابلة دكتور سكوت ، وقرر على الفور أن زاكاري يعاني من مشكلة خطيرة . قال:" إنه ليس على ما يرام ، لديه مشكلة خطيرة " . وقال إنها حاله تصيب الأطفال الأقزام المتصل من نوع توقف النمو الغضروفي ،وأن تلك المشكلة تعود إلى انضغاط قاع المخ المتصل بالنخاع الشوكي عبر فتحة "الثقب الأعظم" الموجود بقاع الجمجمة ،وان الفتحة أو الثقب به ضيق لا يستوعب النخاع الشوكي . بدا تشخيصه دقيقا لأن زاكاري كان يعاني فعلاً من أعراض تلك المشكلة.

طرنا من دالاس إلى كلية طب جون هوبكنــز في بالتيمور ،وهناك فحص زاكاري أطباء متخصصون في طب الأقزام .وهناك عرفنا أن مشـــكلة زاكـــاري كانت بسبب حالة تعرف باسم " المخ المائي" وهي حالة زيادة السائل النخـــاعي في المخ بسبب ضيق قنوات تصريف ذلك السائل . وعرفنا أن كل الأقزام الذيـــن ترجع أقزمتهم إلى توقف النمو الغضروفي يعانون من حالة زيادة سائل المخ بدرجة من الدرجات تصل في أقصاها إلى حالة زاكاري .

كان لابد من إجراء جراحة لزكاري لتركيب صمام معدني لتصريف السائل النخاعي من قاع المخ. كنا في غاية التوتر النفسي والعصبي حين أدخلوا زاكـــاري قاعة العمليات الجراحية لإجراء تلك الجراحة له . كنت أريد أن أتأكد أنه بـــين أيدي جراحين متخصصين في جراحات الأقزام ، لقد سمعت قصصاً مرعبة عـــن أقزام ،وهناك أطباء كثيرون يعتقدون أنه لا توجد فوارق بين جراحات البشـــر العاديين وجراحات الأقزام ، إلا أنه بالفعل توجد فوارق ،وأود دائماً أن أتأكد أن من يجرون جراحة لابني أو لي أو لإيمي يدركون أن هناك فوارق.

كيف نفعلها ؟

كنا نتساءل كثيراً أنا وإيمي عن كيفية التعامل مع المواقف التي تواجهنا بسبب كوننا أبوين لأربعة أبناء . لقد مررنا بالفعل ببعض تلك المواقف – بمـــا فيـــها إشراف أحد أبنائنا على الموت – ومررنا بتلك التجربة بنجاح كنا ندرك أنها مجرد بداية ،وأنه مازال أمامنا عقدان من الزمن من تربية الأبناء.

وأتساءل أيضاً كيف أتصرف حين تصبح ابنتي الجميلة موللي شابة صغيرة ، حين يبدأ الشباب في إظهار اهتمامهم بها ويحومون حولها – تجعلني غريزة الأبـــوة لا أحبهم – وأتساءل كيف يكون رد فعل إيمي حين يأتي إليها ابنها الأصغـــر ذو الأكتاف العريضة والصدر الواسع ويخبرها أنه يريد أن يمارس لعبة خطيرة مثـــل

لعبة كرة القدم الأمريكية العنيفة . وكيف نعالج صدمات قلوبهم في الحب الأول عند انتهائه وضياعه والذي غالبا ما يقع للمراهقين ؟

وكيف يكون رد فعلنا إذا جاءت نتائج الامتحانات الدراسية غير مرضية ومظهرة أنه مطلوب بذل عناية ومجهود اكبر ؟

ما الذي نقوله لأبنائنا إذا عادوا من خارج البيت وقالوا لنا أنهم ارتكبوا أفعالا وضيعة مثل تلك التي يرتكبها الأولاد الذين لا يلقون رعاية من أهلهم؟ وكيف نتعامل مع موقف يعود فيه زاكاري من الخارج متألما من قول جارح وجه إليه لكونه قزما؟

بالطبع نستمر مثل كل أب وكل أم ، سنداوم أنا وإيمي على وظيفة الأب و الأم .وسنقع في أخطاء ،ونخسر بعض المعارك ،ونشعر بأننا غير أكفاء في بعض الأحيان.

إلا أنني أعرف أننا سننجح ، وأننا سنعشق كل دقيقة نحياها كأبوين.

-١٢-

الحياة في عالم طوال القامة

يقول "بيلي بارتي" مؤسس جمعية أقزام أمريكا :"لا تدرك مدي التفرقـــة وهول المأساة كقزم إلا بعد أن تدخل دورة مياه في أي مكان لتجد أن المبولة فــوق هامتك"

وأنا على يقين أن من صمموا دورات المياه العمومية لم يكن لديـــهم أي إحساس بالأقزام ولا أي مراعاة لوجودهم . وذلك المثال الذي ذكره بيلي ما هــو إلا مثال لنوع واحد من المشاكل التي نعانيها نحن الأقزام في حياتنا اليومية، فعــالم طوال القامة لا يجري التغيرات الملائمة التي تناسب احتياجاتنا وتجعل حياتنا ممكنة مثلهم.

وصدر قانون أمريكي خاص بالمعاقين عام ١٩٩٠ كان الهدف منه جعـــل مجالات الحياة الأمريكية اكثر يسرا للمعاقين ،وتحسينات أخرى عديدة في أوجـــه الحياة أدت إلى تسهيل حياة المعاقين وضمنهم الأقزام ، إلا أن هناك كثيرا مطلوبـــا تحقيقه حتى يستوعبني المجتمع أنا وأمثالي من الأقزام والمعاقين.

أما ماعدا ذلك كما تعلمت من حياتي فإنه يتوقف على المعـــاق ذاتـــه. كونك قزما فإن ذلك يغير الأمور.

في عام ١٩٨٥ ظهر فيلم "أطلق عليهم النار" قام ببطولته كيفن كلايـــن " ، لاحظ بادن وجود عاملة مشرب اسمها في الفيلم ستيلا (أدت ذلك الدور لنـــدا

هنت) كانت تعمل خلف طاولة المشرب واقفة على سلم صغير صممته لنفسها حتى تتمكن من خدمة الزبائن .

وأعجب بادن بذكاء ستيلا ، وزاد إعجابه وتأثره حين قالت له :" يصبح العالم ما تفعله أنت به يا صديقي .. إذا لم يكن العالم ملائماً لك ، غير ما يلزم فيك لتتلاءم معه"

وأنا كقزم يحيا في عالم من طوال القامة ، أدرك مدى صدق ما قالته ستيلا . نحن الأقزام نحيا في عالم يواجهنا بمشاكل لا يأخذها أغلب الناس في اعتبارهم ولا ترد على أذهالهم . وأنا أتحدث بالطبع عن جوانب يتعامل معها أغلب الناس على ألها مسلمات ، أغلب أمور الحياة اليومية فيما يمكن أن يرد على ذهنك أو لا يرد من الممكن أن يصبح بالنسبة للأقزام سلسلة متصلة من الإحاطات اليومية .

وتعلمت أن أجري بعض التغيرات في عالمي الصغير الخاص بي ، بعضها خاص بالعالم المادي ،وبعضها خاص بالجانب المعنوي واحتياري لما أريد.

مثال سخيف من تلك الأمثلة يتعلق بكيفية ونوع القهوة التي أشربها ، كل من يعرفني يعلم مدى حبي لشرب القهوة المستمر ، فأن أحتسيها في المترل ،وأنا سائر في الطريق ،وأثناء السفر بالطائرات ،وفي اجتماعات العمل ، في كل تلك الأحوال أشرب قهوتي سوداء وبدون سكر . وحين أتساءل ما الذي عودني على شربها سوداء بدون سكر أجد أن السبب قد بدأ بصعوبة وصولي إلى الكريمة والسكر في محال بيع للمشروبات فكر في المسألة على هذا النحو وفي المرة التالية التي تذهب فيها إلى محل للمشروبات أنظر أين يضعون السكر والكريمة . بل أنني لا أتمكن من رؤيتهما في أي مشرب هذا فضلاً عن إمكاني الوصول إليهما . لذلك اعتدت شرب القهوة سوداء وبدون سكر ،و يجعلني ذلك أتساءل هل كنت سأكون محباً للقهوة بالسكر والكريمة؟ لو كنت طويل القامة لأمكنني الوصول إلى

السكر والكريمة الموضوعين على الدوام على الأرفف العاليـــة ؟ أو لـــو كـــانوا يضعونها على أرفف أوطأ؟

بذلك طوعت اختياراتي فيما يخص احتساء القهوة وحدث ذلك دون وعـي مني أو تخطيط ، إلا أن هناك جوانب أخرى تستدعي تفكيرا أكثر وبذل مجـــهود أكبر حتى أعتاد عليها ، أشياء يومية إلا أنها ذات أهمية مطلقة لاستمرار الحياة.

فكر في مدى صعوبة الأمر على امرئ يبلغ طوله ١٢٠ سنتيمترا إذا أراد أن يتبول في دورات المياه العامة والتي تم تصميم ارتفاعات مباولها لتناســب البشــر العاديين ، أو حين أريد مثلا استخدام الهاتف العمومي أو منافذ الصـرف الآلي في البنوك التي لا أتمكن حتى من رؤية لوحة المفاتيح والأزرار الخاصة بها ،وحين أريد شراء وجبة من مطاعم الوجبات السريعة حين أجد أن طاولات البيع أعلى مـــن هامتي ولا أرى البائع الواقف خلفها ،أو عند التسوق من المتاجر حين أجـــد أن نصف ما أريد شراءه موضوع على أرفف يستحيل أن تطولها يداي.

فكر أيضا في أنواع المشاكل التي تواجهني داخل المترل العادي حين أجد كل أسطح الأثاثات بالمترل أعلى من هامتي . حتى رذاذ ماء الاستحمام تم تصميمـــه لبشر تبلغ قامتهم أطول من مائة وخمسين سنتيمترا. وكذلك لا يمكنني أن أتطلـــع من نافذة . حتى أصابع تعليق الملابس في خزاناها لا أستطيع أن أطولها. أما صعود درج أي سلم فإنني أقضي فيه وقتا طويلا مجاهدا من درجة لأخرى لأن ارتفـــاع كل درجة مصمم لبشر لهم سيقان عادية.

زد على ذلك العمل في شركة كل ما فيها من الباب حتى أصغـــر محتـــوى داخلها تم تصميمه لاستخدام عاديي القامة والتي لا تتناسب حتى مكاتبها مـــع امرئ في طولي . فكر ولو للحظة كيف أن قصر قامتي يؤثر على أشياء بسيطة مثل إمكان قيادة سيارة ، أو صعود درج باب سيارة عامة ،أو الجلـــوس في قاعـــة سينما، أو استعمال وسائل الترفيه في مدن الملاهي ، أو التجول بأمان في حديقـــة مزدحمة.

تلك بعض المشاكل التي يتعامل معها الأقزام كل يوم . بعضها مضايقات صغيرة ،وأكثرها عبئا لا يطاق ، بعض الجوانب يمكن تعديلها لتلائمنا،و بعضها يتطلب أن نغيره نحن فقد عدلت سيارة الأسرة حتى تتلاءم دواسة الكابح ودواسة الوقود مع طول سيقاني أنا وإيمي دون أن يكون صعبا على طوال القامة قيادتها.

الملابس أيضا تشكل صعوبة فائقة ما لم تكن على درجة من الغنى تتيح لك أن تفصل ملابسك على مقاساتك الخاصة . أن ضبط الملابس — وأحيانا ما تحتاج إلى تغييرات جوهرية — ضرورة لا غنى عنها إذا أردت أن أرتدي ملابس ملائمة ليس من العسير على أغلب الأقزام شراء ملابس جاهزة، بعض الأقزام يشترون مقاسات الأطفال ، وأغلبنا يشتري مقاسات طوال القامة ثم نضبطها بعد ذلك على سبيل المثال ، أشتري سراويل جينز ماركة ليفيز تلائمني من الوسط ، إلا أن طولها يكون فائقا . كذلك يمكنني شراء المقاسات العادية من القمصان الرجالي وأجد أنها تناسبني عند الأكتاف والصدر ـــ إلا أن الأكمام تكون طويلة جدا . ومن حسن حظي أن زوجتي ماهرة في إجراء التغييرات الملائمة لي.

حين أعدنا تصميم بيتنا ، أجرينا أيضا بعض التغييرات التي تلائمنا ، وأغلب الناس لا يلاحظون تلك التغيرات على سبيل المثال ، عدلنا ارتفاع درجات السلالم ، وكذلك النوافذ جعلناها أوطأ حتى نتمكن من الرؤية عبرها دون الاستعانة بمقعد للصعود عليه . المطبخ كبير وواسع مثل أي مطبخ آخر ، إلا أن إيمي اعتادت استعمال المقاعد والصعود فوقها ، وكذلك اعتادت استعمال أدراج المطبخ كسلم للصعود لارتقائها والوصول إلى الأرفف العالية — كانت تفتح أوطأ درج حتى آخره ، وتسحب الأعلى منه بدرجة أقل ،وهكذا حتى الأدراج إلى ما يشبه السلم.

قررنا قبل إعادة تجديد المترل ألا نجري كثيرا من التغيرات حتى لو قررنا أن نبيعه في يوم ما نبيعه دون خسائر كبيرة، فالبيت الذي يتم تغييره بالكامل ليلائم الأقزام ستكون فرصة بيعه عسيرة وبقيمة أقل كثيرا من قيمته الفعلية لأن المشتري يعرف أن عليه إعادة تصميمه حتى يلائم طوال القامة . وكان من حسن حظنا

أيضا أنني لم أعد المترل بأكمله لأنني رزقت بثلاثة أبناء من طوال القامة ، هذا عدا أصدقاء وزوار أبنائنا أنا وإيمي أن نبني مترلا آخر بالمزرعة وان يكون تصميمه كلـه ملائما لطولينا.

الحملقة ، وأسئلة كثيرة، وتعليقات

مما يتعلق بعلاقتي بالناس ويشكل لي تحديـات لا تنتـهي مسـألة التحيـة والمصافحة . كنت أرغب على الدوام في التقدم باتجاه امرئ ما وأنا أنظر باتجاهـه عينا بعين ،و أصافحه بقوة كما يتصافح الرجال رجلا لرجل . ولكني لكي أفعـل ذلك ،على الشخص الذي أصافحه أن ينحني لأسفل.

هناك جوانب أخرى اكثر أهمية نواجهها نحن الأقزام حين نتعامل مع طـوال القامة في المواقف الخاصة أو العامة وهي كيفية استجابتي الفورية للطريقـة الـتي يعاملني بها الناس — كبارا أو صغارا حين يرونني لأول مرة .

لم يمض وقت طويل من بداية تكون وعيي حتى أيقنت أنني مختلـف عـن الآخرين وأنني اجذب انتباههم وكلما كنت في مناسبة أو خارج المـترل — في الكنيسة ، في المتجر ، في المطعم - يحملق الناس في اتجاهي ، حين يرونني فـإلهم يرون كائنا مختلفا يستدعى منهم أن يحملقوا لثوان زائدة باتجاهي ثم يلقون نظـرة ثانية وثالثة وكلما صعب عليهم تحرجا إلقاء نظرة أخرى وهم يعرفون أنه ليـس من اللائق ولا من التهذيب فعل ذلك ، إلا الهم لا يقاومون فضولهم ويحملقـون من جديد .

اعتدت ذلك على مدى السنين ، وتوصلت إلى وسائل لمواجهـة تلـك المواقف والتعامل معها . كان أبي قد علمني كيفية مواجهة فضول الناس . اعتـاد أبي أن يقول لي حين يحملق الناس " اعتبر ذلك نوعا من المجاملـة لـك ، إلهـم يحملقون لأنك فريد وتستحق أن يعرفوا قدرك . إلهم يستنفدون بعضا من وقتـهم

الثمين في فحصك بنظرهم ، وهى نظرات لا ترمى إلى التقليل من شأنك ، بل تسعى إلى معرفة افضل لإنسان يبدو مغايرا "

علمني أبي أن طريق الحكمة هو الأصعب . مازال أبي يتذكر كيف كان الغضب يلفحه حين يحملق الناس بنا وأخي صموئيل، مازال يحكى كيف كان يتحفز لمواجهة من يحملق فينا من الناس ويعلمهم أننا أطفال حقيقيون بمشاعر طبيعية وأننا لسنا موضعا للفحص والمشاهدة .

ومع الوقت ، أدرك أبي أن الناس تحملق بسبب تفرد أسرتنا وعدم شيوع وجود بشر بذلك الحجم ، فأعاد التفكير في ردود أفعاله إزاء ذلك طالبا من الله أن يهبه الحكمة ، وتوصل إلى أن ذلك الأمر لا يستدعى منه الغضب . عوضا عن ذلك قرر استغلال تلك المناسبات لإفهام الناس لماذا نبدو أنا وأخي بهذا الحجم.

ليس غاضبا ، ولكن ...

ليس من السهل أن أغضب ، وفى الحقيقة لا أتذكر آخر مرة وأنا بالغ غضبت فيها من شئ ما قاله أحد عن تفردي أو عن الأقزام بوجه عام .

لا أجد حرجا في التحدث إلى الناس الذين لا يعرفون شيئا عن الأقزمة أو الذين يخشون أن يخونهم لسانهم بلفظ يجرح مشاعري . أحاول أن أريح أعصابهم وأزيل توترهم حين اخبرهم أنه ليس هناك ما يسؤونى إلا إذا كان المقصود هو إهانتى وتحقيري .

لا أعدها إهانة إذا ناداني أحد بصفتي قزما ، اعتدت أنا أيضا أن أنادى أخي سام قائلا : " يا قزم " كنت أريد لي وله أن نعتاد على سماع تلك الصفة . وحتى اليوم ، إذا ناداني أحد قائلا : " يا قزم " لا أشعر بأي وخزه ألم ، وأراهن أن صموئيل أخي لا يشعر بأي ضيق إذا ناداه أحد بصفته لا باسمه . لا يعنى ذلك أن

كل الأقزام لهم رد الفعل نفسه إزاء مناداتهم بصفتهم أقزاما ، فهي صفة مؤلمة لكثير من الأقزام حين ينادون بها .

هناك صفات أخرى تعد مقبولة مثل " قصير " ، أو الرجل الصغير أو المرأة الصغيرة ، و" قزم " كما يشير الأقزام إلى غير الأقزام باسم " عاديي الطول " حتى لو كانوا بالغي الطول — اكثر من استخدامهم كلمة "عادى" لأنه كما كان يقول بيلى بارتى لأعوام طويلة : " لم أجد أبدا أي إنسان تنطبق عليه صفة "عادى" لا تضايقني أيضا أي مهنة يمتهنها الأقزام الآخرون ليكسبوا عيشهم .

على سبيل المثال ، سمعت من فترة قريبة عن قزم متوسط العمر يعمل في مطعم مكسيكي في تكساس . كانت مهنته السير بين طاولات الآكلين واضعا على رأسه قبعة "السامبريرو"المكسيكية الضخمة وعلى حافتها أطباق المشهيات من بطاطس مقلية وصلصة طماطم ، ومن يريد بعضا منها يتناوله من على حافة القبعة ويهبه هبة مالية. كان عملا سخيفا بالطبع ، إلا أنه وسيلة لكسب العيش . واحترمت مبدأ أنه يتكسب مقابل عمل يعمله . وظهر عضو بارز من أعضاء جمعية أقزام أمريكا في نشرة أخبار التلفاز وعبر عن غضبه الشديد من نوعية ذلك العمل المهين الذي يعمله القزم . كان منطقه أن الأقزام "يحتاجون إلى التمسك بالأعمال المشرفة فقط لكسب عيشهم (ربما كان يحتاج ذلك المنتقد إلى من يلفت نظره إلى أن بعض طوال القامة يمتهنون مهنا غاية في السخف لكسب عيشهم أيضا) واعتقد أنه آن الأوان لكي نحدد موقفا واضحا حيال تلك الأمور فإذا أراد واحد من الأقزام أن يمتهن مهنة تبدو سخيفة لكسب قوته فإن ذلك يرجع إليه فإذا عمل قزم بهلوانا أو تأرجح على حبال أو عمل في استعراضات فكاهية فأنني أرى أنه إذا لم يتعارض عمله مع أي قيمة أخلاقية وكان عملا مشروعا فلا غضاضة في ذلك كما أنني أدرك أن انتقاد قزم-خاصة إذا كان عضوا بارزا في جمعية الأقزام — لأي عمل شريف يمتهنه قزم آخر لكسب قوته يخلق حساسية مفرطة بين الأقزام ويخلق مناخا يخشى فيه طوال القامة أن يتحدثوا إلينا أو يسألونا شيئا خشية أن نعتبره مهينا .

أحد الأسباب التي تجعلني لا اغضب بسهولة يقيني أن هناك نقصا في الفهم والمعرفة عن الأقزام في ثقافتنا الأمريكية ولا أيظن أننا يجب أن نغضب أو نشعر بالمهانة حين يتلفظ إنسان ما بألفاظ ناتجة عن جهل وهناك فارق كبير بين قول عبارة ما نتيجة جهل وقول نفس العبارة أو وصف القزم بـ"ضئيل" أو "جمبوي" بقصد الإهانة .ويدهشني في أحيان كثيرة أن أجد أناسا يبذلون قصارى جهدهم كي يبدوا مهذبين و "حساسين" أولئك الذين يعدون أنفسهم مستنيرين هم في الغالب من يطلقون ألفاظا مهينة أو تبدو فيها التفرقة . الهم دائما يستخدمون المصطلح الصحيح ، إلا أن هناك شيئا في موقفهم يشي بالشفقة حين تكون الشفقة آخر ما يحتاج إليه القزم .

التعاطف مع الأطفال

دائما كنت أتجد أنني اكثر راحة في التعامل مع أناس يقولون ما يعتقدونه ممن يسألون الأسئلة التي يحجم متصنعو الأدب والكياسة عن توجيهها . وأجلى مثل لتلك التلقائية أجدها مع الأطفال . ومع الهم الأقل تعليما والأقل استنارة ، وعلى سجيتهم وفطرتهم إلا أنني اشعر أن أمتع الأوقات هي التي اقضيها معهم في اللقاءات العامة ويرجع ذلك ببساطة إلى خلو أسئلتهم من التصنع .

حين يحملق الأطفال في قزم فإن ذلك يرجع إلى الهم يرون شخصا مختلفا تماما عن كل الأشخاص الذين رأوهم من قبل وحين يسألني أحدهم لماذا أنا اقصر منهم — مع الهم بالكاد لا يتجاوزون العاشرة من عمرهم – ، أو لماذا أجر ساقي خلفي حين أسير ، أو لماذا ذراعاي قصيرتان جدا بالنسبة لجسمي ، أو لماذا تبدو يداي طريفتين ، فإلهم يوجهون تلك الأسئلة بدافع من فضول الأطفال وأجدها فرصة لتعريفهم أن هناك أناسا في العالم مختلفين عنهم تماما إلا الهم مثلهم في جوانب كثيرة أخرى .

حين اذهب أنا وإيمي للتسوق فأنني أقف بمكان واضح بأحد ممرات المتجر ليراني الأطفال . وحين ينظرون إلى بعيون متسعة دهشة ، ابدأ معهم الحديث حتى يدركوا أنني مثل أي إنسان آخر .أبادرهم بالسؤال :"هل استعملتم عكازات في حياتكم من قبل ؟" كنت أسير في متجر في وقت قريب حين برز صبى يبلغ العاشرة عبر زاوية من المتجر ، ورآني ، واتسعت عيناه دهشة وراح يحملق بي كنت أرى من نظراته أنه لم ير إنسانا مثلى من قبل كنت أمامه أقصر منه بالرغم من مظهري وملامحي التي تدل على أني رجل ناضج ابتسمت إليه وبادرته بود : "كيف حالك يا زميل ؟" ورد لي الابتسامة بمثلها قائلا :"بخير" ثم سار خلف والده إلى ممر آخر من المتجر .هنأت نفسي وفكرت :"أنجزت المهمة"

وفى حين احب التحدث إلى الأطفال ، إلا أنني غالبا ما أجد نفسي أضحك في داخلي حين أرى نظرات الهلع والخوف على وجوه آبائهم حين يحملق في أبناؤهم أو يوجهون إلى أسئلة مباشرة. حين يحدث ذلك أشعر أني أود أن أقول لآبائهم : " اللعنة ، هذا حال الأطفال ، حين يرون شخصا مختلفا فإنهم يحملقون به وأنا أعرف كيف أتعامل معهم".

العمل في نطاق منظومة

سواء وعى الناس ذلك أم لم يعوه فأنهم يربطون دائما بين طول القامة وارتباطه بالكفاءة والذكاء وإذا أضفنا إلى طول القامة جمال الوجه والأناقة في الملبس إلى تلك المعادلة فإنك تعتقد أن من اجتمعت له تلك الصفات قد أمسك بالعالم من ذيله أو دانت له الدنيا . هناك صورة ذهنية أن مثل ذلك الشخص إذا دخل إلى أي مكان فإنه يستأثر بأنظار الموجودين وانتباههم .

اعرف من خبراتى الشخصية أنه إذا دخل شخص طويل وقزم إلى قاعة لبيع السيارات على سبيل المثال فإن البائع سيهتم أولا بالطويل ويصدق ذلك في تسع حالات من عشر .

هناك افتراض أن الشخص الطويل اكثر قدرة مالية على شراء سيارة .

في عالم الأعمال تجد أن طوال القامة لديهم فرص اكبر للفوز بالوظائف وكذلك في نيل الترقيات وشغل الوظائف العليا أكثر مما هو متاح للأقزام .

ويعد ذلك بالطبع نوعا من التفرقة حتى لو كان يحدث دون وعى إلا أنه يحدث على الدوام وأعرف أقزاما كثيرين تعرضوا لهذا النوع من التفرقة — حتى لو كانت تلك التفرقة تتم في أمور لا يستطيعون إثباتها أو الإتيان بدليل على وقوعها — واحد من تعرضوا لذلك زوجتي إيمى .

ففي دراستها في الجامعة أحبت دراسة شئون الموظفين والضيافة الخاصة بإدارة المطاعم والفنادق — وهو أحد الأعمال التي تعتمد على المظهر إلى حد كبير — كانت إيمى تحب فنون إعداد الطعام وتتفنن في وسائل تقديمه وكانت تفضل أن يكون ذلك العمل وسيلتها لكسب عيشها كان من متطلبات التخرج واجتياز الامتحان النهائي قضاء خدمة عملية في أحد الأماكن العامة لهذا النشاط . وقالوا إن الفترة العملية يمكن قضاؤها في فندق معين وبعد أن قابلت مدير ذلك الفندق أهملوا طلبها لم يذكر لها أحد سبب إهمال طلبها إلا أنها كانت تدرك أن ذلك حدث لأنها قزمة، لم تكن تقل ذكاء عن زملائها الذين فازوا بفرصة التدريب العملي بالفندق إلا أن المظهر هو الذي حرمها من تلك الفرصة .

لا يوجد شك أن هناك امتيازات في ثقافتنا السائدة كما في عالم الأعمال لطويل القامة . من جهة أخرى وجدت أن هناك امتيازات كثيرة لكوني قزما خاصة لمن يعرف كيف يعمل في إطار نظام .

أشعر بالامتنان لأني أعيش في أمريكا حيث يوجد قبول وتفهم عام لوضع المعاقين واعتقد أن الحضارة السائدة في أمريكا قد قدمت الكثير لتجعل حياتنا اسهل وأكثر متعة ومازالت التحسينات تتوالى في مجالات كثيرة .

وأنا لا أومن بأن أكون ممن يطلبون على الدوام أو ممن يدفعون الآخرين لفعل أشياء يريدونها باستغلال إعاقتهم، لم اكن أبدا في موقف أكون فيه مدينا

لأحد بسبب اعاقتي ، لم أفكر أبدا في رفع قضايا بالمحاكم بصدد أشياء مثل عـــدم قدرتي على الوصول إلى البضائع والسلع الموضوعة على ارفف لا أستطيع أن اصـل إليها في المحال التجارية أو بسبب انزلاقي على ممر مبتل وسقوطي بسبب ذلك ، أنا أتفهم أنه بينما يسعى العالم إلى جعل حياتنا اسهل إلا أنه لا يستطيع الوفاء بكـــل حاجاتي على الدوام وأتفهم أيضا أن سيرى على عكازات ينطوي علـــى بعـض المخاطر على أن احتملها أن كان على أن أخرج من بين جدران بيـــتي إلى العـــالم خارجة .

نعم ، هناك ميزات تقدم للمعاقين ، إلا أنني أتردد حين اسميها ميزات، إنهـــا ببساطة تمهيد الوسائل التي تسمح لأمثالي أن يكونوا شركاء فعالين في المجتمع .

بالنسبة لي ، فإني استمد الميزة الحقيقية من كوني قزماً من تعلم كيفية تحويـل استجابات الناس وردود أفعالهم إلى صفي، لقد تعلمت وعرفت في مرحلة مبكـرة أن هناك ما يشبه السحر فيما يخص استجابات الناس تجاهي كقزم وتعلمت كيف احول ذلك السحر إلى صالحي .

رد فعلى إزاء الاستخفاف بقدراتي

أدركت أنا وإيمي أن الناس يندهشون بعمق حين يرون قزمين عندهم أربعـــة أبناء لم يكن ذلك من الأشياء المعتادة التي يرونها كل يوم ، أن مجرد مشاهدة قـــزم ليس من الأشياء العادية تماماً، أما أن يروا زوجين قزمين لا يزيد طول أي منـــهما عن ١٢٠ سنتيمتراً مع أبنائهما الأربعة فإن ذلك يبدو لكثير من الناس وكـــأنهم يشاهدون أناسا من كوكب آخر .

كانت إيمى قد سمعت تعليقات كثيرة من الأطفال . بنت صغيرة اتســـعت عيناها في دهشة وهى تشاهد إيمى ومعها أبناؤنا في مجمع تجارى ، وقالت بصـــوت مرتفع لأمها : "انظري يا أمي ، هذه أم صغيرة " وتبع ذلك صـوت الأم ملـــيء

بالحرج والضيق :"لا تقولي ذلك ، هياً ، واصطحبت ابنتها مبتعدة . إلا أن إيمى لم تشعر بالضيق ، فقد كانت بالفعل " أماً صغيرة الحجم " .

الكبار هم من يضايقون إيمى ويزعجونها ، كانت تتضايق من الناس الذين لا يصدقون بسهولة أن الأبناء الأربعة الذين بصحبتها هم أبناؤها . اقــتربت منــها سيدة ذات مرة في مكان عام وسألتها بنغمة مليئة بالدهشة أن كان أولئك الأولاد أبناءها فعلاً وحين أخبرتها إيمى انهم كذلك ، قالت السيدة في تعجب :"أوه ، يــا إلهي ، كيف استطعت ذلك ؟ "

أن الإفتراض السائد عند اغلب الناس أن القزم إذا انجب فلابد أن تكون ذريته أقزاما أيضاً . وندرك أنا وإيمى واغلب الأقزام أن الرأي العام الأمريكي لا يعــرف الكثير عن الأقزام ومع ذلك فإن ما يضايقها هو افتراض أنها مادامت قزمة فإنها لا تستطيع أن تكون في صلاحية وكفاءة أي أم من الأمهات عادية الحجم.

وأمومة إيمى هامة جداً بالنسبة لها . ولا تحتمل فكرة أن كونها قزمة يحــول دون أمومتها الكاملة بكل ما تحويه من جوانب، وأنا اعتقد أن إيمى تصلــح لان تحظى بلقب الأم المثالية وكل من يعرفها يتفق معي على ذلك، دأبت إيمي علــى القول لفترة طويلة أن أخشى ما تخشاه أن يأتي أحد ما أو هيئة ما وتنــتزع منــها أطفالها بدعوى أنها أم غير كفء في تنشئة أبنائها على الوجه المطلوب لم يقع أبدا أي حادث و لم يظهر أي تقصير من جانبها ولا يوجد سبب يثير تلك المخــاوف لديها إلا أن ذلك الهاجس كثيراً ما يتملكها .

أما أنا فأجد متعة شديدة في خذل توقعات الناس المحدودة مني لأني ضئيــل إذا كانوا يلتقون بي لأول مرة . لا أعبأ بما يقوله أي أحد في أي لقاء عمل حين يرون قزماً يظهر من باب قاعة الاجتماع ثم ينضم إليهم ، تهبط توقعاتهم لما ينتظرونــه مني إلى الحضيض، ولا يمر وقت طويل حتى أخذل كل توقعاتهم وحــين تظــهر مهاراتي التي تتجاوز بمراحل كل ما توقعوه وتستولي عليهم الدهشة من قــدراتي الحقيقية أضعهم بعد ذلك في الموضع الذي أحب أن أضعهم فيه .

وحين يكون لدي مهمة بيع خارجية لا تخبر شركتي العميل مقدماً أن القادم إليه قزم في تلك المواقف استمتع بدخول غرفة العميل في مكتبه وأتطلع إلى نظراته المندهشة وأرى بوضوح على وجوههم جملة لم ينطقوها بصوت مسموع وهى : " لم يخبرنا أحداً بذلك " وكأنها مكتوبة على جباههم وهم يرون قزماً يتقدم باتجاههم سائراً على أربع – ساقين وعكازين – ولا يظهر مني فوق حافة طاولة الاجتماع إلا خمسة سنتيمترات بالكاد .

تعلمت من فترة مبكرة من حياتي أن باستطاعتي القيام بأعمال لا يستطيع عاديو القامة الإتيان بها أو عملها .

وجدت أنه يمكنني أن أستغل مظهري لصالح لأن الناس يكونون أكثر تسامحاً معي لأنني قزم . في الحقيقة اعتقد أن بعض مكونات شخصيتي كانت ستبدو بغيضة لو كنت عادى الطول إلا أن تلك المكونات تؤتى ثمارها لأنني قزم .

كانت أمي تخبرني على الدوام أنني احتاج إلى ارتداء ملابس أنيقة وان تبدو على الطيبة لأوازن عجزي وعموماً اعتقد أن هذا صحيح وأحاول أن اقدم نفسي بصورة جيدة حين أتوجه إلى عملاء خارج مكان العمل أو في أماكن عملهم أبذل جهدي أن ارتدي ملابس أنيقة وان أحافظ على قميصي داخل سروالي وأن أبدو محترفاً من جهة أخرى، تعلمت كيف أتصرف في أشياء صغيرة إلا أنها محرجة لغيري مثل وجود بقعة قهوة على قميصي فحين يكون ذلك مخجلاً لشخص آخر أقوم أنا بالنظر إلى البقعة ثم أضم كفي معاً – كفان ملتويتان ذواتا عقد مفاصل بالأصابع كأنها عقد وتبذل جهداً للامساك بقلم – ثم أقول : "ليست دقتي على ما يرام اليوم "

استخدم بعض السخرية بالذات لأضع الناس في موضع نفسي ملائم، فأنا اعرف أن الناس لا يندهشون فقط لرؤيتي بل يشعرون بعدم الارتياح وهذى وسيلتي لكي أتشعرهم أنني مثلهم وانتمى إلى نفس ما ينتمون إليه وأن ما أشعره هو الانتماء والتلاؤم مع المكان .

ملائم بالكاد

حيث كنت طالبا مستجدا بالمرحلة الأولي من المدرسة العليا، كان لي صديق حميم أشعر بالآسي من أجله سأسميه هنا "بيل".

كان "بيل" شابا أنيقا، شعر أشقر، عينان زرقاوان، وبناء عضلي قوي إلا أنه كان لأقصر بين زملائه و ذات يوم رجعت إلى البيت من المدرسة و قلت لأبي أني أشعر بالأسي و الحزن من أجل "بيل" لأنة قصير، لم أهتم بأن "بيل" أطول مـــني بثلاثين سنتيمترا علي الأقل، كنت أشعر بالضيق من أجله لأنه الأقصر بين زمـلاء الفصل.

قلت لأبي: أنا حزين من أجل بيل.

سألني أبي: لماذا؟

قلت له: لأنه قصير للغاية.

لم يستطع أبي أن يتحكم في دهشته، قال لي بمزيج مـــن الدهشـــة و عـــدم التصديق: أتشعر بالأسف و الحزن من أجل بيل لأنه قصير؟

قلت باقتناع شديد: "نعم"

رد أبي مذكرا لي بحالي: أنت أيضا قصير.

رددت علي الفور: أعرف، و لكن عندي أسباب تجعلني قصيرا.

راح أبي بعد ذلك يخبر من يعرفهم أن ذلك الموقف اثبت له أنـــني لا أبـــالي بكوني قزما، و أنني مقتنع أن ذلك يلائمني.

هناك أناس كثيرون حولنا في كل مكان لا يتساءلون أن كانوا متلائمين أم لا هناك دائما شيىء ما لدي أي فرد يجعله يشعر أنه غير متلائم، ربما طوله، أو لـــون بشرته، ربما طريقته في الحديث، أو وضعه الاجتماعي أو الاقتصـــادي أو أصلـــه الأسري، أو إعاقة بدنية.

و للأسف، فكثير من الأقزام و آخرون من ذوي الإعاقات يسمحون لتلـــك الجوانب من المشاعر التي تسيطر عليهم أن تعوقهم علي أن يحيوا حياة منتجـــــة و مثمرة، حياة فعالة.

لقد نشأت في وسط عائلي ينمي الثقة بالنفس و ينمي القدرة علي اتخـــــاذ مواقف لا يعوقني فيها قصر قامتي عن عمل ما أود عمله، كان هناك تـــــأكيد و

تركيز من الأسرة أن يحب كل منا الآخر، و أن نحب الله، و أن نثق بأن ما يفعله الله ليس عبثا.

كانت تلك الجوانب هي الميزة الكبرى التي عاونتني علي التغلب علي إعاقتي، عندي إحساس بالانتماء، و لدي إيمان بأن لدي ما أقدمه للآخرين و لكني أدرك أيضا أنه ليس كل الأقزام أو ذوي العاهات لديهم تلك الميزة.

كثير من الأقزام ليس لديهم أي فكرة عما يتطلبه حصولهم علي ما يريدونه من الحياة، بعبارة أدق، لا يشعرون أنهم متلائمون.

إن مشاعر الانفصال تلك تترتب عليها نتائج مأساوية في حياة كثيرين من ذوي العاهات، بعضهم تسيطر عليه سحابات اليأس و تظل معلقة فوق رأسه لأنه لا يشعر بالانتماء أو التلاؤم فيلجأون إلى دفن وعيهم في الكحول أو إدمان المخدرات و يختار بعضهم الانتحار كطريق للخلاص من يأسهم.

إن كان هناك شيء واحد أريد أن أقوله عبر هذا الكتاب فهو:

"أنك تستطيع أن تتلاءم و أن تقدم شيئا لهذا العالم، و أنه يمكنك أن تحدث شيئا مختلفا في حياة الآخرين، تستطيع أن تجعل من الركن الذي اخترته من الحياة مكانا أفضل للمعيشة"

تحقيق ما هو أكثر من الحد الأدنى

آمنت بشدة أن الحياة تشبه حقل الفلاح، تحصد منه مثل ما زرعت فيـــه و أدرك أنني قدمت و فعلت ما هو أكثر مما هو مطلوب لمجرد أن أحيا في عالم لم يتم تفصيله لأمثالي و أنني لم أكن أبدا من ذلك الصنف من الناس الذيـــن يقدمـــون بالكاد ما يلزم لكي يظلوا أحياء.
آمنت دائما أنني لابد أن أبذل كل ما أملك من ذكاء و موهبة و قوة بدنية و إمكانات مالية و أي جوانب أخري أستطيع بذلها في ما أقدمه للحيـــاة. أنـــا لا أتحدث عن تعويض أقزمتي، بل أن أدير بشكل جيد المواهب و الهبات التي وهبـــها الله لنا. ومثال ذلك ما فعلته بمزرعتي.

ليست عادية

حين اشتريت مزرعتي، لم أفكر في مجرد أن أجعل منها مساحة جيـــدة مـــن الأرض بها منزل ريفي و مخزن حبوب و سور أبيض يحيطها.
أحببت أن أقطع الميل الزائد في مشوارها، و أن أعمل بها ما يعتـــبره النـــاس جنونا. كانت لدي أفكار لمشاريع أنفذها لأولادي مثل طريق ممهد للدراجـات و تطورت الأفكار لتشمل منزلا بريا علي الأشجار من ثلاثة طوابق و نسخة مـــن سفن القراصنة في بركة الماء و نموذجا لمدن الغرب الأمريكي القديم وتحتها أنفـاق سرية ونموذجا لنفق منجم قديم يمتد أسفل مخزن الحبوب.
و بعد كل ذلك لم تنته الأفكار فأنا أوشك الآن علي الانتهاء من إقامة برج الرعب و هو برج رأسي يبلغ ارتفاعه أربعة و عشرين قدما له قمة تهتز و تتمـايل و أنت بداخلها و صممتها بحيث تكون آمنة تماما إلا أنها تبعث الخوف فيمـــن يكون بداخلها.

واتتني فكرة برج الرعب لأنني أخاف من الأماكن المرتفعة لذلـــك كـــانت فكرة إقامة ذلك البرج المهتز و الآمن تشبه ما تثيره في نفسك القيادة المثيرة.
لم أنشئ أي مشروعات بالمزرعة بغرض الكسب المادي، كانت المزرعة مليئة بالمبتكرات إلا أنها ظلت منزلنا الخاص بنا و حتى الآن على الأقل نريد الاحتفـــاظ بها على نفس النحو.
ثمار الخوخ هي الجانب الاقتصادي الوحيد في المزرعة و كذلـــك حقـــول التوت البري الأزرق. في كل صيف نفتح أبواب المزرعة لبضعة أسابيع لمن يريـــد التقاط تلك الفاكهة تحت شعار "أجمعها بنفسك" بمجرد أن تنضج الثمار نعلـــق اللافتات على سور المزرعة لنعلن أن الثمار نضجت. فكرت في إنشاء معمل صغير للتعليب - خاصة تعليب المربى التي تصنعها إيمي بمهارة فائقة حتى نبيعها أيضـــا أثناء موسم "أجمعها بنفسك" و لذلك بحثت إمكانية شراء معدات تعليب بسيطة.
و العائد من حقول الخوخ و التوت لا يهدف إلى تحقيق ربح فهو بالكـــاد يغطي تكاليف مكافحة الآفات و خدمة حقول الأشجار حتى تؤتي ثمارها.
كانت لدي عروضا لبيع الخوخ بيعا تجاريا إلا أننا نخطـــط للاســـتمرار في مشروع "أجمعها بنفسك" حتى يكون لدينا زوار في موسم الثمر.

لماذا أهتم؟

مع حرصي على استمرار كل جوانب حياتي المهنية ناجحة و نامية، فـــإنني كثيرا ما أتساءل لماذا أرهق نفسي بإقامة كل تلك المنشآت و المشاريع في المزرعة، لماذا أشغل نفسي بإقامة بيت ألعاب بري فوق الأشجار من ثلاثة طوابق، و سفينة قراصنة، و مخازن جمع حبوب على الطراز القـــديم، و نمـــوذج لمدينـــة الغـــرب الأمريكي القديم؟ كل ذلك فوق أعباء وظيفة تشغل اليوم كله و رعاية لبســـتان كبير من أشجار الخوخ.
لقد تجاوزت في المزرعة الحد الأدنى بكثير لأنني اتخذتها كتحـــد و متعـــة، استمتعت بأن أجعلها فريدة بين المزارع و أن أحولها إلى مكان يبعث على السعادة و المتعة لهم و لأصدقائهم.
جيرمي و زاكاري لهما أصدقاء يزورانهما يوميا و لذلك تجد في أي وقت من اليوم حفنة من الأولاد يلعبون و يلهون على سفينة القراصنة أو في نفق المنجـــم أو

في شوارع نموذج مدينة الغرب الأمريكي القديم، ليس ذلك فقط بـــل تحولـــت المزرعة إلى مكان ممتع يلتقي فيه الكبار أيضا مئـــات الأصدقـــاء و العـــاملين و أصبحت المزرعة أيضا مكانا مفضلا لأنشطة الكنيسة الاجتماعية و لقضاء أيــــام الرحلات التي تنظمها الكنيسة.

عدا ذلك فأني أحب أن أحلم بالأشياء التي تبدو صعبة في ظاهرها بل تبـــدو أحيانا مستحيلة ثم أعمل بوسائل تجعل تلك الأحلام حقيقية و تحولها إلى واقــع و سواء كانت مشاكل برامج حاسب آلى أو تسويقا أو أي شيء آخر أود أن أحققه في المزرعة من أجل الأولاد، أحب أن أتأمل أولا فيما أود تحقيقه ثم أخلق حــلا أو أكيف حلولا قديمة لتلائم ما أود تحقيقه.

هناك مكون بداخلي شغوف بحل المشاكل و أشعر بــــالرضى حــين أرى الحلول تقهر المشاكل. منذ أن كنت صغيرا لم أكن من ذلك الصنف الذي يقصـــر رؤيته و مجهوده على الحدود الدنيا من الأشياء ، لو كنت من ذلك الصنف لكان من السهل علي أن أعمل فقط ساعات العمل المطلوبة من الثامنة صباحــــا حـــتى الخامسة مساء، ثم أعود إلى منزلي و أتناول الغذاء مع زوجتي و أطفالي ثم أســتلقي أمام التلفاز بقية المساء، إلا أنني أؤمن أن الوقت و مصادر الثروة المختلفة علـــــى الأرض ليست إلا مصادر محدودة و أنه ليس أمامنا إلا وسيلة من اثنتين لاستغلال ذلك الوقت إما استهلاكه فيما لا طائل وراءه أو استغلاله على أفضل وجه مثمر.

لم تكن الطريقة التي ربيت عليها تسمح لي بأن أمضي وقتي علــــى غـــرار "ماشي الحال" و لم يكن ذلك يصلح في أسرة مثل أسرتي مازلت أتذكر عامـــا في حياة أسرة رولف (أبي) ترك آثاره على الأسرة مدى الحياة، عاما لن ينساه أبـــدا أي فرد من أسرة رولف و هو العام الذي علمني قيمة أن أخطو خطوة زائدة عمـــا هو مطلوب من أن أتخطاه.

عام القسوة

كان موسم أعياد كريسماس عام ١٩٧٤ أسوأ وقت مر على حياة أســـــرة رولف. كان ذلك العام بداية أقسى و أسوأ فترة في حياتنا كأسرة-أمـــي و أبي و روث و أنا و جوشوا و صموئيل- شكلت تلك الفترة أقصى الضغوط على أبي و أمي حتى أنهما كانا على وشك الانهيار.

و كان عاما احتملت أنا و أخي صموئيل فيه آلاما بدنية لا يحتملها بشـــر، و كان العام الذي أوشك فيه جوشوا على الموت مرات كثيرة لا تحصى، و العـــام الذي حمل لأبي و أمي بالرغم من كل الآلام التي كانا يمران بها مـــوت أقـــارب لكليهما.

و لا أبالغ أن ذكرت أن عام ١٩٧٤ شهد بداية المعاناة و االأم في أســـرتنا و التي ربما لا تحتملها أي أسرة أخرى، إلا أن أسرتي صمدت و نتج عن تلك الفـــترة القاسية أن نمت شخصية كل منا في جانب القيم الروحية نموا لا يمكن تصديقه.

كان العام الذي صاغ أسرتنا في نواح عديدة.

كنت أنا و صموئيل بعيدين عن الأسرة في ذلك العام في مستشفى شراينر في سان فرانسيسكو أجريت لي في ذلك العام عمليات جراحية و وســـائل تعديـــل عظام و تأهيل سببت لي من الآلام ما لا يتحمله بشر و لم أمر بعدها بآلام مثلـــها حتى الآن.

كان ذلك وقتا عصيبا و قاسيا على أسرة رولف و برغم كل تلك القسوة و المعاناة كانت الأيام و الشهور القادمة ما زالت تحمل في طياهّا ما هو أقسى و أمر من ذلك بمراحل لا يمكن تصورها.

في الأيام السابقة و التالية للكريسماس بدأ أخي جوشوا يعاني من نوبـــات صداع قاسية (كان في ذلك الوقت في العاشرة من عمره) كان قد أشرف علـــى الموت في مرات كثيرة و أفلت من براثنه مرات كثيرة بسبب العيـــب الخلقـــي الموجود لديه بالقلب و الرئتين و كانت قد أجريت له إحدى جراحات القلـــب المفتوح في الخريف السابق كانت نوبات صداع الرأس قاسية و زادت حتى أثرت على بصره فكان يرى الأشياء شائهة، كانت أعراض حالة عضوية مرعبة.

في السادس من يناير ١٩٧٥ دخل جوشوا في حالة من الغيبوبة و أدخلـــه الأطباء على عجل إلى غرفة عمليات المخ لاستئصال خراج كان يسبب له هـــذا الصداع و يؤثر على أبصاره.

و لم يكن لدي الأطباء الذين أجروا له الجراحة أدنى قدر من الثقة من إمكانية نجاته من تلك الجراحة.

في موعد إجراء الجراحة لجوشوا أتى أبي إلى مستشفى شرايز ليخرجنا أنـــا و صموئيل من المستشفى.

في العادة لم تكن مستشفى شرايز تسمح للمرضى بالخروج قبل الموعد الذي يحدده الأطباء المعالجون.

بمجرد أن يدخل المريض يصبح أمر خروجه متروكا كله للأطباء و لإدارة المستشفى إلا أن أبي لم يكن لديه أدنى درجات الاستعداد للتسليم برفض المستشفى لخروجي أنا و أخي صموئيل.

و رفضت إدارة المستشفى طلب أبين إلا أنه كان مصرا إصرارا لا تراجع فيه، قال لهم: "شقيقه يموت وهو يحتاج أخويه إلى جواره في لحظات موته لابد أن يأتيا معي، و لابد أن آخذهما الآن".

كان علاجنا لم يكتمل بعد و نحتاج إلى وقت أطول بالمستشفى إلا أن حاجة جوشوا إلى وجودنا بجواره كان أقوى و كان احتياجا طارئا و ملحا و لا يقبل التأجيل، و أوضح أبي بكل حسم أننا سنخرج معه فورا و في الحال.

لملمنا أشياءنا البسيطة التي أحضرناها معنا إلى المستشفى و غادرنا مع أبي.

و في حدود معلوماتنا كانت تلك هي المرة الوحيدة التي تسمح فيها مستشفى شرايز لأحد بالخروج قبل اكتمال علاجه مهما كان السبب.

لم نكن نعلم أنا و أخي صموئيل أن شقيقنا جوشوا قد أجريت له جراحة بالمخ في مستشفى ستانفور في اليوم نفسه، لم نكن نعلم أنه على شفا الموت، كل ما عرفناه تلك المعلومات القليلة التي أخبرنا بها أبي: "جوشوا مريض و يحتاجنا معه" و لم يكن لدينا فكرة أننا على وشك بداية سبعة أسابيع من الذهاب و العودة من عند جوشوا، سبعة أسابيع قضينا كل أوقات اليقظة بها في المستشفى أما زائرين له أو بانتظار أن يعود له الوعي.

طوال كل تلك الأسابيع لم يمس جسم أبي فراشا أو أتيحت له فرصة البقاء في البيت لأي لحظة لينال بعض الراحة.

كان ينهي عشر أو أثنتي عشرة ساعة من العمل ليلا ليتوجه في الصباح رأسا من العمل إلى المستشفى ويظل معنا أنا و أمي و صموئيل خارج غرفة جوشوا ثم يغفو قليلا مسندا رأسه إلى طاولة بالخارج، كان الترف الوحيد الذي يناله أن يبدل ملابسه أو يغسل الأجزاء الظاهرة من جسمه ببعض المنظفات السريعة، و بعد غفوة بسيطة يحين موعد عمله فيرجع إليه، و حتى اليوم مازلت أتعجب كيف تحمل كل ذلك و كيف تأتى له أن يفعل ذلك. و نجا جوشوا من جراحة استئصال خراج المخ إلا أنه كانت هناك جراحة أخرى لابد أن تجرى له بالقلب

في مستشفى ستانفورد (في الحادي و الثلاثين من مايو و بعدها مات عم أمـــي و طفلان من أبناء عمومتي — توأم ابني عمي - و كانا في العام الأول من عمرهمـــا و ماتا غرقا بعد أن سقطا في حوض السباحة في بيت عمي) أثناء كل ذلك كنـــت أعاني أنا و صموئيل من الأم مشاكلنا البدنية و الأم الإصلاحات الـــتي أجريـــت لعظامنا لتقويم تشوهاتها الخلقية.

كنت أنا و صموئيل في أردية من الجبس من بداية العام ، و بعد أن فكوا عني رداء الجبس كان علي أن أقضي ما بقى من العام جالسا على طوق جلدي ملـــيء بالهلام .

كان كل أسبوع يحمل معه مأساة جديدة، و في وسط كل تلك الكـــوارث التي تبعث على الجنون، كانت حياتنا تمضي، أقمنا احتفالات أعياد ميلادنـــــا في مواعيدها (أكملت شقيقتي روث العام الثالث عشر من عمرها في ذلك الوقـــت) وكان للأسرة أيام نخرج فيها معا، و نقوم بالأعمال اليومية التي تقوم بهـــا كـــل أسرة.

أحببنا بعضنا بعضا و تشاجرنا و تسامحنا و داومنا على الذهاب إلى الكنيســـة أيام الآحاد، و بقدر ما أمكننا كنا نذهب إلى المدرسة، و داوم أصحابنـــــا علـــى زيارتنا و حافظ أبي على و وظيفته و حافظت أمي على إدارة شـــئون البيـــت بانتظام بقدر ما استطاعت. وإذا لم تكن كل تلك المشاكل تفوق احتمال الأسرة، و كما لو كان لا يكفي رعاية أبنائهما في تلك الأحوال القاسية، أضاف أبـــواي بإرادتهما الحرة و بسعادة مسئوليات جديدة حملاها على عاتقيهما.

زيادة العبء بكل ترحيب

حمل النصف الثاني من عام ١٩٧٥ رياح العودة إلى الحياة العاديـــة لأســـرة رولف. فبينما اعتاد منزلنا على نمط تفكير (إدارة الأزمات) بدأ من الظـــاهر أن معدل الأزمات يقل مع انصرام العام.

كنت أنا وأخي صموئيل ما زلنا بحاجة إلى عناية شديدة و كان جوشـــوا في صراع يومي من أجل البقاء و عدا ذلك أصبحت روث في مرحلـــة المراهقـــة و كانت تحتاج إلى رعاية.

كانت أعباء كثيرة ملقاة على عاتق الأسرة و لكن ذلك كان شأن أسرتي على الدوام و كان حمل الأعباء يبعث فيها الحياة.

أي أسرة تمر بمثل تلك المرحلة القاسية لابد أن تشعر بعدها أنها بحاجة إلى فترة راحة من الأعباء و الحصول على بعض الاسترخاء و راحة الأعصاب المتوترة حتى يمكن مواصلة حمل العبء.

و لو كان أحد ما بحاجة إلى أعذار ليستريح فإن أبي و أمي كان لديهما الكثير من الأسباب الحقيقية التي تبرر لهما السعي إلى الراحة إلا أنهما لم يفعلا ذلك بل لم يستطيعا، لقد رأيا أن هناك احتياجا إنسانيا آخر في مسيس الحاجة لتقديم العون له و مساندته.

ففي يوليو من ذلك العام بعد وقت يسير من إحدى عمليات القلب المفتوح التي أجريت لأخي جوشوا، أحضر أبي إلى منزلنا في سان برونو في كاليفورنيا أسرة من اللاجئين الفيتناميين مكونة من ثمانية أفراد فروا من بلادهم و لجؤوا إلى الولايات المتحدة بعد سقوط فيتنام الجنوبية في قبضة الشيوعيين عام ١٩٧٥ عند نهاية حرب فيتنام.

كان لأبي و أمي سند منطقي لاستضافة تلك الأسرة في بيتنا و كان منطقهم أنه بالرغم مما قاسيناه في ذلك العام إلا أنه هناك بشر آخرون تبدو معاناتنا إلى جوار معاناتهم هامشية و بسيطة.

و بالرغم من أنهما لم يدركا إدراكا كاملا معاناة تلك الأسرة التي واجهت عقبات قاسية هذا عدا موت أعزاء كثيرين لهم و خروجهم من وطنهم بالكاد أحياء.

كانت تلك الأسرة الفيتنامية — الأب و الأم و ستة أبناء — قد هربوا من فيتنام على متن قارب صيد صغير مع عائلات كبيرة أخرى و بلغ العدد الإجمالي للهاربين على متن قارب الصيد الصغير اثنين و أربعين فردا.

كانت تلك الأسرة منحدرة من أصول فيتنامية عالية، و كان بعض أبناء تلك الأسرة يعمل في وظائف تابعة لجيش الولايات المتحدة الأمريكية في فيتنام الجنوبية و بعد سقوط فيتنام الجنوبية كانوا عرضة للحجز في معسكرات "إعادة التأهيل" الشيوعية، كان ذلك يعني أن أكثرهم كانوا سيلقون حتفهم في تلك المعسكرات و كان الحل الوحيد المتاح أمامهم هو الهروب على متن قارب الصيد مع ما حمله ذلك من أهوال و احتمال الموت غرقا في أي لحظة.

غادروا بلادهم مسرعين و لم يأخذوا معهم إلا الضرورات و حين وصلوا إلى الولايات المتحدة لم يكن بحوزتهم أي شيء غير الملابس التي يرتدونها.
كانت تجربة فريدة لأسرتي أن تستضيف تلك الأسرة التي تنتمي إلى ثقافة مختلفة كليا عن ثقافتنا على مدى ما يقرب من عام و بالرغم من الاختلاف الثقافي تمازجت الأسرتان بسرعة، على سبيل المثال أعتاد من يزورنا على رؤية أفراد الأسرتين يتناولون الوجبات معا، العادة في فيتنام أنهم يطعمون الأطفال أولا، ولا يأكل الكبار إلا بعد أن يشبع الأبناء.
كان مشهدا لا ينسى لمن يزورنا حين يرى أربعة عشر فردا يجلسون معا إلى طاولة طعام واحدة، عرفنا الكثير عن حياتهم و ثقافتهم و مازالت أمي تعرف كيف تطهو الطعام على الطريقة الفيتنامية.
و يشعر أبي و أمي بسعادة لمعاونتهما لتلك الأسرة و مازالوا يتواصلون معهم و يهاتفونهم لمعرفة أخبارهم و علما أن أبناء تلك الأسرة نجحوا و استقروا في المهن التي اختاروها، كانت أخبار نجاح تلك الأسرة تماثل المكافأة لأبوي بقطعهما ذلك الميل الإضافي الزائد عما هو مطلوب منهما كربي أسرة و تحملهم مسئولية إضافية في الوقت الذي كانت فيه لديهما من الأسباب ما يكفي لعدم تحمل أي مسئوليات أخرى خاصة إذا كانت مسؤولية أغراب لا يعرفونهم.

أهمية تخطي الحدود القصوى

كان النمط الذي ربيت و نشأت عليه هو نمط تخطي الحد الأدنى و الوصول إلى ما هو أبعد و أنا أؤمن أنه حيث توجد حياة توجد مكافآت حقيقية.
و باختصار إذا سعيت إلى الحد الأدنى من الحياة فإن ما ستحصل عليه هو الحد الأدنى أيضا، و جدت ذلك يصدق على طريقة و أسلوب أدائي للعمل و يصدق على أدائي كزوج و أب و يصدق على كيفية إدارتي للمزرعة كما يصدق أيضا على كيفية تعاملي مع الناس.
صحيح أنني لم أحقق الكمال الذي أتحدث عنه إلا أنني أسعى إليه بما يكفي من جهد حتى أتحقق أنه مازال هناك ما يمكن عمله هذا أن كان هناك من يريد أن يطبق بعضا من حقائق الحياة التي تعلمتها.

قهر مصاعب عالم الطوال

أعرف أن كل امرئ يعاني من مشكلة ما و يتخذها عذرا لنفسه حتى لا يبذل غاية جهده في الحياة كل امرئ يفعل ذلك.

و أنا أود أن أختم هذا الكتاب بالتحدث عما أعانني على قهر العقبات التي واجهتها و أعانني على التمتع بحياتي أكثر مما يعتقد أغلب الناس.

صورة جيدة للذات

دفعتني إعاقتي البدنية و الطريقة التي ربيت عليها أن أكون ماهرا جدا في تحقيق جوانب إيجابية من أشياء تبدو في ظاهرها سلبية تماما.

و أنا لا أعني أن أفعل فعلا إيجابيا في مواجهة موقف سلبي بل أعني تناول موقف سيئ و سلبي و الخروج بإيجابيات منه.

أغلب تلك القدرة نبعت من حقيقة أن لدي انطباعا صحيا، عن الذات فأنا أتقبل ما أنا عليه من ضآلة و إعاقة و لذلك تمكنت ن توظيف مهارتي و مواهبي التي وهبها الله لي لكي أزدهر في عالم لا يملك رغما عنه إلا عقبات تلو عقبات لأمثالي.

عرفت أناسا تبدو مشاكلي البدنية إلى جوار مشاكلهم هامشية و تافهة.

أناس احترقت أبدانهم ببشاعة و تشوهت أو تعرضوا لحوادث سببت لهم إعاقات جسيمة و لا يملكون تحريك ذراع و لا ساق إلا أنهم لديهم إحساس رائع بالذات بمجرد أن يتبادل أحد الحديث معهم يكتشف أن لديهم ذلك الإحساس الصحي بالذات.

و رأيت أيضا ما يمكن أن يسببه الإحساس السيئ بالذات من آثار مدمرة، رأيت أقزاما تبلغ معنوياتهم درجة من الهبوط و الإحباط يتعذر عليهم معها القيام بأي حد أدنى من العمل، رأيت كثيرين منهم يسقطون في هوة اليأس و الإحساس العميق بالعجز الذي يدفعهم إلى العزلة عن العالم و لا ينظر الآخرون إليهم إلا على أنهم نوع شاذ زائد عن الحاجة و لا جدوى منه.

أعرف ما يمكن أن يشعر به أي امرئ حين يكون محطا للأنظار أو حين يضبط شخصا يحدق به و يدير نظراته بعيدا عنه في سرعة أو أن أرى في نظرات من يحدق معاني تحمل افتراضا أنني لا أحيا حياة سوية و لا تنطوي علي أي قدرة على القيام بأي عمل في الحياة، حياة تشمل أن أكون زوجا و لي أولاد و لدي مهنة و كل ذلك لأنني قزم.

كان كل ذلك كفيلا بأن يحطمني لو لم يكن لدي إحساس جيد بالذات أو لو لم أكن واعيا بشكلي الذي أبدو عليه.

كنت محظوظا بالطبع لأن أسرتي نمت لدي الإحساس بأنني إنسان له قيمة في هذا الوجود بغض النظر عن الشكل الذي أبدو عليه.

علمني أبواي أنني من صنع الله و أنني جزء هام من الوجود خلقه الله وبث فيه الروح و الحركة، علموني من صغري أن ذاتي ليس لها علاقة بطولي و لا بالشكل الذي يبدو عليه بدني.

و لا يملك أغلب الناس سواء كانوا أقزاما أم عاديين تلك الميزة، ولا تعلم كل الأسر أبناءها القيم الداخلية الذاتية و قبول الذات، فإن كانت أسرتك لم تفعل ذلك فإنه لابد أن تنصت لي الآن: أنت مخلوق لديك هبات و مواهب و لك قيمة و ذلك ببساطة يعود إلى أنك لم تخلق عبثا.

إذا فهم الناس ذلك فإنهم لا يبدءون فقط في رؤية أنفسهم في جو أكثر إيجابية بل تتوفر لديهم إرادة أقوى لإتقان كل ما يختارون من أهداف أو مساع.

كن على أفضل ما يمكن أن تكون عليه

أؤمن أيضا أن كل إنسان لديه على الأقل ملكة ما- ربما تكون ملكة عمل أو رياضة ما أو مهارة في خلق العلاقات . كل امرئ -حتى أولئك المصابون بأشد أنواع العجز - من الممكن أن يكون ماهرا وحاذقا في شئ ما.

ربما يتخذ بعض الوقت حتى يتوصل إلى كنه تلك الملكة، و إلى أن تعثر على تلك الملكة أنصحك أن تتقن ما تفعله الآن و أن تفعله على أفضل وجه.

إن كنت مبرمج حاسب إلى فأحرص على أن تكون أفضل مبرمج، لو كنت كاتبا فاسع إلى أن تكون أفضل كاتب، و إذا كانت مهنتك تنظيف دورات المياه فلتكن أفضل من ينظف دورات المياه.

و في الوقت الذي تسعى فيه أن تكون أفضل من يقوم بنوعية العمل الذي تمتهنه فكر في الشيء الذي تحب من داخلك أن تقوم به، الشيء الذي تفضله ثم ضع تصورا للخطوات و الوسائل التي عليك أن تتبعها لتكون الأفضل في ذلك الجانب الذي توصلت إليه.

أول ما أنصح به من يريد أن يكون مرموقا في مجال ما، أنه لابد له أن يصبح جديرا بذلك المجال، على سبيل المثال: أنا أعد خبيرا فيما يطلقون عليه في عالم الحاسب الآلي "خدمات البرامج" و يشمل هذا التخصص أربعة أنواع من البرامج و قد تطورت خبراتي في المجالات الأربع حتى أصبحت خبيرا بها جميعا حتى أنني تفوقت على الآخرين في بعض جوانبها و ما دمت أصبحت خبيرا في أي شيء فإن ذلك يعني أنني أتقنه.

لا يمكنك أن تظل على سطح مجال ما لا تملك إلا قشوره السطحية إذا كنت تريد أن تتمكن منه، لقد عرفت أناسا كثيرين يمضون حياتهم متنقلين من مجال عمل إلى مجال آخر و من حرفة أو مهنة إلى حرفة أو مهنة غيرها مثل حجر مسطح يتقافز فوق سطح بركة لا يضعون أبدا قدما ثابتة على شيء بعينه و بذلك لا يصلون أبدا إلى أن يصبحوا خبراء في مجال ما و مثل الحجر المسطح ينتهي بهم الأمر إلى الغوص إلى قاع البركة.

أسأل نفسك ما الذي يتطلبه الأمر حتى أصبح خبيرا في مجال ما ثم أفعل ما يتطلبه ذلك و تابع من أصبحوا خبراء في ذلك المجال و أقرأ كثيرا و لاحظ كل ما يمكنك ملاحظته فيما يختص بذلك و كن مستعدا لأن تكون لك خبرات و اجتهادات شخصية.

إذا أردت مثلا أن تصبح خبيرا في المحركات لابد أن تركب بعضها بنفسك أولا. في الوقت الذي تطور فيه خبراتك حتى تصبح على أفضل نحو ممكن، من الهام أن تكون مفيدا للآخرين . لا يهم موضعك و لا نوع العمل الذي تمارسه، بل أفعل ما يزيد من قيمتك للآخرين و ستأتي الفرصة التي تطلع إليها من تلقاء ذاتها . في عملك وفي بيتك وفي المناسبات الاجتماعية أفعل ما تستطيع فعله حتى تترك أثرا في الآخرين و حتى تكون لك قيمة في الحياة.

كن مفيدا لرئيسك و لأسرتك و لأصدقائك و في نهاية اليوم سل نفسك كم كنت مفيدا للآخرين في ذلك اليوم.

و حتى تصبح على أفضل ما يمكن أن تكون عليه في مجال ما فإن ذلك يتطلب أن تحترم من لهم سلطة وظيفية أعلى.

عرفت كثيرا من الموهوبين جدا و المهرة جدا يعانون في مجالاتهم لأنهم غـــير متوافقين مع رؤسائهم. تجدهم ساخطين و يسبون الزمن و يذمون رؤساءهم ثم لا يفهمون بعد ذلك لماذا لا يحصلون على الترقيات الوظيفية التي يتطلعون إليــها أو لماذا لا يحصلون على أفضل المخصصات الوظيفية.

لقد أدركت مبكرا أهمية احترام رؤسائي و أن أهيئ نفســـي لعمـــل مـــا يريدون مني عمله–حتى لو لم تكن تلك التكليفات تحوز رضــــاي . ويسمى ذلك في عالم الأعمال "لا توافق ولكن افعل " ويعني ذلــــك أنه حتى إذا لم يرضك القرار المتخذ أو لا تتفق معه ، عليك أن تنفذه لأنه يمثل توجه الشركة .

أن تكون على أفضل ما يمكن أن تكون عليه يتطلــــب مجـــهوداً شاقاً، وسيطرة على الذات والتواضع الجم ، كلها مفاتيح ضروريـــة للحياة في عالم صعب ، حياة ثرية بمعطياتها ومرضية لمشاعرك.

الجرأة على الحلم

لم ينجز أي امرئ شيئاً ذا قيمة دون أن يحلم به أولاً ، أنها حقيقة ثابتة أن أي اختراع عظيم بدأ بالحلم به ، ثم يتحول بالعمل والكد والمثابرة إلى حقيقة . قبـــل اختراع عربات تجرى بلا خيول تجرها ، كان هناك إنسان يحلم بعربة ذات قـــوة ذاتية قادرة على حمل الناس ونقلهم من مكان إلى آخر . وقبل اخـــتراع التلفـــاز واتت شخصا ما فكرة نقل الصوت والصورة عبر الأثير إلى مستقبلات في أمـــاكن أبعد .

قبل أن تحدد أهدافك ، وقبل أن تضع الخطوات والخطط لتحقيـــق تلك الأهداف ، لابد أن يكون لديك القدرة على الحلم ، لا أعـــــني طبعاً أحلام اليقظة العبثية ولا الأحلام الخيالية بل أعني الرغبات الـــتي يمكن تحقيقها ، أعني صوراً ذهنية حية وحميمة لأشياء تود تحقيقها في حياتك ، يمكن تصورها وتتسم بقدر من الواقعية وإمكانية التحقق.

تعلمت أيضاً منذ كنت طفلاً صغيراً أن أحلم (ويصبـــح ذلـــك سهلاً ومتاحاً لأي امرئ يلازم الفراش في مستشفى على مدى شهور

طويلة) ، مازلت أتذكر أنني أحلم بتصميم عربة يدوية يمكنني أن أركبها وأتجول بها .

فكرت في تصميمها بطريقة مميزة وبمواد محلية متوفرة في سان فرنسيسكو كمواد محركة وهي الرياح ، فكرت في تثبيت شراع على تلك المركبة اليدوية لتدفعها الرياح بسرعة أكبر من سرعة العربات اليدوية المعروفة .

وأميل إلى أن تكون أحلامي مسموعة أو مخططة على الورق ، وقد فعلت ذلك في الأحلام التي راودتني لتنفيذها في المزرعة — الجرن القديم ، ونموذج مدينة الغرب الأمريكي القديم المتحركة ، وسفينة القراصنة ، وبيت الألعاب الخلوي -.

حين كنت صغيراً كنت أحلم بحياة على نمط حياة توم سوير ، وأحلم بخوض المغامرات التي خاضها ونوعيات البشر الذين التقى بهم في طفولته ، وحين كبرت حلمت ببناء نموذج لمدينة تشبه عالم توم سوير في منتصف المزرعة حتى يكون لأولادي مغامراتهم التي يستمتعون بها .

تحدثت إلى أصدقائي عن تلك الأحلام كما حكيتها لمساعدي في العمل ، واستمع كثير منهم إلى تلك الأحلام بتهذيب ثم ابتعدوا وهم يتنهدون ويفكرون في مدى جنوني إلا أنني لم أتأثر أبداً بما يعتقدونه ولم أتوقف عن الحلم ولا عن التخطيط لما أحلم به ، لم يهمني أن يظن أصدقائي أنني قزم غريب الأطوار ، لدي أحلامي وسأعمل كل ما يمكنني عمله حتى أرى تلك الأحلام وقد تحققت .

أمضي ساعات طويلة في البيت ومعي أقلام وأوراق أخطط فيها ما أحلم به ووسائل تحقيق تلك الأحلام وحين يتاح لي بعض من وقت فراغ أعكف على إعداد ما يتطلبه تحقيق تلك الأحلام لأشيد لأبنائي ما يستمتعون بقضاء أوقاتهم فيه بصحبة أصدقائهم ، أماكن يستطيعون فيها إطلاق خيالاتهم لأنمي لديهم القدرة على الابتكار

وبمرور الوقت اقتربت أحلامي أكثر من التحقق. أحث الناس على الحلم كما أحثهم على تحقيق ما حلموا به ، إلا أنهم يتقاعسون عن السعي إلى تحقيقه ، وعن جوانب مفيدة لهم يمكن تحقيقها .

ضع أهدافاً كبيرة يمكن تحقيقها

من الهام أن نحلم وأن نخطط ، ولا يقل أهمية عن ذلك أن تكون الأهداف منطقية ، فالحلم هو رؤية أو فكرة لشيء تحب أن تقوم به، والهدف هو حلم يتحول إلى خطة لتحقيق ذلك الحلم على سبيل المثال حين تحدث الأمريكيون في الخمسينيات وأوائل الستينيات من القرن العشرين عن إمكانية وصول إنسان إلى سطح القمر ، فإن ذلك كان حلماً وحين طلب الرئيس جون كنيدي من المختصين أن يعملوا على إنزال أول إنسان على سطح القمر خلال عقد من الزمن ووفر لهم ميزانية تبلغ بليون دولار لتحقيق ذلك ، فإن ذلك أصبح هدفاً بعد أن كان حلماً وكذلك مدى زمني محددا لتحقيقه وميزانية مالية محددة.

وأنا أحب أن أضع أهدافاً لنفسي وأحب أن تكون هناك عدة أهداف في مرحلة زمنية محددة – أي أن تكون هناك أكثر من مكواة على النار – أحب دائماً أن أحدد أهدافاً قصيرة المدى وأخرى طويلة المدى ، أهداف جاهزة للتحقق وأهداف أخرى تحتاج إلى جهد وسعي لإنجازها .

قال لي أحد العاملين بالشركة ذات يوم " أنت تعرف كيف تخرج والى أي مدى تسعى وتصل إلى ما تسعى إليه " وما قاله ليس إلا تعريفاً لإحدى فلسفاتي في الحياة ، أنا أؤمن أنني لابد أن أتحدى قدراتي وأن أصل إلى ما هو أبعد مما أحققه الآن ، أن أضع أهدافاً عسيرة إلا أنها ليست مستحيلة التحقق.

هناك تمييز آخر ما بين الأحلام والأهداف ، فالأهداف يمكن تحقيقها بالمصادر المتوفرة لك ، وأنا أميل إلى وضع أهداف ترهقني وفي الوقت نفسه أكون عملياً . أحد الأخطاء الكبرى التي يقع فيها الناس أنهم يضعون أهدافاً غير واقعية ، على سبيل المثال لم يكن هدفي أبداً في أي يوم أن أضع جدول مباريات اتحاد كرة السلة الأمريكي.

ووضع الخطط يتطلب وضع الخطوات اللازمة لتحقيق تلك الأهداف ، يذكرني ذلك دائماً بمقولة كان "جون أندرسون " رئيسي في شركة آلتوس يقولها لي " لا تستطيع أن تصل هناك من هنا " كنت أحيا وفي ذهني القول المأثور " لا أقدر ليست إلا كلمة من ستة حروف " ، أشعر بالجنون حين أجد من يقول أنه لا يقدر أن يفعل شيئاً ، أن قيمة ما كان " جون أندرسون " يقوله لي يبرز حقيقة أنك أحياناً لابد أن تسلك مساراً آخر حتى تصل إلى ما تريد أن تصل إليه أو أنك بحاجة إلى إضافة خطوات أخرى حتى تصل إلى هناك بدءا من هنا ، أي إلى هدفك . وهناك خطأ آخر في وضع الأهداف وهي أن بعض الناس يحاولون الوصول إلى النقطة (ج) حين يكونون ما زالوا بالنقطة (أ) ، إنهم يحاولون القفز على (ب) و (ت).. الخ مما يعرضهم للفشل والإحباط.

أحياناً يكون ما أسعى إلى تحقيقه من الممكن تحقيقه في خطوة واحدة ، وأحياناً تكون مشروعاً يتطلب أكثر من خطوة وأكثر من مرحلة ، استلزم نموذج الغرب الأمريكي القديم المتحركة مراحل متعددة ، وكان لابد لكل مرحلة أن تكتمل تماماً قبل الانتقال إلى المرحلة التي تليها ، وأنا فخور بها لأن " ديزني لاند " لا تحتوى على نموذج مثل الذي أقمته .

الزمن محدد .. أنفقه بحكمه

من العسير أن أجد مهما فكرت قيمة غالية وثمينة تماثل الوقت ، الوقت قيمة غير متجددة وما يضيع من وقت لا يمكن أبداً

استرجاعه، كل ساعة أقضيها في العمل أو اللعب أو الاسترخاء أو النوم – وكل ساعة تضيع هباء – هي ساعة لا يمكنني استرجاعها أو أنفاقها على نحو آخر .

لهذا السبب أنا من أشهر من ينفقون وقتهم بكفاءة وحكمه ، أنا أؤمن بأهمية الاسترخاء ولا يوجد ما يشين في قضاء بضع ساعات لمشاهدة مباراة كرة في التلفاز – مع أني أفضل مشاهدها في الملاعب إذا تمكنت من الحصول على بطاقات – ولا أجد بأساً من قضاء بعض الوقت في قراءة ممتعة أو مشاهدة فيلم ، وأتفق تماماً على أهمية قضاء بعض الوقت وعمل أشياء مشتركة مع أفراد أسرتي لمجرد أن نكون معاً .

أكتشف أنني حين أقضي وقتي بحكمه وتدبير ، يتوفر لدي وقت أكثر ، وأحد المفاتيح الهامة التي تعلمتها هو أن أتجنب أكبر مضيع للوقت فيما لا طائل ورائه وهو التلفاز . إذا التقيت بإنسان يقول أنه لا يملك وقتاً كافياً لعمل ما يجب عمله فإن أول سؤال أوجهه له هو كم ساعة يقضيها في مشاهدة برامج التلفاز كل يوم ، ثم أنصحه أن يغلقه بعد ذلك ويعمل عملاً مفيداً .

التلفاز هو أكبر مضيع للوقت في عالمنا المعاصر ، خاصة لمن يقضون الساعات لمشاهدة برامجه يومياً ،التلفاز بمثابة ثقب أسود يبتلع الوقت ولا يعطيك في مقابل ذلك شيئاً . أنا لا أدعو إلى مقاطعة التلفاز كلياً بل أتحدث عن الاعتدال ، هناك بعض ما يعرض أشاهده مثل الأخبار حتى أكون على دراية بالأحداث التي تقع ، ولكن حتى أثناء مشاهدتي لبرامج الأخبار أجلس ومعي دفتر أوراقي لأضع قائمه بما سأفعله في اليوم التالي أو أسجل فيه فكرة واتتني أو خطة .

إن مشاهدتي للتلفاز بحساب تطورت لدي منذ أن كنت طفلاً حين كانت أمي تحد من وقت مشاهدتنا له ، واتخذت أمي خطوة

أكثر تطوراً وأنا في سن العاشرة وهي خلع موصل كهرباء التلفاز وتخزين الجهاز في مكان لا يمكن تشغيله فيه ، كانت أمي تدرك أن التلفاز من أكبر أسباب إضاعة الوقت هباء بلا جدوى ولا عائد ، كانت تحمينا من السقوط في ذلك الفخ ، وكانت تفضل لنا أن نخرج للعب خارج البيت أو القراءة أو مراجعة دروسنا ، حتى حين كنت أقضي أوقاتا طويلة بالمستشفى كانت فرص مشاهدة التلفاز محدودة بأوامر من إدارة المستشفى .

عاونتني قلة مشاهدة التلفاز على تطوير قدراتي الإبداعية حين كنت طفلاً ، فبدلاً من الجلوس أمامه لساعات كما كان يفعل رفاق الطفولة ، كنت أخرج لأداء أشياء أو بناء أشياء أو لكسب بعض المال ، كنت أستغل الوقت في جانب منتج ، أبدأ عملاً أو ابتدع أشياءً مثل موزع الصحف الدوار (كان الغرض منه تسهيل عملي في توزيع الصحف) وكذلك محطم و سطح علب المشروبات الفارغة التي كنت أجمعها وأبيعها .

لقد اقتفيت خطى والدتي في ذلك أنا أيضاً وقصرت مشاهدة أولادي للتلفاز على بضعة برامج وبعض الأفلام التي تحوز شرائط مسجلة لها ، بالإضافة إلى إغلاق التلفاز أغلب الوقت ، تعلمت أن أسجل قوائم بالأشياء التي يجب علي القيام بها أو إنجازها في وقت محدد ، وأصبحت بارعاً في وضع القوائم ، واقتطع بعض الوقت في الصباح الباكر لعمل قائمة اليوم ، ثم أضع تصوراً لإنجاز القائمة بكفاءة فأقرن إنجاز هدفين ببعضهما حتى لا أضيع وقتاً في إنجاز كل منهما منفرداً على سبيل المثال : إذا كان على أن أغير زيت السيارة وأقص شعري فإنني أفعلهما معاً — وكنت أتمنى أن أقوم بهما معاً في الوقت نفسه لو كان هناك موضع لتغيير زيت السيارة لدى الحلاق.

الوقت عنصر حيوي وهو مصدر محدود لكل إنسان وإنفاقه على الوجه الصحيح بكفاءة ضروري ضرورة مطلقة إذا كنت تسعى لقهر العراقيل والمصاعب التي تضعها الحياة في طريقك.

استعمل عقلك

لا يبدو لي ذلك من الوجهة السياسية ملائماً أن أقوله ، إلا أنني أدركت من صغري أن حالتي البدنية لا تسمح لي بعمل أشياء كثيرة يفعلها الآخرون ، وأحس أنني محتاج إلى دقة شديدة حين أتحدث عن ذلك حتى لا أستعمل كلمة " محدود " لأني لا أشعر أن حالتي أعاقتني بأي شكل بل على العكس دفعتني في اتجاه لم أكن لأسلكه لو كنت عادياً.

لقد أجبرتني حالتي على استعمال وتطوير قدراتي الذهنية والتي كان يمكن ألا أتعرف عليها ولا أستعملها لو لم أكن على حالتي البدنية تلك ، كان أبي يعلمني على الدوام أن العقل مثل العضلة يحتاج إلى مران لينمو ويتسع ويكبر ، علمني أن بالعقل قدرات مذهلة ومدهشة وأن بإمكانه تقريباً التوصل إلى حلول لكل المشاكل لو تعلمت فقط كيف يمكن أن استخدمه الاستخدام الصحيح.

تعلمت مثالاً على صدق ذلك من موضوع قرأه لي حين كنت طفلاً ، كانت قصة عن أسير حرب أمريكي أثناء حرب فيتنام اسمه " هوارد روتلدج " كان عنوان الكتاب " في حضور أعدائي " ١٩٦٥-١٩٧٣ " أسير الحرب " ، كان روتلدج يستلقي داخل زنزانة اعتقاله في الليل ويتخيل منزل الأحلام الذي يحلم ببنائه حين يعود إلى الوطن ، وفي محاولة منه لدفع الملل والوحدة والمعاناة التي كان يحاول احتمالها في الزنزانة المظلمة كان يتخيل كل خطوة من خطوات بناء المنزل الذي يحلم به ، من أسفل طابق حتى دهان الواجهة ، تخيل نفسه يبني المنزل حجراً بحجر ومسماراً بمسمار ولوح

خشب إلى جوار لوح خشب ، فكر في كل زاوية وكيفية تثبيت كـل مسمار وكيف يصمم شكل كل غرفة وعندما أطلق سـراحه مـن معتقل الأسرى ، استعاد تفاصيل حلمه الطويل ولم يمض وقت طويل بعد عودته من أسره إلى وطنه في الولايات المتحـدة إلا وشـرع في تحقيق حلمه كما تخيله تماماً .

رأيت نفسي مثل هوارد روتلدج " حين كنت أسيراً بالمستشـفى ومثل روتلدج تعلمت أن استعمل عقلي وهي مهارة من المـهارات التي لا تقدر كلما مضيت في الحياة وكلما واجهت مصاعب ضخمـة وعراقيل كبيرة تستلزم استخدام العقل في قهرها .

الناس مهمون

لا يوجد أحد في هذا العالم – من أعجزهم بدنيـاً إلى أكملـهم بدناً وعقلاً – يمكنه أن يحقق شيئاً هاماً في الحياة إذا لم يدرك أهميـة الناس ، أهمية وقيمة كل وجود بشري لأن كلا منهم قد صنعـه الله على شاكلته ، وأنا محظوظ لانتمائي إلى أسرة علمتني حـب النـاس واحترام وتقدير كل من التقي به ممن يعدون " هـامين " إلى مـن يعدون " عاديين" ، كان ذلك من أكثر الجوانب التي أعجبتـني في شخصية أبي ، لم يضارع أحد أبي أبداً في حبه للناس ، كان من ذلك النوع الذي يبادر الناس بالحديث في أي جمع ، كان من النوع الـذي لديه حب متأصل للآخرين لمجرد كونهم بشرا .

أنا أيضاً أحب أن أتفاعل مع الآخرين ، ضعـني في احتفـال أو طائرة أو حافلة أو مصعد أو اجتماع عمل وستجدني أتبادل الحديث على الفور مع من لديه رغبة في الحديث ومع المتحفظـين أيضـاً ، تركيبي الشخصي يشعرني بالتحدي إذا كنت بطائرة وكان من يجلس بجواري من الصنف الذي يدفن وجهه في صحيفة أو مجلة ، وأحـب أن أترك انطباعاً أولياً جيداً لدي من ألتقي لأول مرة ، وأحب عقـد

الصداقات والصلات والعلاقات مع الناس وأبذل جهدي أن تكـــون علاقات دائمة لا عارضة وأخلق من الأسباب ما يدفع من أتعـــرف إليهم أن نتواصل بعد ذلك ، استهلك كل عام آلافاً من البطاقـــات الشخصية الخاصة بي كما أصبح لدي مئات من البطاقات الشـخصية لأناس التقيت بهم في مناسبات مختلفة .

تعلمت أنه يمكن أن تكون هناك فوائد شخصية جمة من معرفـــة الناس والتفاعل معهم ، تعلمت أيضاً أن كل امرئ لديه ما يمكـن أن يقدمه لي وأن لدي ما يمكن.أن أقدمه إليهم ، قد لا يعدو ذلك تقديم فكرة أو رأي أو قد يتجاوز ذلك ويتطور إلى مشروع عمل كبير .

وأنا أشجعك أن تنمي عادة توفير بعض الوقت للحديـــث مـــع الناس الذين تلتقي بهم أو أن تهيئ نفسك لتبادل الحوار بغض النظـــر عن المكان والموضوع ، كون علاقات مع أناس ممن تلتقي بهم كـــل يوم فهو جانب شيق يثري حياتك ومن الممكن أن يكون للشـــخص الجالس إلى جوارك في الحافلة أو الطائرة أو في صف شراء بطاقـــات السينما تأثير كبير في جانب من جوانب حياتك ، حين تؤسس تلـك العلاقات اجعل الأولوية للتكامل الشخصي بينك وبين من تتعـــرف إليه وعامل الناس بما تحب أن يعاملوك به وتيقن دائماً من محـــافظتك على وعودك وعهودك .

احرص على إشعار الناس أنهم مـــهمون لـــك وأن أفكـــارهم وأحلامهم تمثل شيئاً ذا قيمة ، كن مستعداً للاستماع إليهم وكـــن مرناً حين تكون في موضع تقييم أفكارهم ، حـــين يحـــدث ذلـــك شجعهم وامتدح ما يفعلون أن كانوا يفعلونه من أجلك أو من أجـــل أنفسهم .

حين تكون هناك مشاكل وصراعات في علاقاتك الشـــخصية ، تعلم أن تستجيب لا أن يكون لك رد فعل وأن تفكـــر في أقوالـــك وأفعالك حين ينشأ نزاع ، انتق معاركك وتعلم كيف تتغـــاضى إذا

قام أحد ما بتصرف صغير يضايقك أو يزعجك ، وضع في ذهنك أنك ممكن أن تتسبب في شيء مماثل لغيرك في اليوم التالي .

حين يحدث موقف يمكن أن يغضبك ، أن أمكنك ألا تغضب فلا تغضب ، كنت وأنا صغير سريع الغضب والاشتعال من أشياء صغيرة واستهلك كثيراً من المشاعر الانفعالية والطاقة الحيوية في الغضب والاحتراق الداخلي — وكان يمكن استهلاك تلك الطاقة في جوانب نافعة ، هناك أوقات يكون الغضب فيها مبرراً بل يكون ضرورة إلا أنني تعلمت أن تلك المناسبات التي تستحق الغضب قليلة ونادرة ومتباعدة أكثر مما كنت أظن وأنا صغير .

كن رحيماً على الدوام بمن تلتقي بهم ، كان أهلي - وخاصة أمي - يعلمونني أن أكون رحيماً وأن أكون مستقلاً ولا أنتظر المعاونة من أحد أو معاملة خاصة من أحد , وأن تكون أقوالي وأفعالي متسمة بالرحمة بالآخرين خاصة حين يعرض على أحد المساعدة إذا كنت بغير حاجة إلى تلك المساعدة .

صل لله كي يهبك حكمة سليمان

لو عرض على الاختيار ما بين الحكمة والتعليم الرفيع والذكاء والمواهب سأختار في كل مرة الحكمة , أنا من أنصار التعليم رفيع المستوى وأشعر بسعادة لوجود أذكياء وموهوبين في هذا العالم ولكني لا أشعر بقيمة ذلك إذا لم يتسم كل منها بالحكمة , تقول التوراة أن سليمان كان يصلي لله طلباً للحكمة ، لم يسأله ثروة أو غنى ، واستجاب الله لصلواته ووهبه " الحكمة والرؤية الصادقة وقدرة على الفهم تفوق عدد حبات الرمال على شواطئ البحار " (سفر الملوك الأول ٤ : ٢٩) .

وتتحدث التوراة عن أهمية سعي البشر للحكمة وكيف أن الله يهب الحكمة لمن يسعون إليها , الحكمة بالنسبة لي هي القدرة على

الاستجابة الملائمة بكفاءة وبوسائل ملائمة لمواقف الحياة المختلفة باتخاذ القرارات الملائمة ، قد تدفع بك الموهبة والتعليم إلى شغل قمة المراكز في مهنتك ، إلا أنه أن كان لديك حكمة ستظل متواضعاً حتى لو تبوأت أعلى المناصب ، الذكاء والمعرفة يساعدانك على إحراز المكاسب في عالم الأعمال ، إلا أن الحكمة تدفعك إلى أن تعامل الناس بصورة حسنة ، كذلك العمل الدؤوب والجاد يساعدك على الوفاء باحتياجات أسرتك المادية ، إلا أن الحكمة تعينك على الوفاء بالجوانب المعنوية كزوج وأب .

عرفت كثيرا من الأذكياء والموهوبين وذوي القدرات غير المحدودة ومميزات هائلة وتعليم رفيع المستوى إلا أنهم لا يتصفون بالحكمة والوعي مما يجعلهم محدودين ، وعلى جانب آخر قابلت أناسا متوسطي الذكاء إلا أنهم يدركون ما تتطلبه مقابلة مصاعب الحياة واختباراتها القاسية .

لم أخف على طول هذا الكتاب إعجابي واحترامي لأبي ، وممتن لكده وتعبه حتى خرج بي من محن صعبه فرضت علي منذ مولدي ولازلت مندهشاً من مقدار حبه لزوجته وأبنائه ، وأعتقد أن هذا الحب هو حجر الزاوية الذي بنيت عليه حياتي وبقدر ما أعجب بأبي وأحترمه إلا أن حكمته ما زالت تدهشني ، فبينما كان أبي على قدر كبير من الذكاء إلا أنه لم ينل قسطاً وافياً من التعليم وكان لديه من الحكمة القدر الذي عاونه على المرور بنا في خضم فترات عصيبة.

حين كنت طفلاً ، كنت أصلي وأدعو الله أن يجعلني طويلاً إلا أن جزءاً داخلياً من فكري كان يقول لي أن إرادته لم تشأ لي أن أكون طويلاً لذلك بدأت أصلي من أجل شيء كنت أعرف أن مشيئته تسمح لي به ، شيء أحتاجه بشدة كقزم في عالم من طوال القامة ، لم أكن أسمي ذلك الشيء حكمة في ذلك الوقت إلا أنني كنت أدرك

كنه وجوهر الشيء الذي أصلي من أجله وكنت على يقين أن الله سيهبه لي .

لقد كنت محظوظا أن تكون لي القدرة على الازدهار في عالم تنبأ لي فيه الجميع بأنني لن أنال أكثر من مجرد البقاء إلا أنني أصبحت أتمتع بجوانب في الحياة ، طالما ظل والداي يتساءلان أثناء طفولتي أن كان من الممكن أن أتمتع بها في يوم من الأيام ، إلا أنني لم أحقق ذلك بذاتي وحدها بل بمعاونة أسرتي التي أحبتني وأعانتني وعلمتني ووجهتني عندما كنت أحتاج إلى توجيه وحققته أيضا بمعاونة الأصدقاء الذين أحبوني وتجاوزوا شكلي الظاهري ورأوا في شابا ضئيلا بأحلام كبيرة .

- ١٥ -

موضع الله من حياتي

" وأما أنا وبيتي فنعبد الله " (سفر يشوع ٢٤ : ١٥)

لا أتذكر أي وقت من حياتي رأيت نفسي فيه " مخلوق غير طبيعي " أو نوع من الأخطاء الجينية وباستثناء فترات متقطعة حين كنت طفلاً لم أتطلع أبداً أن أكون طويلاً و لم يرد بذهني أبداً أن الله قد ظلمني ، أو أن أبي وأمي ملومان لولادتي على تلك الصورة .

كنت دائماً أشعر بالاطمئنان ليقيني من أنني قد خلقت على تلك الهيئة لهدف ما ، أدركت أن الله يعرف أفضل طريقة لأن يجعلني الرجل الذي يريدني أن أكونه بأن خلقني قزماً كانت تلك إرادته لي لا رؤيته المسبقة ، ساعدني اليقين بالفرضية والهدف من خلقي على تكوين مشاعر من الرضا والامتنان كلما ورد إلى ذهني هيئتي وعجزي.

ومن يعرفني من الناس يدرك أنني غير كامل ، ولا أرى في نفسي صورة مجسمة لما يمكن أن يطلق عليه أحد " رجل الله " فقد كانت هناك فترات من حياتي اتسمت بالاقتراب وفترات أخرى اتسمت بالابتعاد عن الدين ، كافحت في ميادين عديدة من التي يكافح فيها الناس ، وانغمست في نواح لا ينغمس فيها أغلب الناس ، انغمست في سلوكيات أوقن أنها لا ترضي الله.

هل أحب الرب ؟ بلى ، أحبه

هل أؤمن بالكتاب المقدس ؟ نعم

هل أؤمن أن كل شيء يعمل لصالح أولئك الذين يحبون الله ؟ نعم بلا أي جدال لكن، بالرغم من كل ذلك هل مازلت أذنب ؟

نعم ، أخطئ كثيراً حتى أنني أحياناً ما أشعر بالذنب وأسأل الله الصفح والمغفرة ، وأعلم من قراءتي للكتاب المقدس أن قدرة الله على الصفح والمغفرة تفوق بما لا يقاس قدرتي على إغضابه ، علمت أن الله عن طريق عدم كمالي – بالرغم من أنها ليست مشيئته أن أرتكب خطيئة – يبث في شعوراً بالذنب حتى أظل متواضعاً وحتى يذكرني على الدوام بمدى احتياجي إليه ، أشعر باطمئنان مطلق لحقيقة أن الله يحبني ويهدف إلى أن أكون أقرب إلى يسوع ، أنا أعلم أن الله وفيّ ولا يتبدل أبداً ، حتى في أسوأ أيامي ظللت على إيماني بأنني لست وحدي وأن الله سينجيني مما أعانيه ، وأنه ينجيني أيضاً من العثرات التي أقع فيها بإرادتي .

الموقف هو كل شيء

لم تكن الحياة سهله أبداً بالنسبة لي ، إلا أنها عظيمة وذلك لأنني اتخذت موقفاً صحياً وإيجابياً من ذاتي ، وأنا أؤمن أن الموقف من الذات له التأثير الجوهري على اجتياز العقبات التي تدفعها في طريق الإنسان ، الموقف من الذات ، إحساس باطني عميق ، ويظهر في كيفية استجابتك لما يقع لك من أشياء وأحداث وما يصادفك من مشاكل ، وما تعامل به الناس الذين تلقاهم في مسيرة حياتك وهو التعريف الذي يحدد كينونتك كإنسان.

لكن ما الذي يجب أن تفعله لتطوير موقف صحيح ؟

أؤمن أن الموقف هو مظاهر مستوى توافق الفرد مع مشيئة الله وهناك ثلاث مراحل لتطوير رؤية الإنسان الإيمانية :

أولها : أن يكون هناك تسليم بأن الله قد خطط حياتك .

ثانيها : أن يكون هناك قبول بتلك المشيئة .

ثالثها : أن يكون القبول بمتعة وإحساس بأن كل ما قدره لك ممتع ومثير.

أشعر بقشعريرة تعتري بدني كلما تذكرت أن الله قد قدر لي كل حياتي لذلك أتطلع إلى المستقبل وأقول " لا داعي للقلق " كنت في أحيان كثيرة أخشى أن

تكون مشيئة الله لي أن أكون مبشراً في إفريقيا ، وكنت أتساءل أن كان بمقدوري بدني هذا أن أقوم بذلك إلا أنني أشعر الآن أنني قادر على ذلك لو كانت تلك مشيئته ، فضلاً عن ذلك لو كانت تلك هي مشيئته فأنا أعلم أنها ستكون مبهجة، لا يريد الله منا أن نقبل مشيئته فقط بل أن نتهلل لها ونبتهج ونقبلها سعداء .

كبرت وأنا أسمع كيف أنني خلقت على هذه الأرض لعبادة الله وتعظيم اسمه ، اعتاد أبي أن يقول لنا أقوالا التصقت بذاكرتي ، وكنا نتوقع سماعها حين كانت أسرتنا تمر بأوقات قاسية ، كان أبي يبتسم (حتى لو كان متألماً من أحداث تقع لنا) ويرفع إصبعه باتجاه السماء ويقول " هذه فرصة جديدة لنشكر الله ونذكر اسمه " ، كانت تلك الكلمات بمثابة تذكير لأبي أن يحافظ على موقف إيجابي في الوقت الذي كان كل شيء حوله وكل ما يحدث له يدعوه ليجأر بالشكوى ، كان ذلك يساعده على التماسك بالرغم من أن أبي من أقوى الناس معنوياً من بين كل من عرفت من بشر ، أما أبي ، فقد أصبحت تلك الكلمات هي البديل لما يجأر به الناس في أوقات الشدائد ، حتى في أقسى لحظات الألم — حين تنزل المطرقة على إصبعه وهو يعمل — كان يجز على أسنانه ويبتسم على قدر ما يستطيع ، ويرفع إصبعه تجاه السماء ثم يشكر الله أن وهبه فرصة جديدة ليشكره ويذكر اسمه.

خلقت لسبب يعلمه الله

أرى المسيح على هذه الصورة : يعلم الله أنه من الصعب على البشر إدراك ذاته ولذلك رأى أنه يحتاج إلى صورة بشرية حتى تستوعب أذهان البشر ماذا يمكن أن تكون عليه صورة الرب ، صورة بشرية يمكن لمسها ورؤيتها والاستماع إليها وكانت تلك الصورة البشرية هي صورة عيسى ، نزل إلى الأرض وتجول فيها على مدى أعوام بين البشر ووضع " كل ما هو خير " في مبادئ وقيم يمكن للبشر أن يفهموها لأنه كان على صورتهم البشرية إلا أنه الرب ذاته أيضاً وهو الرب الذي

صنعني على الهيئة التي أنا عليها ومن واجبي كمسيحي أن أقدسه وأعظم اسمه بكل ما أوتيت من جوارح .

في فيلم أخرجته هوليود حديثاً اسمه " سيمون بيرش " ، كان سيمون قزماً في الحادية عشرة من عمره ولذلك لفظه أبواه لأنه قزم ، وراح يتساءل عن الهدف الذي خلقه الله من أجله على تلك الهيئة ، وراح يقول للناس — باقتناع وبإيمان طفولي — الذين يلتقي بهم " لقد خلقني الله في هذا المكان وعلى هذه الهيئة لسبب يعلمه هو " ثم يردف قائلاً " أدرك أنني أداة الرب " وفي النهاية يكتشف سيمون الهدف من إرادة الله بخلقه هكذا ، وبسبب إيمانه بأن الله قد خلقه هكذا لسبب محدد ، كان لدى سيمون بيرش قبول واقتناع بذاته في الوقت الذي لفظه الآخرون وأنكروه ، لقد أحب ما أراده الله أن يكونه ، وأنا جالس في قاعة السينما أشاهد فيلم "سيمون بيرش " أحسست إحساساً قوياً بتطابقي وتماثلي به ، كان كلانا قزماً يؤمن بإله له إرادة وغرض من خلقنا على هذا النحو ، ومثلي أيضاً كان سيمون صبياً يواجه مشاكل كثيرة ، إلا أنه تمسك بموقف جيد وإيجابي عن ذاته وعن موضعه من الحياة ، هذا الموقف الصلب انبعث من يقينه من أن الله لم يخلقه على الهيئة التي هو عليها أو يلقى في طريقه العقبات عبثاً أو بلا سبب .

وفي الوقت الذي لا يدرك فيه أغلب الناس — بل إن بعضهم يقضون أعمارهم بأكملها هاربين من ذلك اليقين — إن الله قد وضع خطة ومنهجا لكل إنسان خلقه ، مثل سيمون بيرش لن تعرف ما هي تلك الخطة ، وقد لا تفهم بشكل كامل كيف يشاء لنا أن نعيش في ظروف صعبة وأحوال قاسية إلا أن الحياة بقسوتها ومصاعبها التي هي عليها ، من الممكن أن تكون مثيرة ومشبعة للذات إذا استطعت أن تؤمن أن لا شيء فيها يقع بالمصادفة ، وأن الله هو الذي يضع العراقيل والصعاب في طريقك ، بل يضع أقصى وأسوأ ما يمكنك تخيله من مصاعب ليرى ماذا أنت فاعل .

بمجرد أن تؤمن وتوقن أن الله قد خطط حياتك ولديه الأسباب التي تجعله يخلقك على الهيئة والصورة التي أنت عليها — حتى لو لم تعرف على وجه التحديد لماذا خلقك هكذا — لابد أن تتعود على قبول ما يعترض حياتك ، حتى أسوأها وأصعب التجارب التي يمكن تخيلها لا تقبل ذلك فقط ، لابد أن تشعر بسعادة ورضا وتشكر الله على كل ما خططه لك .

ليست إرادتي ، بل إرادته التي تنفذ

كنت راضياً على الدوام بكوني قزماً وأقول بكل صدق أنه إذا عرضت علي معجزة طبية حديثة أو عقار طبي يحولني إلى إنسان عـادي الطـول والحجـم ، فسأرفض ذلك ، فأنا راض بما أنا عليه وراض بمن أكونه ، بالرغم مـن ذلـك ، مازلت أتذكر حين كنت طفلاً مستلقيا على فراشي قبل أن يواتيني النـوم وأنـا أصلي لله حتى يجعلني أنمو وأطول وأن تختفي الإعاقات الـتي ببـدني ، أنهكـني وأضناني حجمي الأضأل من أصدقائي وزملاء دراستي ، وتعبت من عدم قـدرتي على ممارسة الألعاب الرياضية معهم دون الاحتياج إلى الاتفاق على اسـتثناءات خاصة بي من قوانين الألعاب الرياضية ، وتعبت من كوني " مختلفا " جداً عـن أي ولد آخر ، لذلك كنت أصلي لله وأدعوه أن يغير لي جسمي.

ذات مرة حين كنا نسكن في بنجروف في كاليفورنيا ذهبت مع أسـرتي إلى صلاة خاصة بالكنيسة ، كانت الكنيسة من الكنائس الكبرى الـتي تقـام بهـا احتفالات دينية عظمى ، في تلك الليلة كانت الصلاة الخاصة تبعث على الأمل ، كانت صلاة للشفاء وكان الناس يتوجهون إلى المذبح ، وكـان القـس راعـي الأبرشية والقساوسة الذين معه يضعون أكفهم على رؤوس المرضى ويصلـون ، أجلس وأراقب ما يحدث ، واستدرت إلى أمي قائلاً " أريد أن أذهب معـهم " ، آمنت بشدة أنني لو تقدمت معهم وجعلتهم يصلـون مـن أجلـي ، فـإن الله سيشفيني، سأشفى .

كانت أمي تخشى أن ينتابني الخذلان واليأس إذا لم يتحقق ما أتمناه ، كـانت تخشى من اهتزاز إيماني إذا صلوا لي من أجل تلك المعجزة ثم لا تقـع معجـزة وأصحو في الصباح التالي وأكتشف أنني مازلت عاجزاً ، وبنفس القدر كـانت تخشى أن تمنعني من المرور بتلك التجربة أو تحرمني منها ، وحين تقدمت إلى الأمـلم

باتجاه المذبح ، راحت أمي تصلي في سريرها من أجلي ، وتطلب من الله أن يحمي قلبي من ضياع الإيمان .

طلبت من راعي الأبرشية أن يصلي من أجلي ، وضع يده على رأسي وصلى لله طالباً منه أن يشفيني ، لم أشك للحظة واحدة في أن المعجزة ستقع ، إلا أن المعجزة لم تحدث تلك الليلة ، لم تقع المعجزة التي صليت من أجلها ، إلا أن الله استجاب لصلوات القس وصلوات أمي ، لم يزد طولي بمعجزة أثناء الليل ، فقد اكتشفت في اللحظة التي استيقظت فيها في الصباح التالي أنني مازلت قزماً، وأن ساقي وذراعي والحوض و الكتفين وعمودي الفقري كلها على حالها لم تتغير . وذهبت إلى المدرسة في ذلك الصباح بالحالة التي كنت أذهب بها في الأيام السابقة، مازلت قزماً والعكازات مازالت في كفي وتحت إبطي ، إلا أنني أحسست أن هناك شيئاً قد تغير ، في ذلك اليوم كنت أشعر أن الله قد استجاب لصلواتي ، ولأول مرة أقضي يوماً عظيماً بالمدرسة و لم أطق صبراً فور عودتي أن أحكي لأمي ما حدث.

قلت لأمي في حماس شديد أول ما دخلت البيت " أتعرفين ما حدث ؟ أظن أن الله قد استجاب لدعائي " ، كانت أمي ترى بوضوح أنني لم أزد طولاً ، إلا أنها كانت ترى من حماسي ومن الطماع وحيوية نظراتي أنني أؤمن أن شيئاً رائعاً قد حدث لي ، قالت " حقيقي ؟ ما الذي يجعلك تقول ذلك ؟ " أخبرتها عن الأولاد الذين لم يكونوا يشركونني أبداً في اللعب معهم وأنهم اليوم دعوني للعب معهم ولا أدري لماذا ، إلا أنهم اتجهوا نحوي في ذلك اليوم وقالوا " هل يمكن أن تلعب معنا ؟ قد يكون لك ألعابا خاصة أو نحو ذلك " ، قلت لهم قواعد اللعب ولعبنا الكرة معاً ، لقد كانت تلك هي الاستجابة لصلواتي لا شفاء إعجازيا لبدني، لا طولا مفاجئا ، ولا توجد قدرة مفاجئة للعدو مع الأولاد ، الجديد الذي أحسسته هو إحساس من أصبح مثل الجميع في مضمار اللعب ، وهو شيء عظيم لمن يعرف حياة الأطفال في السنة الدراسية الرابعة.

إن ما حدث في ذلك اليوم كان معجزة بكل تأكيد ، لقد صليت لله أن يشفيني ، بالرغم من أن بدني ظل على حاله ، غير أن شيئاً بداخلي قد اختلف

وتغير ، على الدوام كانت تلك هي الوسيلة التي يقف بها الله إلى جـــــواري ، لم يكن يغير الوضع ، بل كان يغير ما بداخلي.

الصلاة تغير الأشياء

لا تحب أمي القول " الصلاة تغير الأشياء " لأن ذلـــك ليـــس صحيحـــاً بالضرورة ، وهي تعني بذلك أن الله مع قدرته على تغيير الظـــروف والأحـــوال استجابة لصلاة المصلين ، إلا أنه لا يفعل ذلك على الدوام ، وحين يشاء ألا يغـير الأشياء ، فإن لديه من الأسباب ما يجعله لا يغير الأشياء ، وبفـــهمنا البشـــري القاصر عن الأسباب ، فإن الجانب الهام للمعاناة أنها تجعل النـــاس أقـــوى إرادة وأشد إيماناً .

كانت أمي تدرك ذلك ، وتيقنت من ذلك بعد أن أصبح لديها ثلاثـــة أولاد معاقون كان عليها أن تربيهم ، كانت أمي تقضي الساعات كل أسبوع راكعـــة على ركبتيها مصلية لله ، لم يكن هناك أدنى شك أنها كانت تصلي بما يصلي بـــه يسوع وهو في بستان جينمان " يا أبتاه أن أمكن فلتعبر عني هذه الكأس ، ولكن ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت "

خطأ من ؟

حين كنا صغاراً ، استحوزت على ذهن أمي أسئلة محيرة كـــانت مصـــدرا لمعاناتها لزمن طويل ، كان من بين تلك الأسئلة لماذا أصبحت هي وأبي والديـــن لأبناء معاقين ، كانت تتساءل أن كانت قد ارتكبت خطيئة في حياتهـــا حـــتى تستحق ذلك ، كانت تعتقد أن هناك خطيئة ما في حياتها لا تعرفـــها وأدت إلى ذلك، كانت تؤمن بصدق وبيقين أنها رهن مشيئة الله ، وعاشت طويـــلاً بهـــذا الإحساس الزائف بالذنب.

كانت أمي تحفظ النصف الأول من الآية الأولى الإصحاح التاسع من إنجيـل يوحنا حين كان يسوع راحلاً من بلدة إلى بلدة ومعه تلاميذه ، والتقى برجـــل أعمى منذ مولده " فسأله تلاميذه قائلين يا معلم من أخطأ هذا أم أبواه حتى ولـد أعمى " ، كانت أمي قد قرأت تلك الآية عددا لا نهائيا من المـــرات ورددتهـــا

لنفسها كثيراً ، غير أنها كانت تخشى قراءة بقية الآية ، كانت تخشى قـــراءة رد يسوع على تلاميذه ، كانت مليئة بمشاعر الذنب والخوف وأن شيئاً أسوأ من كل ما وقع سوف يقع لها .

وفي يوم ، قرأت الآية التي تليها ، وحين قرأتها تخلصت من الإحساس الدفين العميق بالذنب ، في الآية التي تليها قال يسوع " لا هذا أخطأ ولا أبواه لكـــن لتظهر أعمال الله فيه " (إنجيل يوحنا ٩ : ٣)، أيقنت أمي أن إنجابها لولديـــن معاقين بشدة — لم يكن صموئيل قد ولد بعد — لم يكن عقاباً من الله لها ، إلا أن ذلك كان وسيلة الله لإظهار قدرته من خلالنا ومن خلال أبوينا ، أدركت بعـــد ذلك أن إنجابها لولدين معاقين لم يكن عقاباً لها ، ولكنه كان دعوة لتعظيم الـــرب وفرصة لذكر اسمه وللصلاة له .

أيقنت أيضاً أن الله لديه أسبابه ليخلقني — ومن بعدي أخي صموئيـــل — كقزم ، وكذلك أن يولد جوشوا (يشوع) بعيوب خلقية خطـــيرة في القلـــب والرئتين ، لم يكن ذلك لأن أحداً منهما قد ارتكب خطيئة ، بقدر ما كان للرب مشيئته الخاصة لأسرتي ، وكان بعض من مشيئته لم تتضح بعد .

أصغر من أن يكون هناك أسباب

الأحداث المحزنة والمؤسفة لا تقع إلا لأخيار الناس ، دائماً ما يكون الأخيـار من الناس عرضه للحوادث المأساوية والأمراض الخطـيرة ، الأخيـــار يحتملـــون انكسار القلب الناجم عن دمار علاقة إنسانية أو فشلها ، الأخيار يفقدون مـــن يحبون في أعمال عنف عشوائية غير مبررة ، وبفهمي المحدود كثيراً ما أتســـاءل ، لماذا تحدث مثل هذه الأشياء ، غير أنني أعرف أيضاً أن مثل هذه الأشياء ينجـــم عنها جوانب جيدة فحين يكون المرء على صلة بالله ويعلم حكمته في إرادتـــه ، حين تبدو الأشياء من ظاهرها سيئة - حتى المآسي — فمن الممكن رؤية جانبـــها الجيد .

ومثال حي ومبهر على ذلك ما وقع لـــ " جوني إريكسون تادا " وهي شابة رياضية عظيمة وباهرة الجمال ، حين كانت في العقد الثاني من عمرها ، أصيبـت بشلل كلي بسبب سقوطها على رأسها في قفزة غطس على الأرض الصلبة بعيـداً عن حوض السباحة ، وقضت الثلاثين عاماً الأخيرة قعيدة مقعد متحرك وبـالرغم

من قسوة تلك المأساة — أو بسبب تلك المأساة بوجه أصح — بــــدأت جـــوني سلسلة من الأعمال العظيمة في سبيل الله ، ككاتبة وفنانة ومتحدثة في وســـــائل الإعلام ، كتبت كثيراً من الكتب التي تبعث على التفاؤل والأمل ، وقدمـــت في تلك الكتب أمثلة من حياة بشر كثيرين ، وأسست ورأست مؤسسة " جـــــوني وأصدقائها " الخيرية التي تهدف إلى رعاية المعاقين والعاجزين كانت حياة جـــوني مصدر إلهام وأمل لي وللملايين كثيرة من البشر لأنها كانت مثالاً عظيماً لمن يتعرض لكارثة مرعبة – شلل كلي – إلا أن الله أعانها على تحويل تلـــك المأســـاة إلى إيجابيات ذات جدوى ونفع للآخرين ، كان إيمانها بالله هو مـــا أبقـــى عليـــها متماسكة وقوية وأتاح لها رؤية أن المواقف التي يتعرض لها الإنسان وتبدو وكأنهـــا تبعث على اليأس والانهيار من الممكن تحويلها إلى جوانب إيجابية ومفيدة للآخرين، مست كتبها وأحاديثها قلوب ملايين البشر في أرجاء العالم ، وحثهم على الثقـــة بالله حين تبدو لهم الحياة غير عادلة معهم ، أو حين يتعرضون لكارثة .

ويدرك عقلي المحدود حكمة الله فيما يشاؤه لي ولماذا خططه لي بالصورة التي خطه بها ، لا أملك المعلومات ، والمعارف الكافية حتى أدرك لماذا تحدث الأشـــياء بالطريقة التي تحدث بها ، أنا لا أدرك لماذا خلقني الله قزماً أعاني من إعاقات بدنيـــة كثيرة ، ولا أفهم لماذا ولد جوشوا بعيب خلقي خطير من الممكن أن ينهي حياتـــه في أي لحظة ، ولا أفهم لماذا ألقي على عاتق والدي مسئولية تربيـــة ثلاثـــة أولاد معاقين ، إلا أن الله يعلم أنه يحبط بما يمكننا عمله واحتماله وما يحيلنا أقوياء النفس والإيمان ونؤمن به ونعتمد عليه ، وهو يعلم أي المواقف من الممكن أن يجعل منـــــا أكثر فائدة لحياة الآخرين ، إنه يعرف ما يفعل وبالرغم من صلواتي ودعـــائي أن أتحول إلى شخص طويل لم تستجب كما كنت أريد، غير أنني لم أفقد أبداً ثقـــتي وإيماني بالله .

في كل الأحوال ازداد إيماني بالله بسبب التغيرات التي طرأت على مواقفـــي الفكرية وقد يبدو ذلك كنسق فكري معكوس ، غير أن ثقتي بالله قد ازدادت فعلاً كأن الله قال لي " كلا يا مات ، لن أجعلك أطول لأني خططت لك خططـــاً أخرى ولن تتحقق تلك الخطط إذا أصبحت مثل أي شخص آخر ، خلقتك قزمـــاً لسبب أعلمه ، وسوف أظهر لك الأسباب في حينها " .

المهيمن

بينما كنت أنمو في رحم أمي ، وأبي وأمي لا يعلمان أنهما سينجبان ولـــداً معاقاً بل شديد الإعاقة ، كان الله يهيمن على الأمر كله ، ولذلك أيضـا حـين كنت طفلاً صغيراً يتحمل عشرات الجراحات وعددا لا نهائيا من ساعات إعــادة التأهيل بعد كل جراحة ، وحين كنت في المدرسة العليا أحاول أن أظهر لـلأولاد أني لست ضعيفاً لكوني قزماً ، وحين كانت خبراتي تنمو بسـرعة في وظـائف الحاسب الآلي في وادي السيليكون ، وحتى حين كنت مغرقاً في غبائي حين كنت أتعاطى المخدرات ، كان الله في كل ذلك يهيمن عليّ ، وحين التقيـت بـإيمي وتزوجتها ، وحين أنجبت أربعة أبناء في غاية الروعة ، كان الله هو المهيمن .

كان الله المهيمن في ذلك الوقت ، وهو المهيمن الآن وهذا ما يجعل حيـاتي جميلة ومثيرة ، وبالرغم من أنني لا أعرف ماذا سيحدث في القادم من أيام حيـلق مثلي مثل أي كائن بشري آخر ، لا أخاف تقريباً انتظار أو توقع التحديات الـتي مازالت بانتظاري ، ويرجع ذلك ببساطة إلى يقيني الراسخ بأن الله يهيمن على كل شيء .

لقد أنعم الله عليّ في جوانب كثيرة بالمعنى المطلق والنسبي ، فأنا أؤمن أن كل ما نلته في هذا العالم : بيتي ، أسرتي ، سيارتي ، وكل شيء آخر ، كله مؤقـت وزائل ، أما ما سيبقى فهو ما خلقه بداخلي حتى يجعلني كابنه عيسى ، لا أعلـم الجوانب الإلهية لأنه لم يكشف لي عنها ، لم يأت الحين الذي تفصح عن نفسـها فيه ، طبيعتي البشرية تجعلني متشوقاً إلى معرفة ما هو قادم مع الأيام ، إلا أن الله لن يكشف لي عنه ولا عما قدره لي ، كأن الله يقود عربة جميلة هي حيـاتي وأنـني بالكاد لست إلا راكباً فيها ، أو أن وجودي مثل عملية سـرية عسـكرية ، لا يكشف عن تفاصيلها إلا وقت التنفيذ ، والله هو صاحب الخطة الذي لا يكشف عن تفاصيلها لأحد ، أنا مثلاً لا أعرف المخطط الكلي لشركتي إلا أن علي أن أطيع ما يأمرني به مديري وأنفذه كجزء من الخطة الكلية التي لا أعرف عنها شيئاً .

حياتي رائعة ، لا أمزح حين أقول ذلك ، واستمتعت بعلاقات رائعة مع الناس كما استمتعت بالمجال الذي اخترته كعمل ونجاحي فيه وأنعم الله علي بزوجة جميلة تساندني وتدعمني ولي أربعة أولاد رائعون ، ومزرعة ملك لنا أربي فيها أولادي .

ولا يوجد ما يجعلني أعتقد أن ذلك سيتغير في المستقبل ، وبالرغم من ذلك ، أدرك أنني يمكن أن أتعرض لمتغيرات على الجانب العملي أخسر معها كل ما أملك بيتي ، وظيفتي ، بل حتى زوجتي وأبنائي ، لا أحب بالطبع أن أفكر في تلك الاحتمالات ، إلا أنني أوقن أنه لو وقع ذلك الاحتمال ، سيكون الله موجوداً ، ليضعني في مسار جديد لحياتي ، ولا تحب زوجتي أن أفكر على هذا النحو ، فهي تريد لما نحن عليه أن يبقى على حاله لنا وللأولاد ، إلا أنني أقول لها حينذاك " عزيزتي ، إذا شاء الله أن ينزع عنا كل شيء فإنه لابد فاعل ، على أي حال إنه المهيمن على كل شيء " وبينما يفزع إيمي أن تجدني أفكر على هذا النحو إلا أنني أجد ذلك مثيراً .

لا أود بالطبع أن أفقد كل ما أملك ، غير أنني أشعر في الوقت نفسه بشعور غريب من البهجة عند ورود فكرة أن الله يقودنا إلى اتجاه جديد ، مدركاً أنه سيقود خطانا ويحفظنا في كل لحظة ، هذا النمط من التفكير هو ما يجعل من قصة " جوب " قصة مثيرة لي : كان رجلاً ثرياً ثراء فاحشاً ومعروفاً ومشهورا في موطنه لثرائه الشديد وإيمانه بالله ، وحين فقد كل ما يملك أراد كل الناس أن يعرفوا ما سيكون عليه رد فعله ، هل سينقم على الله ويكفر به أم يستمر على إيمانه ؟ لو كنت في موقف " جوب " أعتقد أنني كنت سأنهار وأتهاوى وسيتساءل أصدقائي عما يمكن أن أقوله عن الرب في مثل ذلك الموقف .

وأتساءل فعلاً هل لو كنت في موضع " جو ب " كنت سأستمر في إيماني بالله بالرغم مما سأكون عليه من بؤس أم أنني سأتساءل لماذا يحدث لي ذلك دون باقي البشر ؟ أم هل كنت أفعل كما كان يفعل أبي ، أي أن أرفع إصبعي باتجاه السماء وأقول " هذه فرصة جديدة لكي أشكر الله " في تلك اللجة ، وبالرغم من تخيلي الآلام التي تصاحب ذلك آلام فائقة يصعب على البشر احتمالها ، إلا أنني أؤمن أن الله سيهبني القوة التي أحتاجها حتى أظل على إيماني به وأعظم اسمه بكل

ما بقى لي من جوارح ، أتخيل أنني سأشعر في أعماقي بإحساس مـــــن الراحـــة والسلام ، ويقيني أن الله سيهبني ما يعينني على اجتياز ذلك الموقف المرعب .

أنا أعتقد أننا في عصر غريب جداً ، فالعالم يتحرك صوب دماره ، ولا يبدو ما يبشر أن ذلك الإيقاع سيتغير ، فماذا بعد ذلك ؟

لا أملك إجابات تزيد عن الإجابات التي أجدها عند الآخرين كل ما أعرفه أن الله هو المهيمن ، ووعد مؤمنيه بالنصر.

المحتويات